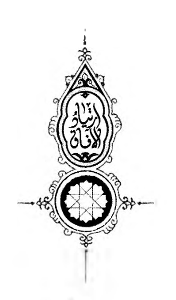
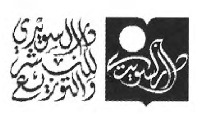
رحلة ابن بُطْلان

1049 م



رحلة ابن بُطْلان
إيوانيس المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بُطلان / مؤلف
[صنعها وحققها: د. شاكر لعيبي]
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: القرية الإلكترونية/أبو ظبي
الخطوط: محمد مندي

رحلة ابن بُطلان

1049م

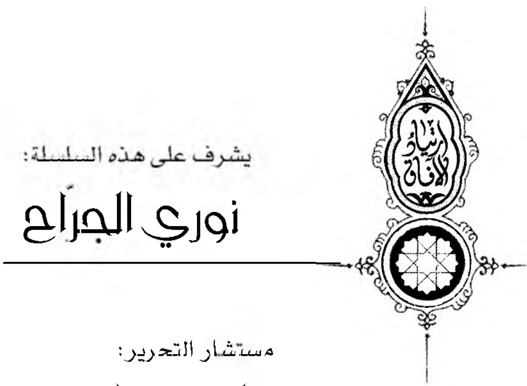
إيوانيس المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بُطلان

(طبيب بغدادي نصراني)

صنَعها وحَققّها

د. شاكر لعيبي

الكتاب الحائز على
جائزة ابن بطوطة
للأدب الجغرافي 2005



"وخرجنا من حلب إلى أنطاكية، فبتنا في بلدة للروم تعرف بـــ (عِمّ) فيها عين جارية يُصادُ فيها السمكُ، ويدور عليها رحىً. وفيها من مشاوير الخنازير ومُباح النساء والزنا والخمُور أمر عظيم. وفيها أربع كنائس وجامع يُؤذنُ فيه سرّاً"."

نص الرحلة ص 96

"...ومُنذ سنة وكَسْر، وقعت في الكنيسة صاعقة، وكانت حالها أعجوبة، وذلك أنه تكاثرت الأمطار في آخر سنة 1362 للإسكندر الواقع في سنة 442 للهجرة، وتواصلت أكثر أيام نيسان، وحدث في الليلة التي صبيحتها يوم السبت الثالث عشر من نيسان رَعدٌ وبَرقٌ أكثر مما أُلفَ وعُهدَ وسُمع، في جُملته أصوات رعد كثيرة مَهولة أزعجت النفوسَ. ووقَعتْ في الحالَ صاعقةٌ على صَدفة مخبأة في المذبح الذي للقُسيان ففلَقتْ عن وجه النسرانية قطعة تشاكل ما قد نُحت بالفاس والحديد الذي تُنْحَتُ به الحجارة. وسقط صليبُ حديد كان منصوباً على علو هذه الصدفة وبقي في المكان الذي سقط فيه، وانقطع من الصدفة أيضاً قطعة يسيرة. ونزَلَت الصاعقة من منفذ في الصدفة وتَنْزُلُ فيه إلى المذبح سلسلة فضة غليظة يُعلق فيها الثميوطون، وسَعة هذا المنفذ إصبعان، فقطَّعت السلسلة قطعاً كثيرة، وأنسبَك بعضها، ووُجد ما أنسبَك منها مُلقَى على وجه الأرض."

نص الرحلة ص 98



تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحد من أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّات أدب الرِّحلة، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحَّالة عرب ومسلمين جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخبروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرق، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب

الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معاد للغرب، رافض له، ومستعدٍّ لمقاتلته.

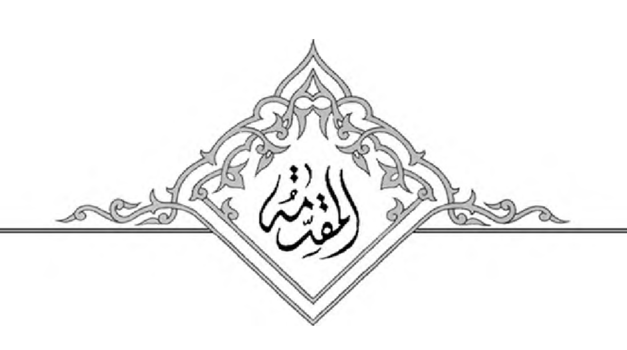
وإذاً كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلة جائعة إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإنَّ أدب الرحلة العربي إلىً الغربً والعالم، كما سيتَّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من باب طَلَب العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديثَ، واقتفَاء أثر الآخر للخروج من حالة الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا َالمنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه

مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتياد الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نَيل المعرفة مقرونةً بالمتعة، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



لم يكن ابن بُطلان رحّالةً بالمعنى المألوف، لأنه كان، قبل ذلك، طبيباً ماهراً قضى جُلّ وقته في معالجة مرضاه، وبكتابة مصنفات طبيّة، تتابعُ المنطق الاستقرائي العقلاني. عقلانية الرجل ومنطقه الاستقرائيّ الصارم مشهودٌ عليهما في مؤلفاته الواصلة إلينا، مثلما سجالاته الحميمة مع أطباء عصره.

سوى أن ابن بُطلان كتب نصاً يقع في صلب أدب الرحلة بالمعنى الدقيق المعروف. رحلةٌ يبدو أن متناً من متونها لم يصلنا كاملاً، ولم يتبق منها غير ما أورده مؤلفون معاصرون له ولاحقون به. فقد دوّن الرجل مشاهداته في البقاع التي زارها في نوع من رسالة شخصية (أو أكثر من رسالة) بعثها، على وجه الخصوص، إلى هلال بن المحسِّن بن إبراهيم الصابئ الكاتب المعروف، مؤلف "رسوم دار الخلافة". وهو ما ينص عليه القفطي من دون لَبْس وهو يزوِّدنا، لحسن الحظ، برسالة طويلة يسرد فيها ابن بطلان للصابئ رحلته، قائلاً:

"شاهدتُ في (كتاب الربيع) لمحمد بن هلال بن المحسِّن نسخة كتاب وَرد من ابن بطلان بعد خروجه من بغداد، بصورة ما لقي في سفرته، إلى الرئيس هلال بن المحسِّن بن إبراهيم، نسخته:.......".

ثم ينقل القفطي ما قرأ في (كتاب الربيع) وهو كتابُ ابنٍ يُدْرِجُ رسالةً وُجهَتْ إلى أبيه وهي رحلة ابن بُطْلان.

يستنتج الباحث ميخائيل عواد: "لعلّ هلالاً أفاد مما كتبه إليه ابن بُطْلان من أمر هذه الرحلة، فأودعه بعض كتبه"[1]، وهي قضية تستحق المراجعة والتأمل والفحص.

طبيبٌ يُعنى بكتابة أسفاره هو أمرٌ قليلُ الحدوث في تاريخ الثقافة العربية. إن تنوّع اهتمامات ابن بطلان تدلّ على أريحيته واتّساعِ أفقه. وهو ما يضعه في مصاف رحّالة من طراز فريد، ويجعله نوعاً من المثقفين الموسوعيين الذين تتسعُ مجالاتُ اهتمامِهم خارجَ نطاقِ تخصُّصهم، وهو حال المثقف الحقيقي من كلّ العصور.

من هو ابن بُطْلان؟

هو إيوانيس المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، الطبيب البغدادي المشهور.

وهو، حسب ابن أبي أصيبعة[2]، "أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصرانيٌّ من أهلِ بغدادَ، وكان قد اشتغل على أبي الفرج عبد اللّه بن الطيّب[3] وتتلمذ له، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها،

(1) الصابئ: رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي، بيروت ط2 سنة 1986، المقدمة ص20.

(2) هو أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي السعدي. أبو العباس موفق الدين، المعروف، شيخ الأطباء في عمره. ولد في دمشق سنة 590هـ وقرأ الطب على شيوخ الطب ومنهم رفيع الدين الجيلي (ت: 641هـ) وقرأ علم النبات على ابن البيطار المتوفى سنة 646هـ، وأخذ عن مشاهير الشيوخ الحديث والتفسير والأدب والشعر والنجوم وتمرن في البيمارستان النوري وطبب في بيمارستان القاهرة (الناصري) الذي بناه الملك صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب. ثم عاد إلى دمشق وانتقل إلى (صرخد) في خدمة صاحبها الأمير عز الدين أيبك وبها توفي. من تصانيفه كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) و (إصابات المنجمين) و (التجارب والفوائد) و (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء) و (معالم الأمم) وغير ذلك. توفي عن 78 عاما. كان شاعرا مجيدا

(3) أبو الفرج بن الطيب هو الفيلسوف الإمام العالم أبو الفرج عبد اللّه بن الطيب، وكان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصارى ببغداد، ويقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي، ويعالج المرضى فيه. وكان عظيم الشأن، جليل المقدار، واسع العلم، كثير التصنيف، خبيراً بالفلسفة، كثير الاشتغال فيها. وقد شرح كتباً كثيرة من كتب أرسطوطاليس في الحكمة وشرح أيضاً كتباً كثيرة من كتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب. وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا. وكان الشيخ الرئيس يحمد كلامه في الطب. وأما في الحكمة فكان يذمه. (الرازي)

ولازم أيضاً أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني[1] الطبيب واشتغل عليه، وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة أعمالها"[2].

وكان أبو سعيد عبيد اللّه بن جبرائيل بن عبد اللّه بن بختيشوع[3] معاصراً لابن بطلان ويجتمع به ويأنس إليه وبينهما صحبة" وهو ما يقوله الرازي كذلك عن علاقتهما.

وبصدد أساتذة رحالتنا يذكر ابن أبي أصيبعة أن أبا الفرج بن الطيّب، وهو طبيب عراقي (انظر ترجمته)، قد خلّف جماعة من التلاميذ منهم رحّالتنا. ويلقّب أبا الفرج هذا بـــ (عجوز النصارى)، وقد قرأ عليه بن بطلان، ولازمه سنين عدة. ويُذْكَر أن ابن بطلان قال:

"وشيخنا أبو الفرج عبد الله بن الطيّب بقي عشرين سنة في تفسير مَا بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة[4] كَاد يلفظ نفسه فيها، وَهذا يدلك على حرصه واجتهاده وطلب العَلَم لعينه[5]، ولولا ذَلكَ لما تكلف. عاش إِلَى بعد العشرَيَن والأربعَمَائة وقيلَ لي مات سنة خمس وثلاثَين وأربعمائة"[6] من الهجَرة.

كما يذكر ابن أبي أصيبعة أن عبيد الله بن جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع ابن جورجس بن جبريل، أبو سعيد الطبيب[7]، وكان من فضلاء الأطباء، متقناً للطب ولأصوله وفروعه، وكان جيّدُ المعرفة بمذهب النصارى. وكان يجتمع بابن بطلان الطبيب، وبينهما مؤانسة؛ وكان بميّافارقين. ولا يمثّل هذا الرجل الشخصية الرئيسية في كتاب (دعوة الأطباء) الذي سنأتي على

---

(1) وهذا ما يقوله حرفياً ابن سينا (القانون في الطب): هو " أبو الحسن الحراني هو أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني، كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية، وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعاً على أسرار الطب. وكان مع ذلك ضنيناً بما يحسن".

(2) وهو على ما يقول ابن سينا (القانون في الطب) "أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان. نصرانيٌ من أهلِ بغدادَ، وكان قد اشتغل على أبي الفرج عبد اللّه بن الطيّب وتتلمذ له، وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها. ولازم أيضاً أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الطبيب واشتغلَ عليه وانتفعَ به في صناعة الطب وفي مزاولة أعمالها".

(3) "ومعنى بختيشوع عبد المسيح، لأن في اللغة السريانية البخت العبد، ويشوع عيسى. ولما توفي بختيشوع الأب خلَّف عبيد الله ولده، وخلف معه ثلاث بنات. وكان الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونهم بالأموال. فتفرقوا واختلفوا، حسب الرازي. وعبيد الله بن جبرائيل هو أبو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس بن جبرائيل. كان فاضلاً في صناعة الطب، مشهوراً بجودة الأعمال فيها، متقناً لأصولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها، وكان معاصر ابن بطلان ويجتمع به ويأنس إليه وبينهما صحبة. وتوفي في شهور سنة نيف وخمسين وأربعمائة للهجرة".

(4) (مرضة) و(بولة) (فصدة) بمعنى مرضٌ وبولٌ وفصدٌ هي من المفردات الشائعة في قاموس أطباء ذلك العصر وإن بدت أقرب إلى العاميات العربية.

(5) أي طلب العلم لنفسه وليس لشيء سواه.

(6) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص151.

(7) وردت ترجمته أعلاه.

ذكره، حيث لا يبدو لنا أن إقامة ابن بختيشوع هذا بميّافارقين تقوم دليلاً على أنه يمثّل، بحال من الأحوال، (الطبيب الشيخ) المقيم في المدينة نفسها كما ورد في الكتاب. هذا الأمر مُسْتَبْعدٌ بسبب علاقة الودّ الوثيقة بين الرجلين.

ترك ابن بطلان عدداً كبيراً من المصنفات الطبية أهمها: (تقويم الصحّة) الذي تُرجم وطُبع، مقامة (دعوة الأطباء)، مقالة في شرب الدواء المسهل، مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته، كتاب المدخل إلى الطب، كتاب (عمدة الطبيب في معرفة النبات) موجودة نسخة خطية منه في مدريد ويستشهد به، مرةً، ابن البيطار في كتابه المطبوع. وله كذلك مقالة في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج[1] واللقوة[2] والاسترخاء.

وكتبه، حسب ابن أبي أصيبعة، هي: (كتاب الأديرة والرهبان)، (كتاب شراء العبيد وتقليب المماليك والجواري) ويبدو أنه مطبوع حسب إشارة للزركلي، (كتاب تقويم الصحة)، (مقالة في شرب الدواء المسهل)، (مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقي الأدوية المسهلة وتركيبها)، (مقالة إلى علي بن رضوان عند وروده الفسطاط في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، جواباً عما كتبه إليه)، (مقالة في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها)[3]، (مقالة في الاعتراض على من قال أن الفرخ أحرّ من الفروج بطريق منطقية)، كتاب (المدخل إلى الطب)، كتاب (دعوة الأطباء)

(1) انظر تعريفاً للفالج في متن الرحلة.

(2) انظر تعريفاً للقوة في متن الرحلة.

(3) ننقل عن (وفيات الأعيان) لابن خلكان العبارة كاملة وهي نفسها في المطبوع من متن (طبقات الأطباء): "قال ابن أبي أصيبعة: نقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان في مقالته في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء، قال: إن أول من فطن لذلك ونبه على هذه الطريق ببغداد وأخذ المرضى في المداواة بها وأطرح ما سواها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب، فإنه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب، ومنع المرضى من الغذاء، فأنجح تدبيره، وتقدم في الزمان بعد أن كان فاصداً في البيمارستان، وانتهت الرياسة إليه، فعول الملوك في تدبيرهم عليه، فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة، ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب".

ألفها للأمير نصير الدولة أبي نصر أحمد بن مروان[1]، كتاب (دعوة القسوس)، (مقالة في مداواةِ صبيٍّ عرضتْ له حصاة)"[2].

وفي مكتبات القاهرة توجد اليوم لابن بطلان المخطوطات التالية:

- تفسير دعوة الأطباء لابن بطلان (524 طب طلعت عربي).
- شرح مسايل الإمام أبي الحسن بن بطلان- شرح دعوة الأطباء وإظهار معانيها لذوى العقول الألبا (5089 ل عربي).
- المقالة المصرية في مناقضات على بن رضوان المصري (883 فلسفة عربي).
- تقويم الصحة – المفردات الطبية (186 طب تيمور عربي).
- دعوة الأطباء (4653 آداب طلعت عربي).
- كتاب في تقويم الصحة (584 طب عربي).
- مقالة أبى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون- الشعبذة العقلية (881 فلسفة عربي).
- مقالة في أن الفروج أحر من الفرخ (407 طب تيمور عربى).
- وقعة الأطباء (91 مجاميع تيمور عربي).

وفي المكتبة الوطنية لعلم الطب في الولايات المتحدة توجد له مخطوطة (كُنّاش الأديرة والرهبان MS A 37, fol. 1b) منسوخة في القرن الثامن عشر الميلادي.

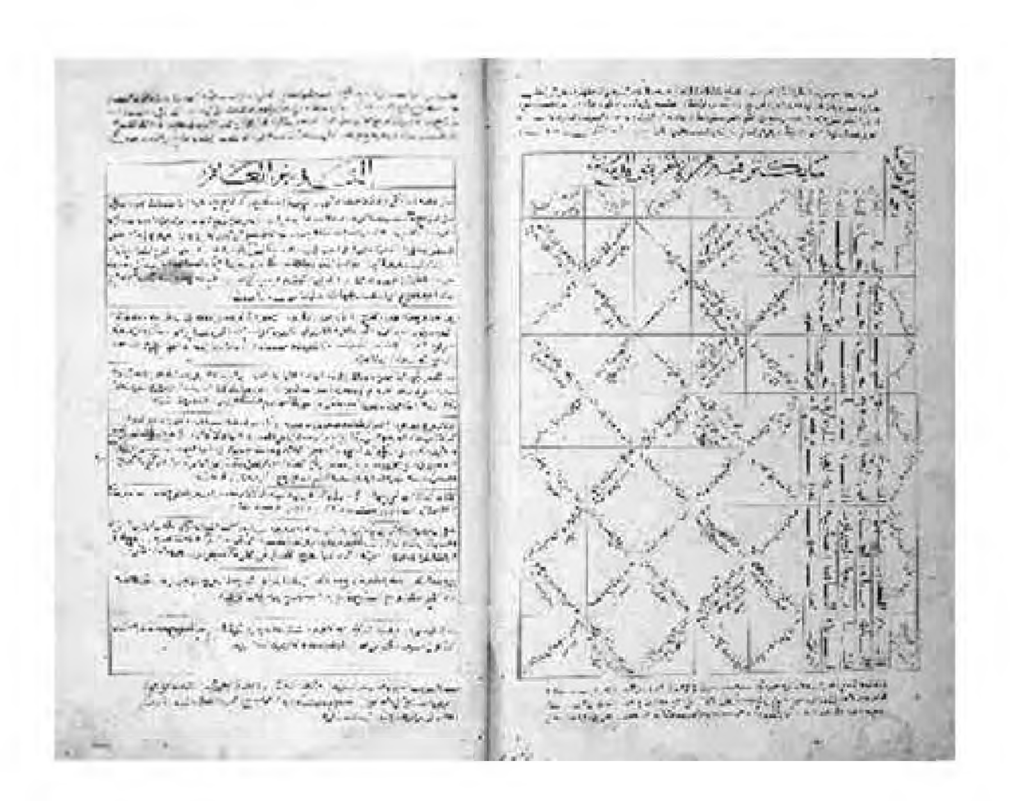
(1) يذكر ابن سينا (القانون في الطب) عن هذا الرجل أنه: "زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى، وكان نصرانياً نسطورياً، وأخوه مطران نصيبين المشهور بالفضل وخدم زاهد العلماء بصناعة الطب، نصير الدولة بن مروان الذي ألف له ابن بطلان دعوة الأطباء".

(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1965 ص328. كل ما يرد نقلاً عنه مأخوذ من هذه الطبعة.

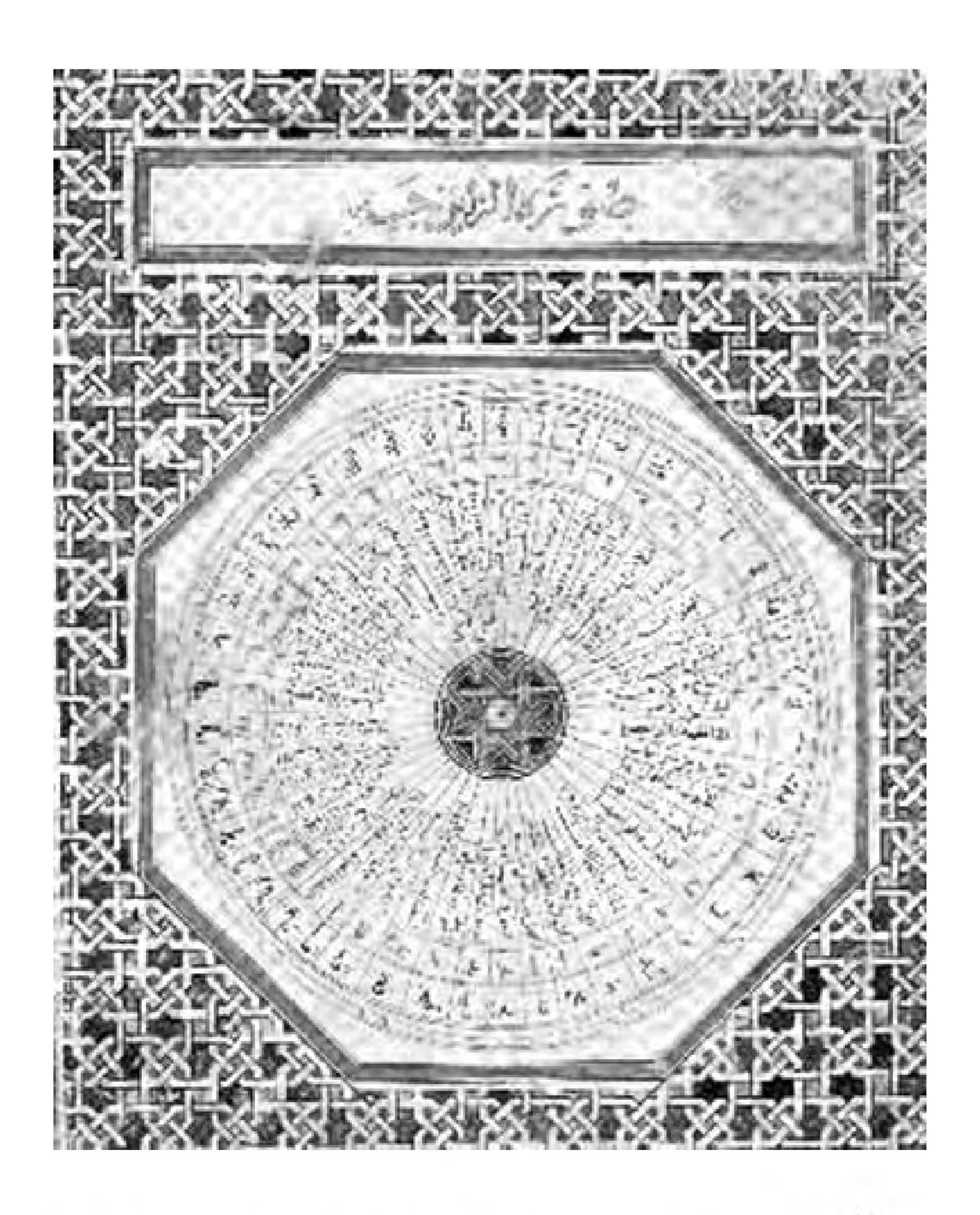
وفي (مركز الدراسات الإسماعيلية) في لندن، توجد مخطوطة لـــ(تقويم الصحة). وتوجد نسخة مخطوطة من الكتاب هذا نفسه في مكتبة جامعة مدينة لييج البلجيكية[1]، وأخرى في المتحف البريطاني.

---

(1) انظر: Jeanne Gobeaux-Thonet, Un manuscrit inédit du Tacuinum Sanitatis in Medicina d'Ibn Butlan conservé à la Bibliothèque de l'université de Liège, p. 101-111



مخطوطة (تقويم الصحة) خط نسخ، القرن الرابع عشر الميلادي.
مكتبة مركز الدراسات الإسماعيلية، لندن.



غلافُ مخطوطةٍ أخرى من (تقويم الصحة). سوريا سنة 1213م، مدرسة الموصل، المتحف البريطاني.

الرحلة ومنهجنا في بنائها وتحقيقها

لقد شرع ابن بطلان برحلته في مستهل شهر رمضان سنة 440 الهجرية الموافق لشهر شباط سنة 1049 الميلادية. نحن إذن أمام واحدة من أقدم الرحلات العربية الواصلة إلينا، وهو أمر يزيد من غواية هذه الرحلة ويمنحها أهمية استثنائية كاملة. وإذا ما وضعنا الرحلة في سياقٍ زمني، سنرى:

1 - أحمد بن الطيّب السرخسي قام برحلةٍ سنة 884م (وصلتنا نُتَفاً[1]).

2 - ابن فضلان قام برحلةٍ سنة 921م (وصلتنا، منشورة).

3 - قام أبو دُلَف برحلةٍ سنة 942م (وصلتنا، منشورة).

4 - قام المقدسيّ برحلةٍ بين السنوات 985-990م (وصلتنا، منشورة).

ظلت رحلة ابن بطلان مبعثرة هنا وهناك، وكان أكبر أجزائها محفوظاً، بشكل رئيسي، في كتابَيْ القفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) ومعجم ياقوت الحموي الشهير الذي يستعيد مقاطع منها كلما واتته الفرصة، كما في (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة المهتمّ بجميع تفاصيل سيرة ابن بطلان كون مصنَّفه يُعالج سيَر الأطباء. بالإضافة إلى المراجع الثلاثة المذكورة، يَظُنُّ عبد الله بن يحيَى السَريحي، محقق الطبعة الجديدة من (معجم البلدان) أن المقتطفات الواصلة إلينا من الرحلة موجودة في (مختصر تاريخ الدول) لابن العبري و(نوادر المخطوطات) 1/342-347 و(بغية الطلب في تاريخ حلب) لابن العديم، وفي (الحلل السندسية) وفي كتاب كراتشكوفسكي الشهير[2]. سنُعْرِضُ، من أجل الاختصار، عن إشارته (لنوادار المخطوطات) و(كراتشكوفسكيَ)، ونتوقف عند كتاب (الحلل السندسية)، ولا ندري أي كتاب يَقْصُد. إذا كان يقصد كتاب شكيب أرسلان

(1) نعيد نحن ترميم هذه الرحلة حالياً، بعد الشذرات التي استخرجتها هدى شوكت بهنام من (معجم البلدان) والمنشورة في المجلد الثامن عشر، العدد الرابع 1989 من مجلة (المورد) العراقية، تحت عنوان (ما تبقى من رحلة أحمد بن الطيّب السرخسي).

(2) انظر الهامش الذي كتبه محقق الطبعة الجديدة من (معجم البلدان)، الجزء الأول – أبو ظبي2002 ص495.

(الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) 1936، فإن إشارة أرسلان لابن بطلان لا تمتُّ على الإطلاق للرحلة من قريب أو بعيد[1].

أقول إن هناك مقتطفات لم يجرِ الانتباه إليها إما من الرحلة، أو تمسُّ إقامة ابن بطلان في هذا المكان وذاك، نجدها في (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني، وفي (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ، وهناك فقرات في (تاريخ الإسلام) لشمس الدين الذهبي، وفي (المواعظ والاعتبار) للمقريزي، وفي (الوافي بالوفيات) للصفدي.

إن غالبية المراجع القديمة المُغترفة من رحلة ابن بطلان، تكرّرُ المقتطفات والشذرات المُستْلَّة من الرحلة الأصليَة بإضافات وزيادات قيِّمة حيناً، وأقل قيْمَة حيناً. وقد قُمْنا بتجميع كلّ ما يمكن العثور عليه من الرحلة، وَإِن كانت مكرَرَّة، ووضعها أمام القارئ.

قد يكون هذا التكرارُ مفيداً في تكوين صورة موضوعية عن الطبيعة الأصليّة للرحلة، وعن تدخلات المُصنِّفين في نصّها الأصليّ. لكن إدراج كلّ شذرة نعثر عليها من الرحلة أو عن إقامة الرحّالة في بعض المدن تستهدف، من بين ما تستهدف، إعادة الاعتبار للرجل ولعمله الضائع جزءٌ كبير منه.

في بعض الحالات تتداخل نقولات المصنفِّين بكلام ابن بطلان المُستَشْهَد به، بحسن نيّة غالباً، وفي حالات أخرى تكون المقدّمات التي يستهلّون بها نصّ الرحّالة ضروريةٌ في إضاءته. لهذا عملنا على التفريق طباعياً بين نصوصهم ونصّه، وذلك بجعل استهلالاتهم وتعليقاتهم في الجانب الأيسر من الصفحة، في حين يُشْغِل نصّ الرحّالة كامل عرض الصفحة المطبوعة، دون التفريط باستمرارية كَلامهم ووحدته. هذا الأمر سيساعد في تقييم أهمية نقولاتهم عنه ومقدار تدخلاتهم في نصه مبرزين النصَّ وحدَهُ في آنٍ.

لقد شغلتْ رسالة جوابية لابن بطلان إلى بن رضوان حيّزاً مُعْتبراً من عملنا الراهن، كما مَنَحْنا رسالةً متأخرةً ينقلها القلقشندي مكاناً معقولاً كذلك واعتبرنا الاثنين جزءاً من هذه الرحلة، وذلك أن رسالة ابن بطلان تقع، من طرفها، في

(1) في معرض تردده، في أثناء مقامي بمدريد على مكتبة أكاديمية التاريخ، يذكر أنه عثر فيها على كتب كثيرة: "وقطفت من أزهارها. ونسخت بقدر ما أمكنني الوقت، وإني لذاكر الآن بعض الكتب (...) "عمدة الطبيب في معرفة النبات"، لابن بطلان).

صميم رحْلات الرجل، ولأن فيها على الأقل ثلاث نوادر من تلك السرديات التي ينقلها لنا عادةً الرحّالة:

1 - "أنني حضرتُ مع تلميذ من تلاميذ الشيخ، ظاهر التجمل، بادي الذكاء إن صدقت الفراسة فيه...الخ".

2 - "مَا أشبه تلْكَ الحكاية إلاَّ بما حدثني به الشيخ أبو النصر بن العطار بأنطاكية. فإنه ذكر أنَ طبيباً رومياً شَارَطَ مَريضاً به غبّ خالصة على برئه دراهم معلومة...الخ".

3 - "ذكروا أن فيلسوفاً أودع بعض أمناء قضاة أثينية ثوباً...الخ".

ولأن فيها، وهذا ثاني الأسباب لإدراجها، تتجلى روح الرجل العلمية والأخلاقية ومعاييره في فنّ الحوار: "وفي هَذه المقالة يأمرني الشيخ بتصفح تصانيفه لأهدي إِلَى الناس عيوبه، وَمَا أجدُهُ من أَغْلُوطَاته. ومعاذ الله فإن قدره يجلّ".

إننا ندرج الرسالة لأننا، أخيراً، لا نعدم، في غالبية الرحلات التي نعرف، استطرادات شعرية وأدبية وجغرافية ورسائل متفرقة لا تقع بالضرورة في صلب الوصف البلدانيّ الذي نفترض عادةً أنه عمل الرحّالة الأوّل والأخير. الرسالة إذن ضرورة في تبيان أبعاد الرحلة إلى مصر وبعض أهدافها.

أما فيما يخصّ الرسالة التي ينقلها القَلْقَشَنْدي، بشأن تعيين طبيب في البيمارستان المنصوري في القاهرة، المكتوبة بعد وقت جدّ طويل منَ موت ابن بطلان، فإنها تنتهي بذم الرجل، وكأن فعله السجالي وزيارته العلمية للفسطاط قد انحفرت عميقاً في الذاكرة الثقافية في البلد، وكأن ذكراه ما زالت حية هناك. الإشارة الواردة فيها القائلة في مدح الطبيب المعيَّن الجديد:

"وليبطل بتقويمه الصحة ما أَلَّفَهُ ابن بطلان"

تُبَرهن، وإنْ بقليل من اللياقة، على أن ابن بطلان قد زرع شكوكاً عميقةً في المعارف السائدة في مستشفيات عصره، وأن خلافه المعرفيّ القديم مع ابن رضوان كان وسواساً حقيقياً لبعض العلماء هناك، بحيث كان يتوجب استذكاره بمناسبة لا تنتهي بصلة وثقى إلى المعرفة، ولا إلى المناسبة المُشار إليه فيها، ولا إلى سياقات الخلاف مع ابن رضوان أو سياق عمل الرحالة البغداديّ. هذه الإشارة الطفيفة

للرجل، بعد رحيله، تبرهن، من جهة أخرى، إلى أن حضوره على أرض الكنانة كان مؤثراً وساخناً إلى حدٍّ لا يمكننا تصوره للوهلة الأولى.

مسار الرحلة وما بقي منها

خرج بان بطلان من بغداد إلى الموصل وديار بكر. ودخل حلب[1]، وأقام بها مدة، فأكرمه صاحبها معزّ الدولة ثمال بن صالح[2]. وشاهد رصافة هشام. ثم ترك حلب متوجِّهاً إلى مصر من أجل الاجتماع بخصمه علي بن رضوان[3]، وكان دخوله الفسطاط في أول جمادى الآخرة سنة 441 هـ. وأقام بها ثلاث سنين جرت له في أثناءها مع ابن رضوان وقائع كثيرة، ولّدت رسائل جدلية[4]، فترك ابن بطلان مصر مُغَضباً، وألَّفَ في ابن رضوان رسالةً مشهورةً. وسار ابن بطلان إلى القسطنطينية، وكان الطاعون متفشياً فيها سنة 446 هـ، فأقام بها سنة واحدة. ثم انتقل إلى إنطاكية واستقر فيها، وقد سئم الأسفار، فتنسَّكَ وانقطعَ إلى العبادة حتى وفاته سنة 455 هـ. وتاريخ الوفاة هنا محض تخمين من طرف بعض الباحثين، وفيه اختلاف كبير.

نعتقد أن ما وصلنا ليس سوى جزء من الرحلة، أي الرسالة التي كتبها ابن بطلان إلى الصابئ، ونقلت مجتزأة. هناك ًالكثير من الأدلة على ضياع شطر مهمّ من الرحلة، ويقع، على رأسها، الشذرتان غير الموجودتين في أيٍّ من الاستشهادات المطوَّلة نسبياً بالرحلة، وهما: الشذرة التي ينقلها ياقوت الحموي عن مدينة يافا غير

(1) انظر: Ibn Butlan in Bilad al-Sham: the Career of a Travelling Christian Physician," in: Syrian Christians under Islam: the First Thousand Years, ed. David Thomas. Leiden: E.J. Brill, 2001, 131-57.

(2) هو ثمال بن صالح بن مرداس الكلابي. أبو علوان، معز الدولة، من ملوك الدولة المرادسية بحلب ولي الملك سنة 434 هـ، أيام قيام دولة الفاطميين بمصر، فسيّر إليه الفاطميون ثلاثة جيوش قاتلها ثمال وردّها، ثم كاتب المستنصر بالله الفاطمي وبعث إليه بهدايا ثمينة ونزل له عن حلب وسلمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، وقد ولاه المستنصر عاملا له عليها. ورحل ثمال إلى مصر سنة 449 هـ، وفي سنة 542 هـ ثار محمود بن نصر بن مرداس على مكين الدولة واستولى على حلب فعاد الفاطميون على ثمال يفاوضونه في استرداد حلب من ابن عمه محمد بن نصر، فزحف بجيش من مصر فملكها ثانية سنة 454 هـ واستتب له الأمر. وفي سنة 454 هـ التقى معز الدولة مع ملك الروم في مدينة (ارتاح) من أعمال حلب وانتصر عليه وغنم وسبى كثيرا حتى بيعت السرية الحسناء من الروم بمائة درهم، وبعدها بمدة توفي وخلفه أخوه عطية بن صالح.

(3) سترد ترجمته.

(4) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن رضوان المصري، تحقيق يوسف شاخت ومايرمرف، طُبعَ في القاهرة عام 1936 لم يقع الكتاب بين يدي للأسف الشديد. وهو كما يبدو لي كتاب صدر بالإنكليزية والعربية حسب المرجع أدناه: Meyerhof, Max/ Schacht, Joseph (Hg.): The medico-philosophical controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo. A contribution to the history of Greek learning among the Arabs. S.L., Egyptian University 1937.

الموجودة في أي مصدر آخر سوى (معجم البلدان)، كما تلك الشذرة المتعلقة بمدينة تنيس التي يوردها المقريزي غير الموجودة بدورها في أيٍّ مرجع آخر سواه كما نظن. وكلا المؤلفين يذكران أنهما نقلاها عن ابن بطلان، أي رحلته المفقودة.

هناك أمر يتوجب الإشارة إليه وتفحّصه، هو القصص التي يوردها أسامة ابن منقذ في كتابه (الاعتبار) عن طبيب حلبي مشهور اسمه "يوحنا بن بطلان"، وهو ما يثير مشكلة جدية تحتاج إلى حل.

هل (يوحنا بن بطلان) هو رحّالتنا نفسه أم غيره؟

علينا العودة إلى جملة إشارات في كتاب أسامة علّها تُساعدنا على إيجاد حلٍّ، وأولها أن يوحنا ابن بطلان هذاً قد عالج جده الأكبر أبا المتوّج مقلد بن نصر بن منقذ، عز الدولة. وإذن فقد كان، في الغالب، معاصراً في وقت من الأوقات من عمره لابن بطلان رحّالتنا. وهو أمر يؤكّد أن يوحناَ هذا ليس سوى ايوانيس (أو يوانيس) بن بطلان، المعروف لدينا (انظر كذلك هامشنا في مكانه من الكتاب)، وأن الأمر لا يعدو أن يكون اجتهاداً من ناسخ أسامة الذي لم يعرف لإيوانيس معنى، أو أن يكون (يوحنا) هو الاسم الشامي الأصلي المعروف الذين ترجمه اليونان والإغريق بـــ (يوانيس Johannes، Julius، Joannes، ثم Jonas وJean) وحرف الـــ S هو حرف النسبة في اليونانية. وهذا هو الصحيح في غالب ظني، مما يعني أن ابن بطلان مُنح اللفظة المترجمة وليس الاسم المحلي الشائع في سوريا.

هناك إشارتان أخريان يدلان على أن (يوحنا بن بطلان) هو (ايوانيس بن بطلان):

الأولى: توكيد أسامة على اشتهار الرجل وذياع صيته بالطبّ، بدليل أنه يكرّس بعضَ الصفحاتِ لقدراته الطبية العالية بالضبط.

الثانية: توكيده على أنه من سكّان حلب، وهو ما كان حال رحّالتنا لبعض الوقت.

وهناك كذلك دليلٌ منطقيٌّ صارخٌ على ما نقول يقع في أن ابن بطلان لم يتزوج و لم يترك أحفاداً لكي يتسموا باسمه.

لكن الدليل القويّ والأكيد هو عدم ورود أي طبيب يحمل اسم (يوحنا بن بطلان) لدى ابن أبي أصيبعة المعروف بدقته وشمول كتابه وسعة اطلاعه وكثرة مروياته التي لا تترك شاردة وواردة يعرفها عن الأطباء إلا وأدرجها في عمله الموسوعي.

وإذن فإن "يوحنا بن بطلان" ليس إلا رحّالتنا من دون شك، وربما يكون أسامة – وليس الرجل بمؤرخ محترف كما نعلم- قد وقع بسَهْو أو مرّ بعُجالة على اسم ابن بطلان لأنه كان شغوفاً، فحسب، بنقل حكايات وطُرَفٍ عن شهرته وعلوِّ صيته.

تبقى مشكلة مرويات القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) بصدد مدينتي أنطاكية واللاذقية. ومن الجلي أنه ينقل، حرفيا مرات، عن رحلة ابن بطلان أو منْ مَنْ نَقَلَ عنهُ. وإنه يَخْلط، مرات، كلامه بكلام الرَّحّالة وكأنه يسعى إلى جعل نصّ الأخير نصّه الشخَصيّ. لن تشتبه القضية على قارئ نابه لأن ما ينقله ليس غير كلام ابن بطلان كما اكتشفنا (انظر نص القزويني غير المنسوب لأحد في هذا الكتاب عن أنطاكية واللاذقية)، وهو منقول عن ابن بطلان، من دون شك، حتى بأسلوب ابن بطلان الأدبي. إن اختلاف أساليب الكتابة الأدبية في (آثار البلاد) يدلُّ، في رأيي، على أن القزويني ربما لا يمتلك الأمانة التي يمتلكها من سبقه من البلدانيين، وأخص من بينهم ياقوت والمقدسي وإمام الفحص المنهجي والاستقامة المسعودي. هؤلاء ظلوا أمناء لمراجعهم ناقلين بدقة أسماء مؤلفيها ونصوصهم. نقولات القزويني غير المنسوبة لأحد تجعلنا نعتقد أن ثمة فارقاً بين (التأليف) و(التصنيف) وهو ما نعرفه، ومن ثم بين (تصنيفٍ) أمينٍ لمصادره و(تصنيفٍ) غير أمين.

إننا نتوقف إذن، في معرض كتاب القزويني، أمام دلالات التناصّ التي قد تذهب إلى حدٍّ يشابه السرقة الأدبية. عندما نسب القزويني الفقرة المتعلقة بدور البغاء في اللاذقية التي سنعلّق عليها في السطور التالية، فإنه ذكر قبلها التالي: "قال رطلين:..". من هو رطلين هذا؟ ولماذا بقيت (رطلين) على حالها في الطبعات المنشورة من كتاب (آثار البلاد) دون أن يمحِّصَها أحدٌ؟ (رطلين)، ببساطة هو تصحيفٌ ظاهرٌ لاسم (ابن بطلان) فات محققو (آثار البلاد) استدراكه. سوى أن النتيجة الأهمّ في هذا التصحيف هي أن نقل القزويني عن ابن بطلان في هذا

الموضع بالضبط، يدلّ على أنه كان يعرف يقيناً رحلة الرجل، وأنه استعار منها أثناء كلامه عن اللاذقية وأنطاكية دون أن يخبرنا أبداً.

قدَمُ رحلة ابن بطلان إضافة إلى كتابتها بأسلوب الرسالة الشخصية يدلّ من جديد على أن أدب الرحلة لم يكن يجد المكانَ المناسب بين الفنون الكتابية والتصنيفية للعصر. لقد حُفظتْ آثار ابن بطلان الطبية والفكرية بعناية، لكن الرحلة تجوهلتْ نسبياً، ولم تُحفظ إلا عَرَضَاً في كتب البعض من الجغرافيين والبلدانيين.

وإذا ما أحببنا هذه الرحلة المُقتَضَبة، على الأقلّ في نسختها التي ينقلها القفطي وياقوت الحموي، فلخلوِّها من الاستطرادات، والتقطاها لما بدا أساسياً للرحّالة، ولأنها مكتوبة بلغة مشذَّبة، لا تقعّر ولا حشو فيها. ميزة رواية القفطي إنها، على قصرها، تنقل لنا ديباجةً الرحلة ومستهلها التقليدي، بينما تمتاز رواية ياقوت إنها تنقل لنا حوادث تفصيلية لا يذكرها القفطي مثل الحادثة التي أودت بكنوز كنيسة أنطاكية.

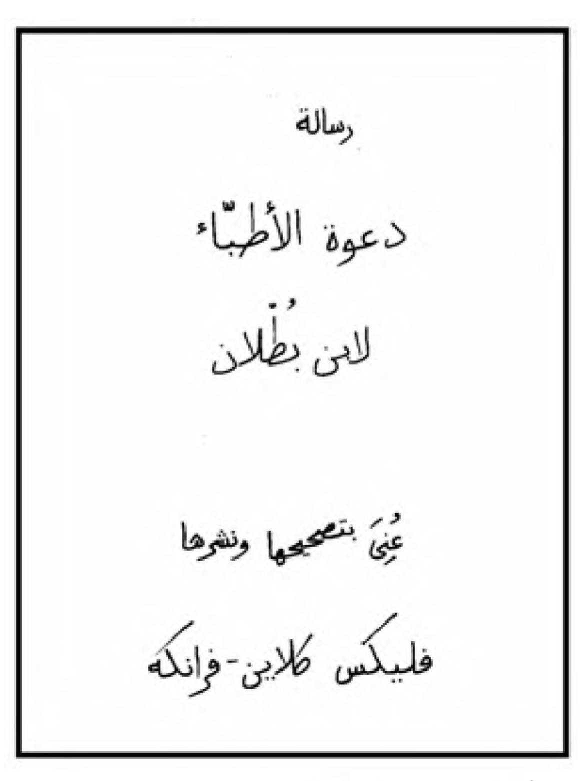
مقامة ابن بطلان (دعوة الأطباء) هل هي سيرة ذاتية؟

لا يسمح أدب الرحلة، في الأعم الأغلب، بأساليب نثر معقَّدة ولا باستطالات لغوية وإنشائية لا طائل من ورائها، وذلك بسبب موضوعاته نفسها التي تستلزم وصفاً مدقّقاً. مثلما لا يسمح موضوع ابن بُطْلان، بوصفه متخصِّصاً بالطبّ، بمثل هذا الأسَلوب المقعَّر في كتاباته السجالية، خاصة كتابه (دعوة الأطَباء)[1].

لم يكتب ابن بطلان مصنفات موسوعية في حقل الطب الذي كان قريناً يومئذ للحقل الفلسفي، على أن نشاطاته الكتابية ركّزت على التعبير عن آراء مغايرة لما كان سائداً في زمانه من الفكر التقليدي، ومناهضاً لمقلدي وأتباع الطب الإغريقي خاصة.

(1) المختار بن الحسن بن بطلان: دعوة الأطباء، درسه وحققه: عزت عمر، دار الفكر ــ دمشق 2003، 206 صفحة من القطع الكبير.

كان الرجل كشّافاً وفاضحاً للخرافات والأوهام التي تخلط الطب بالسحر وبالخرافة. كان ابن بطلان رجلاً مختبرياً. وقد كان عمله وكتاباته ورسائله تركّز كلها على البعد العلمي المحض في الطب ثم الجانب العملي والوقائي فيه لكي يُفيد منه العامة والخاصة والمسافرون والرهبان في الأديرة كما يلمِّح، مشيراً بضرورة اتباع أساليب الوقاية والحمْيَة والغذاء والدواء الملائم. وفي هذا الصدد خاض حواراً معرفياً مع معاصره المصريّ علي بن رضوان. ثم كتب نصه (دعوة الأطباء) بروح تمتلك الكثير من النقد الفَكِه، والسخرية الماضية وبأسلوب وصفي وسردي، يخلط الشعر بالنثر، والطرفة بالجدِّ، ويستلهم الحكم العربية والمأثورات اليونانية. (دعوة الأطباء) تتضمن رسالة اجتماعية وعلمية وأخلاقية بالمعنى النبيل لكلمة (أخلاقية) تقول بضرورة الالتزام بتقاليد دقيقة للمهنة بعيداً عما كان يسود في الأوساط الطبية من ممارسات لا تليق بشرف المهنة، ومن استغلال المرضى الفقراء والأغنياء كليهما من أجل المال وحده.



طبعة المستشرق الألماني فيليكس كلاين- فرانكه Felix Klein-Franke من (دعوة الأطباء) التي نشرها مطبوعةً بخط يده في ألمانيا سنة 1985.

يروي ابن بطلان في كتابه «دعوة الأطباء» سيرة مُتخيَّلة لطبيب جوّال، وصلَ للتو إلى مدينة «ميّافارقين»، يلتقي في سوق العطّارين (بشيخٍ طبيبٍ)، عارف، متناقض، ساخر، متبرّم. ويذكر أمامه أنه طبيب كَحّال مرةً، ومرة فاصدً، ومرة جرائحي، ومرة صيدلاني. وهنا نكون أمام قصة طريفة تتضمن سرداً ومرويات وحوارات شيقة.

ورغم أن ابن بطلان يقول في مقدمة كتابه إن: «رسالة دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة»، فإن محقّق الطبعة السورية الأخيرة، عزت عمر، يرى أن ابن بطلان لا يفيد من حكايات «بيدبا» الفيلسوف لـــ«دبشليم الملك» وإنما يستند،

أسلوباً ولغةً، إلى كتابات الجاحظ في «البخلاء" و"البيان والتبيين» وإلى «مقامات» بديع الزمان الهمذاني التي تتألف من قصص فكاهية قصيرة، تتناول أوضاع المجتمع العباسي، والى كتابات الأصبهاني في "الأغاني" والى «التوابع والزوابع» لابن شُهيد و«رسالة الغفران» للمعري، والى أعمال التوحيدي، وكُتب المجالس والاختيارات الشعرية كافة، وباختصار، وكما يضيف المحقق نفسه، فإن (دعوة الأطباء) تنتمي إلى ثقافة ذلك العصر ولكنها في الوقت نفسه نموذج آخر لم يكتب من أجل البراعة في الأدب وإنما من أجل إيصال فكرة إلى القارئ المثقف والقارئ العادي، عبر حوارات بين الأطباء تتضمن أفكاره التي نلتمسها في تأكيده على سمو مهنة الطب ونقده للأطباء الدجّالين، وتأكيده على علمية مهنة الطب وبعدها عن التقاليد البالية والخرافات والسحر والشعوذة.

كتب ابن بطلان (تقويم الصحة) في القرن الحادي عشر الميلادي وتُرجم للاتينية برعاية الملك مانفريد Manfred الصقلي في القرن الثالث عشر، لكن الترجمة كان يعاد النظر فيها حتى القرن الرابع عشر حيث طبع في اللاتينية أخيراً عام 1531م، وتُرجم في السنة التالية إلى الألمانية. ثم أشادت به لاحقاً المستشرقة زيغريد هونكة: «وهل هناك أنفع من «تقويم الصحة» لابن بطلان من التأثيرات المفيدة أو المضرة للمناخ والتغذية، والعوارض الخارجية والحركة والراحة والنوم واليقظة، وعن الوسائط المكافحة ضررها». وكذلك يفعل جورج سارتون: «أن عدداً من المسيحيين اشتركوا في بناء العلم الإسلامي ومن بينهم ابن بطلان، وإنه ربما أوّل من شرع في كتابه الأسلوب الذي جاء في كتابه «تقويم الصحة» وهو جدول صحي مختصر في الطب». وينقل المحقق عن شاخت ديوزورث قوله: «ومن بين نقاد جالينوس والآخرين يكفينا أن نذكر الطبيب وعالم اللاهوت النصراني ابن بطلان».



صفحة تمثل قطف السبانخ من مخطوطة فرنسية هي ترجمة تأويلية لـ (تقويم الصحة Tacuinum Sanitatis)، مدينة روين Rouen، نهاية القرن الخامس عشر.

وما زال "تقويم الصحة" يُطبع ويترجم إلى اللغات الأوربية إلى يومنا، ولعل آخر ترجماته ما قام به الدكتور حسام الخادم، والصادر عن جامعة لوفين البلجيكية سنة 1990م.

- Hossam ELKHADEM , Le Taqwîîm al-Sihha (Tacuini Sanitatis) d'Ibn Butlan : un traité médical du XIe siècle. Histoire du texte. Edition critique. Traduction. Commentaire. (Académie royale de Belgique. Classe des Lettres. Fonds René Draguet, 7). Louvain, Peeters, 1990, 345 p.

لكن (دعوة الأطباء) تُعتبر من أوائل المقامات في الثقافة العربية، فهي تتوسط مقامات الهمذاني (ت 398هـ) ومقامات الحريري (ت 516هـ).

يستذكر محقّق الطبعة الجديدة من (دعوة الأطباء) حياة ابن بطلان وسجالاته مع الطبيب المصري علي بن رضوان[1]، وما جرى بينهما من حوارات في مسائل طبية، غلب عليها النقد اللاذع والاتهامات المتبادلة، خاصة حول تفضيل ابن رضوان المفرط للإغريق الذي كان حسب رأي زيغريد هونكة «رغبة ابن رضوان في تمجيد شبابه وجهوده التي بذلها يومئذ في الغبّ من مناهل الإغريق وهو الطالب الفقير ابن حمّال الماء الذي اضطر للعمل في صباه ليكسب الدراهم التي اشترى بها كتب القدامى، ولكن ذلك لا يعني أن ابن بطلان ضد علوم القدماء وإنما كان ينتقد بعض أساليب المعالجة التي اتخذها الأطباء العرب عن الإغريق".

لقد جلب (دعوة الأطباء) انتباه المعنيين، قديماً وحديثاً. فابن أثردي[2] صنّف (شرح دعوة الأطباء لابن بطلان) وفرغ منها سنة 507 هـ[3]. بينما نشر بشارة

(1) أرشدني الصديق منذر العكيلي إلى عنوان أطروحة للدكتوراه كتبتها بالأنكليزية سمبرة يوسف جادون في جامعة كاليفورنيا سنة 1968م بعنوان (The Arab Phisician Ibn Butlan) = الطبيب العربي ابن بطلان. وهي صورة منسوخة عن مايكروفيلم يُفترض أن يوجد في المجمّع الثقافي في أبو ظبي، لم أعثر عليه.

(2) هو علي بن هبة الله بن علي بن الحسين بن أثردي الطبيب أبو الحسن البغدادي. وذكر ابن سينا (القانون في الطب): "علي بن هبة الله بن أثردي هو أبو الحسن علي بن هبة الله بن علي بن أثردي من أهل بغداد. طبيب فاضل مشهور بالتقدم في صناعة الطب وجودة المعرفة لها، حسن المعالجة جيد التصنيف. ولعلي بن هبة الله بن أثردي من الكتب: شرح كتاب دعوة الأطباء ألفه لأبي العلاء محفوظ بن المسيحيّ المتطبب".

(3) انظر (هدية العارفين) للباباني (00-1339 هـ 00-1920 م): إسماعيل بن محمد أمين مير سليم الباباني البغدادي (ت، 1339هـ): عالم بالكتب ومؤلفيها، باباني الأصل، بغدادي المولد والمسكن. أقام زمناً في مقرى كوى، بقرب الأستانة، مشتغلاً بإكمال كتابه (إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون) مجلدان، طبع عام 1346هـ، كما أعادت مكتبة المثنّى نشره في بغداد. وله (هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) في مجلدين، طبع في أسطنبول سنة 1351 هـ. الأعلام للزركلي ومصادر أخرى.

زلزل (ت 1905م) وهو طبيب باحث لبناني، ذيلاً على كتاب (دعوة الأطباء) سمّاه (تكملة الحديث في الطب القديم والحديث)[1].

طبعتْ (دعوة الأطباء) أكثر من مرةٍ: عام 1901 على يد بشارة زلزل في المطبعة الخديوية بالإسكندرية، وطُبعت ثانيةً في القاهرة عام 1920، من دون إشارة لمصادر النصّ، مع شكر في نهاية الكتاب للأب لويس شيخو الذي ساعد الناشر على مقارَبَة نصه بمخطوطات أخرى. الأب شيخو، بدوره، نشر في مجلة (المشرق) مقتطفات من الرحلة استقاها من القفطي وابن أبي أصيبعة فحسب[2]، ونشر كذلك أشعاراً منفصلة لابن بطلان (في العدد 659/1925/23-664 وفي 764-769) هي التي وجدها، في الحقيقية، في ثنايا "دعوة الأطباء".

كما حقَّق "دعوة الأطباء" المستشرق الألماني فيليكس كلاين- فرانكه ونشرها مطبوعةً بخط يده في ألمانيا سنة 1985[3]. وهذه الطبعة طريفة وتستحق الاحترام، رغم وجود هفوتين إملائيتين أو ثلاث فيها، وإليها نعود. وقد ترجم هذا المستشرق العمل إلى الألمانية مع دراسة ضافية عن ابن بطلان ومخطوطات (دعوة الأطباء) ونشره عام 1984 في مدينة شتوتغارت[4].

إن سيرة وأعمال ابن رضوان مهمتّان في استجلاء فحوى أعمال وفكر ابن بطلان من دون شك. ولعل الرحالة كان يرمز لخصمه في (دعوة الأطباء) دون أن يسميه. ألا تراه يقول في نهاية الكتاب: "**وذكرنا أسماء غير دالّة على أشخاص معروفة ليصل إلى القارئ العلم بهم على جهة المحاورة**"، إضافة إلى أنه يورد مقاطع كاملة من رسائله في الرد عليه.

مَنْ هوَ، قبل كل شيء، الطبيب المصري علي بن رضوان الذي كانت الحرب الفكرية بينه وبين ابن بطلان سجالاً؟

---

(1) بشارة زلزل (00؟ – 1323هـ –00؟ – ت 1905م): طبيب باحث، من أهل لبنان. تعلم في الكلية الأميركية ببيروت. له ذيل على كتاب دعوة الأطباء لابن بطلان سماه (تكملة الحديث في الطب القديم والحديث – ط) و(تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان والإنسان – ط) الجزء الأول منه، و(والنفحة العطرية– ط) رسالة. وله أبحاث في مجلتي (الطبيب) و(المقتطف). انظر: الأعلام للزركلي.

(2) مجلة (المشرق)، العدد 23 سنة 1925، الصفحات 764-769.

(3) IBN BUTLAN: THE PHYSICIAN'S DINNER PARTY, Edited fron Arabic mnuscripts and with an introduction by Felix Klein-Franke, Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1985.

وهنا أشكر ثانية الصديق والأديب منذر العكيلي الذي دلّني على هذه الطبعة الألمانية.

(4) Ibn Butlan. Das Arztebankett. Aus arabischen Handschriften ubersetzt und mit einer Einleitung sowie Anmerkungen versehen. Hippokrates Verlag. Stuttgart 1984. 323p.

هو أبو الحسن بن رضوان بن علي بن جعفر، ويُعتبر من أقدر وأشهر الأطباء الذين عرفتهم مصر في عصرها الإسلامي. ولد بالجيزة حوالي عام 980م وتوفي قرابة 1061م. كان أبوه فراناً، حسب ابن أبي أصيبعة وليس حمّال ماء. وقد تجشّم العناء لكي يبرع في الطب. عمل رئيساً للأطباء بالقاهرة في أيام الحاكم بأمر الله، وعلى أيام الخليفتين الظاهر والمستنصر بالله[1]. ولابن رضوان ما يقرب من تسعين بحثاً في الطب، ولعل أهمّها ما نشره ماكس مايرهوف[2] (وهو طبيب زاول طب العيون في القاهرة سنين طويلة ومات خلال الحرب العالمية الثانية) وعنوانه "في دفع مضار الأبدان بأرض مصر"، وهذا البحث ينقسم إلى خمسة عشر فصلا ومقدمة انتقد فيها آراء الطبيب التونسي أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزّار[3] لاعتماده على ما سمعه فيما كتبه ولم يحقق فيما كتبه بنفسه. وفي مكتبة المتحف الوطني العراقي بضع مخطوطات من أعماله، منها الرسالة المذكورة أعلاه (رقم 2042)، ورسالة في داء الفيل (الرقم 13212-7) ورسالة في دفع مضار الحلوى بالمضرور (رقم 13212-14) ورسالة في النبض (رقم 13212-8) وفصل في القوى الطبيعية (رقم 13212-6)[4].

ويذكر الصفدي (الوافي بالوفيات) أن: "الحاكم قدَّمه وجعله رئيس الأطباء. وكان كثير الردّ على أرباب مذهبه، وفيه تشنيع في بحثه، إلا أنه كان يرجع إلى خير ودين وتوحيد". ومن كتبه الأخرى التي يذكرها الصفدي "كتاب في أن حال عبد الله بن الطيّب حال السوفسطائية". "مسائل جرت بينه وبين إبراهيم بن الهيثم في المجرّة والمكان". "الرد على ابن زكرياء الرازي في العلم الإلهي"، وإضافة إلى "مقالة في أن ابن بطلان لا يعرف كلام نفسه فضلاً عن كلام غيره" وإنه كَتَبَ "رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بطلان والردّ عليه".

(1) يذكر القفطي في (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): "ابن رضوان المصري واسمه علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطبيب كَانَ عالم مصر فِي أوانه فِي الأيام المستنصرية فِي وسط المائة الخامسة، وَكَانَ فِي أول أمره منجماً، يعقد عَلَى الطريق، ويرتزق لا بطريق التحقيق كعادة المنجمين، ثُمَّ قرأ شيئاً من الطب وشيئاً من المنطق، وكان من المغلقين لا المحققين، وَلَمْ يكن حسن المنظر ولا الهيئة، ومع هَذَا تتلمذ لَهُ جماعة من الطلبة، وأخذوا عنه، وسار ذكره، وصنف كتباً لَمْ تكن في الغاية بل هي مختطفة ملتقطة مبتكرة مستنبطة. ولابن بطلان معه مجالس ومحاورات وسؤالات وَقَدْ ذكرت بعضها فِي أخبار ابن بطلان..".

(2) ماكس مايرهوف Max Mayerhoff: مستشرق وطبيب (1874–1945م).

(3) ابن الجزار: هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ويعرف بابن الجزار من أهل القيروان. طبيب ابن طبيب وعمه أبو بكر طبيب. وكان ممن لقي إسحاق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه. وكان ابن الجزار من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم حسن الفهم لها. عاش أحمد بن الجزار نيفاً وثمانين سنة ومات عتياً بالقيروان ووجد له أربعة وعشرون ألف دينار وخمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها وكان قد هم بالرحلة إلى الأندلس ولم ينفذ ذلك وكان في دولة معد.

(4) انظر: أسامة ناصر النقشبندي: مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة في مكتبة المتحف العراقي، دار الرشيد للنشر، بغداد 1981.

سيرة حياة علي بن رضوان خصم رحّالتنا بقلمه

كتب بن رضوان بخط يده سيرة مقتضبة لحياته. ولأهمية الوثيقة وندرة أمثالها، ولكون مؤلفها سبباً من أسباب نشاطات رحّالتنا الفكرية، نضع نصها أمام القرّاء (عن ابن أبي أصيبعة):

"إنه لما كان ينبغي لكل إنسان أن ينتحل أليق الصنائع به، وأوفقها له. وكانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة طاعة للّه عز وجل، وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أن صناعتي الطب، وكان العيش عندي في الفضيلة ألذ من كل عيش، أخذت في تعلم صناعة الطب وأنا ابن خمس عشرة سنة. والأجود أن أقتص إليك أمري كله: ولدتُ بأرض مصر في عرض ثلاثين درجة وطول خمس وخمسين درجة (..) فلما بلغتُ السنة السادسة أسلمتُ نفسي في التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلتُ إلى المدينة العظمى[1]، وأجهدتُ نفسي في التعلّم. ولما أقمتُ أربع عشرة سنة أخذتُ في تعلّم الطب والفلسفة، ولم يكن لي مال أنفق منه فلذلك عرض لي في التعلم صعوبة ومشقة، فكنتُ مرةً أتكسّب بصناعه القضايا بالنجوم، ومرةً بصناعة الطب ومرةً بالتعليم. ولم أزلْ كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين، فإني اشتهرتُ فيها بالطب، وكفاني ما كنتُ أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين. وكسبتُ مما فضل عن نفقتي أملاكاً في هذه المدينة إن كتب اللّه عليها السلامة، وبلّغني سن الشيخوخة كفاني في النفقة عليها.

وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعمل تذكرة لي وأغيّرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذي أستقبل به السنة الستين من ذلك. أتصرّفُ في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يغني، ومن الرياضة التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاءً أقصد به حفظ الصحة، وأجتهدُ في حال تصرُّفي في التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كُرْبة المكروب وإسعاف المحتاج، وأجعلُ قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة، ولا بدَّ أن يحصل مع ذلك كسب ما ينفق، فأنفق منه على صحة بدني وعمارة منزلي نفقة

(1) يعني الفسطاط.

لا تبلغ التبذير، ولا تنحطُّ إلى التقتير، وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل في كل وقت. وأتفقّدُ آلات منزلي فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته، وما يحتاج إلى بَدَلٍ بدّلْتُهُ، وأعدّ في منزلي ما يحتاج إليه من الطعام والشراب والعسل والزيت والحطب، وما يحتاج إليه من الثياب، فما فضل بعد ذلك له صرفته في وجوه الجميل والمنافع، مثل إعطاء الأهل والإخوان والجيران وعمارة المنزل، وما اجتمع من غلة أملاكي ادخرّته لعمارتها ومرمّتها ولوقت الحاجة إلى مثله، وإذا هممتُ لتجديد أمرٍ مثل تجارة أو بناء أو غير ذلك، فرضته مطلوباً وحللته إلى موضوعاته ولوازمها، فإن وجدته من الممكن الأكثر، بادرت إليه، وإن وجدته من الممكن القليل اطرحته. وأتعرّف ما يمكنني تعريفه من الأمور المزمعة، وآخذ له أهبته، وأجعل ثيابي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة، وألزمُ الصمت وكفّ اللسان عن معايب الناس، وأجتهد أن لا أتكلم إلا بما ينبغي، وأتوقى الأيمان ومثالب الآراء، فأحذر العُجَب وحب الغلبة، وأطرح الهمَّ الحرصي والاغتمام. وإن دهمني أمرٌ فادحٌ، أسلمتُ فيه إلى اللّه تعالى، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جُبْنٍ ولا تهوّر، ومن عاملته عاملته يداً بيد: لا أُسَلِّف ولا أتسلّف إلا أن أضطر لذلك، وإن طلب مني أحد سلفاً وهبتُ منه ولم أُرِد منه عوضاً. وما بقي من يومي بعد فراغي من رياضتي صرته في عبادة اللّه سبحانه بأن أتنزه بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وتمجيد محكمها، وأتدبر مقالة أرسطاطاليس في التدبير، وآخذ نفسي بلزوم وصاياها بالغداة والعشي، وأتفقد في وقت خلوتي ما سلف في يومي من أفعالي وانفعالاتي، فما كان خيراً أو جميلاً أو نافعاً سررتُ به، وما كان شرّاً أو قبيحاً أو ضاراً اغتممتُ به، ووافقتُ نفسي بأن لا أعود إلى مثله. وأما الأشياء التي أتنزه فيها فلأني فرضتُ نزهتي ذكر اللّه عز وجل وتمجيده بالنظر في ملكوت السماء والأرض. وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتباً كثيرة، رأيتُ أن أقتصر منها على ما أنصّه من ذلك خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط[1] وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس[2]، وكتب روفس[1] وأريباسيوس وبولس، وكتاب

(1) سترد ترجمته في متن الرحلة.

(2) وهو باليونانية (Dioskouridês)، وبالفرنسية (Dioscoride) من القرن الأول بعد المسيح. كتابه المُترجم إلى العربية تحت عنوان كتاب الحشائش (De materia medica) الذي يصف فيه ما يقارب 600 نوعاً نباتياً، كان مصدراً للمعرفة في القرون الوسطى ألأوربية. وعلى ما يبدو (حسب ابن أبي أصيبعة) فإن كتاب ديسقوريدس هذا قد ترجم في بغداد زمن الدولة العباسية، في أيام جعفر المتوكل، وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي.

الحاوي للرازي، ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم المجسطي ومداخله وما أنتفع به فيه والمُربَّعة لبطلميوس، ومن كتب العارفين كتب أفلاطن وأرسطوطاليس والإسكندر وثامطيوس ومحمد الفارابي وما أنتفع به فيها، وما سوى ذلك إما أبيعه بأي ثمن اتفق وإما أن أخزنه في صناديق، وبَيْعُه أجود من خَزْنه"[2].

كانت دار ابن رضوان بمدينة مصر في قصر الشمع.

يذكر ابن أبي أصيبعة أن ابن رضوان تغيّر عقله في آخر عمره وكان السبب في ذلك أنه في موسم من مواسم الغلاء في مصر والشدة، كان قد أخذ بنتاً يتيمة ورباها، وكبرتْ عنده، فلما كان في بعض الأيام خلا لها الموضع، وكان قد ادخر أشياء نفيسة ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فأخذت الجميعَ وهربتْ، ولم يظفر منها على خبر ولا عَرَف أين توجهت، فتغيرت أحواله من حينه.

كان ابن رضوان كثير الردّ على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه، ويضيف ابن أبي أصيبعة أنْ "كانت عنده سفاهة في بحثه، وتشنيع على من يريد مناقشته، وأكثر ذلك يوجد عندما كان يردُّ على حنين بن إسحاق وعلى أبي الفرج بن الطيّب، وكذلك أيضاً على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي. ولم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلّمٌ ينسب إليه، وله كتاب في ذلك يعتقد فيه أن دراسة الطب من الكتب، مباشرةً، أفضل من دراسته على أيدي المعلمين. وقد ردَّ عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب منفصل. وذكر، أي علي ابن رضوان، فصلاً في العلل التي لأجلها صار المُتعلِّم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصف إذا كان القول واحداً، وأورد عدّةَ أسبابٍ نجدُها في كتابنا هذا كما نجد ردود ابن بُطلان عليها.

(1) روفس الأفسيسي: له مصنفات كثيرة في الطب وجالينوس يمدحه في كثير من كتبه (المسعودي: التنبيه والإشراف)

(2) انظر: من عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، السفر الرابع، اختار النصوص وقدّم لها وعلّق عليها: قاسم وهب، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1997 ص56-60.

الواقعية والفنتازية في (دعوة الأطباء)

لنَعُدْ إذنْ إلى (دعوة الأطباء) الذي يثير سؤالاً كبيراً يتعلق (بواقعية) أو (فنتازية) رحلة الطبيب المُسافر، الصموت، الواصل إلى ميافارقين من بغداد بحثاً عن لقمة العيش، وفيما إذا كان استعارة غامضة لابن رضوان؟ القضية في هذه المقامة أكثر تعقيداً قليلاً، لأنها تخلط الأدوار خلطاً ذكياً. ففيما نفترض أن الراوي، المتكلِّم بصيغة المفرد المذكَّر، يجب أن يكون الرحّالة العَالم ابن بطلان، نجد أن هذا الراوي كان مستمعاً سلبياً، لا يفقه شيئا في الحقول الَتي يزعم التخصص فيها، ويبدو وكأنه موضوع هناك، على هذه الشاكلة، من أجل إثارة تلك الأسئلة التي سبق للرحّالة أن أثارها مع خصمه في الفسطاط: إنه الخصم القاهري بمعنى من المعاني وقد اتّضَع في ميافارقين وعاد إلى طبيعته الحقيقية وحدود معارفه العلمية.

إننا نستطيع أن نطرح سؤالاً موازياً عن شخصية الطبيب الشيخ، البطلِ الأصليّ، الثرثار، وفيما إذا ما كان تورية محكمة التمويه عن ابن بطلان نفسه، وقد اتسم، من أجل اللعبة السردية التمويهية بسمات خصمه المصري. فالطبيب الشيخ يذكرنا، من جهة، بظرف وأدب ودعابة الشخصية المصرية، إذ إنه: "مرهف الشمائل، حلو الدعابة، عذب الفكاهة، حسن المُعارَضَة". ولكن ما يؤكد، من جهة أخرى، أن هذا الشيخ الفَكه، ذا النبرة المريرة هو الصوت المعبِّر عن الرحّالة وجود فقراتٌ كاملةٌ في (دعوة الأطباء) مشابهة لفقرات ابن بطلان المُتضمَّنة إحدى رسائله الصريحة إلى ابن رضوان، وهذه تقوم دليلا أكيداً على أن المقصود بالطبيب الزائر ليس سوى ابن رضوان. فلو أننا قرأنا في ثنايا رحلتنا الحالية التالي:

"المسألة الأولى: وهي تتعلق بالبلاد والأهوية يجري هكذا: لم صار الحبشة والصقالبة وبلادهم وطباعهم متضادة، يغتذي كل منهم بالأغذية الحارة اليابسة، ويشربون الخمر، ويتفلفلون بالمسك والعنبر، ووجب أن يجري فيهم علَى خلاف هَذَا التدبير. عَلَى أنه لَيْسَ للشيخ أن يقول أن الصقالبة يستعملونه دواء والحبشة غذاء، ذَلكَ للمضادة وهذا للمشابهة لئلا يلزمه أن يستعمل مثل ذَلكَ فِي الصيف والشتاء".

لرأينا أن ابن بطلان يعاود قول الفكرة في (دعوة الأطباء) بهذه الصيغ:

"ثم عاد، وقال: اسألك. قلت سلْ. قال الشيخ: لا تظن أنني أسألك لم صارت الحبشة والصقالبة وبلادهم مختلفة، وطباعهم متضادة، يغتذي كل واحد منهم بالأغذية الحارة اليابسة، ويشربون الخمور، ويتغلفون[1] بالمسك والعنبر، ووجب أن يجري الأمر فيهم على خلاف ذلك التدبير، وهذا مما لا أسألك عنه لأنه مقول على أن ليس الجواب أن الحبشة يستعملونه دواء والصقالبة يأخذونه غذاء، لئلا يلزم أن تستعمل أنت مثل ذلك في الصيف والشتاء" (ص32).

وفي مقطع آخر من الرسالة الموجهة لابن رضوان نقرأ:

"والمسألة الثانية: لم صار الإنسان ربما نام وهو حاقن فرأى كأنه يبول فلا يبول، وانتبه وَقَدْ حضرته البولة للخروج، فنهض فبال، ثُمَّ أنه يرى ذَلِكَ الإنسان فِي منامه أنه يجامع فلا يتمالك حَتَّى يُنْزِل، فينتبه وَقَدْ أفرغ منيه فِي ثوبه. ليت شعري مَا الَّذِي منع البول من الخروج عَلَى حدته، وأمهله إِلَى الانتباه مع كثرته، وأرسل المني عَلَى قلته، وحضره فِي المنام فلم يمهله إِلَى الانتباه وهما جميعاً فضلتان ؟. وهذه المسألة وإن كَانَتْ حقيرة فهي نافعة فِي كشف منتحلي هَذِهِ الصناعة وَقَدْ ذكرناها فِي الدعوة الطبية".

وفي (دعوة الأطباء) نقرأ الفكرة ذاتها:

"لكنني أسألك وأقول لك، ربما نام الإنسان وهو حاقن، فرأى في منامه كأنه يبول فلا يبول، وانتبه وَقَدْ حفزته[2] البولة للخروج، فنهض فبال، قلت: نعم. قال: وربما رأى ذَلِكَ الإنسان فِي منامه كأنه[3] يجامع فلا يتمالك حَتَّى يُنْزِل، وينتبه[4] وَقَدْ أفرغ منيه فِي ثيابه[5]. قلت: نعم. قال:[6] فمَا[7] الَّذِي منع البول من الخروج عَلَى

(1) يتغلفون: في نص الرسالة يتفلفلون.

(2) حفزته: في الرسالة حضرته.

(3) كأنه: في الرسالة أنه.

(4) وينتبه: فينتبه في الرسالة.

(5) ثيابه: ثوبه في الرسالة.

(6) ليت شعري: ليست موجودة هنا وموجودة في الرسالة.

(7) ما: في الرسالة.

حدته، وأمهله إِلَى الانتباه على[1] كثرته، وأرسل المني عَلَى قلته، وحفزه[2] فِي المنام و لم[3] يمهله إِلَى الانتباه وهما جميعاً فُضلتان ؟".

الطبيب الشيخ هو، أخيراً، صورة متأسية لابن بطلان بدليل قوله في (دعوة الأطباء):

"وقد مضى العمر، وكبرت السن، وأنا ماضٍ، وما أخلّف ولداً يُحيي ذكري، ولا حميماً يبكي على قبري" (ص87).

في الفقرات المتعلقة بشعوذة ودجل العطّارين والحكماء، ربما كان ابن بطلان يَرْمزُ أيضاً لمعاصره الحلبي الحكيم أبي الخير بن شرارة. وكان ابن بطلان التقى بابن شرارة أثناء إقامته في حلب و لم يكن الأخير ليصمد أمام حججه، وإذا "خرج عنه، حمله الغيظ عَلَى الوقيعة فيه، ويحمل عَلَيْه نصارى حلب"[4]، كما سنرى في المتن. لقد استدعى الشيخ في المقامة أربعة من طلابه وهم: أبو جابر الفاصد، وأبو أيوب الكَحَّال، وأبو سالم الجرائحي، وأبو موسى الصيدلاني، لتكتمل الملهاة. ولعل واحداً من أولئك كان يرمز إلى ابن شرارة ذاك.

أو لعل بطل المقامة مزيج من كلا الرجلين، ابن رضوان وابن شرارة.

في هذا السياق يتوجب القول إن إحدى الرسائل التي كتبها ابن بطلان في الردّ على خصمه المصريّ مُدْرَجَةٌ في رحلتنا الحالية لأنها تقع، أولاً، في صلب الرحلة التي قادت الرجل لمصر، ولأنها، ثانياً، تعزّز فرضية أن يكون (دعوة الأطباء) نوعاً من سيرة ذاتية قليلة التمويه.

يغدو ضرورياً إعادة التذكير، في هذا السياق، بما سبّبته النزعة المنطقية العقلانية لابن بطلان من خصومات بارزة، في وسط كان يخلط المعرفة بالخرافة وهو ما تلمّح إليه دعاوي الحلبي أبي الخير بن شرارة الذي ظل يشيع عن "راهب أنطاكيٍّ أنه حكى لَهُ أن الموضع الَّذِي فِيهِ قبر ابن بطلان من الكنيسة الَّتِي كَانَ قَدَّ

(1) مع: في الرسالة.

(2) وحضره: في الرسالة.

(3) فلم: في الرسالة.

(4) هذه الاستشهادات مستلة من متن الرحلة المصنوع الحالي، موثّقة.

استوطنها وجعلَها معبداً لنفسه، متى مَا أوقد فيه سراج انطفأ، ويقول عنه أمثال هَذه الأقوال"[1] في حياة وبعد وفاة ابن بطلان عَلَى ما يبدو.

الرحلات بصفتها حقلاً للوصف السيوسيولوجي والأنثروبولوجي

من زاوية المعالجات الجغرافية والأثنوغرافية والتاريخية التي تمثلها الرحلات الأولى المذكورة، تجدُ رحلة ابن بطلان، مكاناً متميِّزاً رغم ما قد يكون نقصاناً في النسخة الواصلة إلينا. ففي وقت مبكر، وقبل قيام مناهج الوصف السوسيولوجي المُنظَّم، يمدّنا ابن بُطْلان بإشارات خجولة في هذا الاتجاه، خاصة وصفه لظاهرة (بنات الهوى) في زمانه. ونجد في سيرته المموَّهة (دعوة الأطباء)، دقائق عن طبيعة الحياة الاجتماعية وأسماء بزورات وأعشاب العطارين، وحيلهم في اقتناص الزبائن، خاصة النساء منهم، والأسماء الشعبية الشائعة لنساء عصره، وأنواعاً من المهن والحرف والتقنيات والمصطلحات المنسية اليوم، كما حوارات تفوح بنكهة لهجة عامية.

بل إنه يذهب إلى أن حيل أحد العطارين (هل هو ابن رضوان؟) كانت تقود النساء للوقوع في شرك الزنا:

"وإذا حضرتْ أيامُ الرّبيعِ اجتمعَ مع عطّارٍ وشارَطَهُ على نصفِ أثمانِ الأدوية (...) ويلقى هنداً ويقول لها:

- يا ستّي أراكِ اليومَ قد تغيِّرتِ، والله كأن العينَ قد أصابتكِ. فتقول:
- يا أبي وأيش بقّى فيَّ الغم؟. فيقولُ لها:
- لأجل ماذا؟. فتقولُ:
- لمَا أقاسيه من والد الفضل استودعه الله [تعني زوجها]، ولولا أنني أَطرح الأشياءَ عن قلبي وإلا لكنتُ من الهالكين. فيقول لها:

(1) هذه الاستشهادات مستلة من متن الرحلة المصنوع الحالي، موثّقة.

– يا ستّي، قد فَسَدَ عقله وصار مخلّطاً ولكنه مطمئنّ القلب منك بحمد الله، فلو بُليَ بما بُليَ به أهلُ هذا الزمان لكان يعرفُ موضعَكِ، أتراهُ أرادَ أحسنَ منك؟ وهل يلاقي مثلك؟.

على كل حال، هوذا يدخلُ دورَ الناس ويبدأ معها في هذا وما أشبهه ليعلّمها الخيانة ويرشدها إلى الزنا ويَحْمِلها على صفع زوجها (...). يا ستي، تقبلين مني؟. فتقول:

– نعم يا سيدي ولا أخالفك. فيقول:

– الصواب تشربين ماءَ الجبنِ فإنه يخصّب الجسم (..) ويزيل الكلف.

– ويَنْظرُ إنْ كانت ممن يُرْجَى لها ولدٌ قال:

– ونضيف له شيئاً حتى يجيئنا ولدٌ يشتغل به القيسي. يعني زوجها، وربما ضَمَنَ لها أن يكون ذكراً"[1].

وإضافةً لملاحظات ابن بطلان عن الكنيسة الشرقية في شمال سوريا وما أصابها من زلازل مدمرة ذهبتْ بنفائسها، يجمل التوقّف أمام أمرين في رحلة ابن بطلان:

أولاً: انتباه ابن بطلان لأشكال تنظيم البغاء في عصره

ملاحظات وتدقيقات عن تاريخ الدعارة في العالم الإسلامي

الأول: يخصّ انتباهاته النقدية، الخاطفة لكن المهمّة، عن خفايا الحياة الاجتماعية في عصره، خاصة ظاهرة بيوت البغاء التي كان يشهدها كلما اتجه متوغلاً نحو أنطاكية.

في حديثه عن مدينة (عمّ) يذكر أن فيها "من الخنازير والنساء العواهر والزنا والخمور أمر عظيم". وعن اللاذقية يذكر هذه الملاحظة القيمة:

(1) انظر طبعة كلاين- فرانكه ص58-60.

"من عجائب هَذَا البلد أن المُحْتَسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي عَلَى كَل واحدة منهنَّ، ويزايد الفسقة فيهن لليلتها تلْكَ، ويؤخَذون إلَى الفنادق، الَّتي هي الخانات لسكنى الغرباء، بعد أن تأخذ كَل واحدة منهنَّ خَاتماً هو خاتم المَطران حُجَّةً بيدها من تعقُّبِ الوالي لَهَا، فإنه متى وَجَدَ خاطئاً مع خاطئة بغير خَتْمِ المُطران ألزمه جنَايةً".

أما عن حلب فيورد أن فيها شاعراً خليعا يعرف بأبي العباس كتب إلى والده:

(مجزوء الرمل)

يـــا أبـــا العبـــاس والفـــضل أبـــا العبـــاس تُكْنَـــا

أنـــت مـــع أمـــي بـــلا شَـــكٍ تحـــاكي الكركـــدَنَا

أنبتـــت في كـــل مَجـــرى شـــعرة في الـــرأس قرنـــا

فأجابه أبوه:

(مجزوء الرمل)

أنـــت أولى بـــأبي المـــذموم بـــين النـــاس تُكْنَـــا

ليـــت لي بنتـــاً ولا أنـــت ولـــو "بنـــت يُحَنّـــا"

بنتُ يُحَنّا [أي يوحنا]: مغنية بأنطاكية تَحِنُّ إلى القرباء، وتُضيِّفُ الغرباءَ، مشهورة بالعُهر".

هذه الانتباهة إلى دور البغاء وأسماء البغايا والعاهرات ليست معدومة بالطبع في تاريخ الثقافة العربية التقليدية ولكنها نادرة.

يمنحنا ابن بُطْلان تصوّراً واضحاً، في مرة نادرة في التاريخ الاجتماعي للإسلام، عن طبيعة تنظيم البغاء في المدن العربية-الإسلامية الكبيرة وما يجاورها، لدى الطوائف غير المسلمة بشكل أخصّ. أن المفردة العربية الفصيحة (القحَاب) ترن اليوم في آذاننا رنيناً سالباً، لكنها لم تكن تفعل في العصور الخوالي. يمكن أن نجد تصورات أنثروبولوجية بالغة القيمة، نادرة بالفعل، لدى مثقف موسوعي آخر

هو التنوخي[1] الذي يذكر لنا في (الفرج بعد الشدة) القصة التالية: "فاجتمع القحَاب، وهنَّ النساء الفواجر، يفعلنَ ذلك بالهند ظاهراً عند البد، تقرباً إلى الله بذَلك عندهم. قال: وهنَّ العدول هناك، يشهدنَ في الحقوق، ويقمنَ الشهادة، فيقطع بها حاكمهم في سائر الأمور، وعندهم إنهن لما كن يبذلن أنفسهن عند البد[2] بغير أجر، صرنَ في حُكْمِ الزُهّاد والعُبّاد". هذا هو البغاء المقدس من دون شك بطبعته الهندية الذي اختفى من بلاد الرافدين. وهناك إشارة مماثلة مفيدة لدى البيروني[3] (الجماهر في معرفة الجواهر) عن منطقة في أفغانستان الحالية: "عقبة كثيرة الأمطار في الصيف والثلوج في الشتاء شديدة التغاير في الهواء، وكم مرة اجتزنا عليها في العساكر الضخمة، ونزلنا عليها وعلى ذلك الماء، (...) لا يعرفون للطهارة اسما فضلاً عن استعمالها وفيهم أفواجٌ من القحاب النجسات على مثل تلك الحال ولابد إن كان فيهنَّ عدة جَمَعْنَ بين الحيض إلى الجنابة".

(1) القاضي التنوخي المولود في البصرة سنة 327 هـ. هو القاضي أبو علي هو المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم التنوخي البصري المتوفي سنة 384 هـ من الأدباء والعلماء والشعراء ومصنف بارع. ولد ونشأ بالبصرة وتأدب فيها على الصولي وعلى أبي الفرج الأصبهاني. ولاه الخليفة المطيع الله القضاء في مدينة (عسكر مكرم) بالأهواز وتولى القضاء بعد ذلك في أماكن مختلفة، ثم استقر ببغداد يقوم فيها بالتدريس وتوفي فيها عن 57 عاما. قام عضد الدولة بعزله من جميع أعماله، ونصب بدلا منه قضاة ستة، يقومون بالعمل الذي كان منوطا به وحده، كما انه أصدر إليه أمره بأن يظل في داره حبيسا لا يبارحها. وقد ظل التنوخي حبيسا حتى توفي «عضد الدولة » سنة 372 هـ. من تصانيفه: "الفرج بعد الشدة" "المستجاد من فعل الأجواد" –"نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة" (أو جامع التواريخ) "عنوان الحكمة" وديوان شعر.

(2) يقول الشهرستاني: "ومعنى البد عندهم: شخص في هذا العالم: لا يولد، ولا ينكح، ولا يطعم، ولا يشرب، ولا يهرم، ولا يموت. (الملل والنحل للشهرستاني ص234).

(3) هو محمد بن أحمد البيروني. أبو الريحان. ولد سنة 362هـ في (بيرون) من مدن (خوارزم). تلقى العلم في خوارزم على أبي نصر منصور بن عراق. قضى عدة سنوات في جرجان وفيها التقى بالطبيب أبي سهل عيسى بن يحيى الجرجاني ودرس عليه الطب، ثم التحق ببلاط الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير جرجان وطبرستان، وكان بلاطه يحفل بالعلماء ومنهم ابن سينا وقد تبادل معه مجموعة رسائل نشرت تحت عنوان (أجوبة عن مسائل أبي الريحان). ولما استولى محمود الغزنوي على جرجان كان البيروني بين الأسرى الذين حملهم السلطان محمود إلى (غزنة)، وقد ألحقه هذا السلطان في بلاطه منجماً، ثم رافقه في غزواته في شمال الهند، فتعلم اللغة السنسكريتية ودرس ديانات الهند، كما درس الفلسفة الهندية بلغة أهلها، وعرف البيروني اللغة اليونانية وربما شيئا من البربرية والسريانية. وفي سنة 400هـ عاد البيروني إلى خوارزم وعاش مدة طويلة في بلاط أبي العباس مأمون أمير خوارزمشاه، وعمل أستاذا في مجمع العلوم الذي أسسه الأمير مأمون، وكان يزامله في نفس المجمع الشيخ الرئيس ابن سينا والمؤرخ ابن مسكويه. كان البيروني من أعاظم العلماء في الفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافية، وكان رحالة وجماعا للمعرفة، كما كان ذا منهج علمي. للبيروني مقالات علمية كثيرة عن الأرقام الهندية، وتكلم عن كروية الأرض وعن دورانها حول محورها. وعرف تعيين خطوط الطول والعرض. وكان طبيبا وصيدليا ألف في الأدوية وفيما قاله الأطباء عنها، وله أبحاث مستفيضة في الطبيعة، وكان مؤرخا كذلك. صنف كتبا عديدة، تربو على المائة والعشرين كتابا منها: "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وكتاب "القانون المسعودي" وكتاب "تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أم مرذولة وكتاب "التفهيم لأوائل صناعة التنجيم" وكتاب (الصيدلة) وكتاب (الجماهر في معرفة الجواهر) وكتاب (تحديد نهايات الأماكن) وكتاب (الفلسفة الهندية) وكتاب (استخراج الأوتار في الدائرة) وكتاب (رسائل البيروني) ويتألف من أربع رسائل في الرياضيات والهندسة، وله مؤلفات أخرى منها (مقالة في النسب) و(الأسطرلاب)، وله مؤلفات في التاريخ منها (تنقيح التواريخ) و(تاريخ أيام السلطان محمود الغزنوي وأخبار أبيه) وكتاب (المسامرة في أخبار خوارزم) إلى غير ذلك من المؤلفات. نشأ البيروني يتيما في عائلة فقيرة، عزيز الجانب، خدم العلم للعلم وأبي أن يأخذ جائزة سنية من السلطان لقاء كتاب ألفه من أجله وأهداه إياه، ومات فقيرا عن 78 عاماً.

ومن اللافت أن المؤرخ ابن المجاور المتوفى سنة 680هـــ - 1282م يذكر في (صفة بلاد اليمن)[1] أن تقاليد البغاء كانت موجودة في أيامه في عدن. يقول: "وكانت أهل مكة في سالف الدهر يشترون العبيد ويقطعون عليهم قطعة تعطى لسيده كل يوم بيومه، وكذلك النساء تقطع المرأة قطعة على جوارها في تحصيل الذهب، فترجع الجارية ترجو الفَرَج أو تبذل الفَرْج للرجل والحرج في هرج و مرج. وإلى الآن هذا [سنة 1222م] موجود في عدن- من الغريب وأهلها- وليس هذا الفن عندهم عار بل يفتخر النساء بذلك"[2].

انتباهة ابن بطلان تجعلنا نقلّب مصادر التراث العربي لإيجاد لقطات مماثلة، جادة أو طريفة، عن البغاء، من أجل قيام تصوُّر أفضل لتنظيم الدعارة في العالم الإسلامي.

حَضُرَتْ دورُ البغاءِ التي يشير إليها ابن بطلان على الدوام في الحياة الاجتماعية في العالم العربي. وهو ما تدلّ عليه القصة المؤلمة التي ينقلها الثعالبي[3] في (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) بشأن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان التي حجَّتْ سنة ست وستين وثلاثمئة (977م) "ومن قصتها أنها لما رجعت إلى بلدها (..)، وكان ما كان من استيلاء عضد الدولة على أموالها وحصونها وممالك أهلها، أفضت بها الحال إلى كل قلة وذلة، وتكشفتْ عن فقر مدقع، وكان عضد الدولة خطبها لنفسه، فامتنعت وترفَّعتْ عنه، واحتقدها عليها، وحين وقعت في يده تشفّى منها، وما زال يعنف بها في المطالبة بالأموال حتى عرّاها وهتكها، ثم ألزمها أحد أمرين: إما أن تؤدي بقية ما وقعت عليه من المال، وإما أن تختلف إلى دور القحاب فتكتسب فيها ما تؤديه في بقية مصادرتها،

(1) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، تحقيق: أوسكر لوففرين. ليدن: 1951م أو (صفة بلاد اليمن و مكة و بعض الحجاز، أو، تاريخ المستبصر) تأليف ابن المجاور ؛ مراجعة ممدوح محمد. - ط. 1. - القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 1996. لكننا نعتمد على طبعة لوفقرين.

(2) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، اعتنى بتصحيحه أوسكر لوفقرين، منشورات المدينة، بيروت ط2 سنة 1986ص7.

(3) هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري. أبو منصور. ولد بنيسابور ونشأ فيها واشتغل بصناعة الفراء فكان يخيط جلود الثعالب ويبيعها فلقب بالثعالبي. صنف كثيرا من كتب الأدب والتاريخ واللغة تزيد على التسعين كتابا من أهمها: يتيمة الدهر، غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم. أحاسن كلام النبي والصحابة والتابعين، الشكوى والعتاب، التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة، جوامع الكلم، حجة العقل، لطائف المعارف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، سحر البلاغة وسر البراعة، الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، طبقات الملوك، عيون النوادر، الغلمان، الفرائد والقلائد، فقه اللغة، المضاف والمنسوب، المقصور والممدود، منادمة الملوك، النوادر والبوادر، كتاب الورد، طرائف الظرفاء، وغير ذلك مخطوط ومطبوع. توفي عن ثمانين عاما.

فانتهزت يوماً فرصةً من غفلة المكلفين بها، وغرقت نفسها في دجلة". وهو أمر يدلّ يقينا على انتشار (دور القحاب) في بغداد في تلك الفترة.

بل أن المقريزي[1] (السلوك لمعرفة دول الملوك) يروي التالي: "وقد وقع في أيام المنصور قلاوون أن امرأةً كانت تستميلُ النساءَ وترغبهن حتى تمضي بهن إلى موضع توهمهنَّ أنّ به من يعاشرهنَّ بفاحشة، فإذا صارت المرأةُ إليها، قبضها رجالٌ قد أعدَّهُم، وقتلوها وأخذوا ثيابها. فاشتهرً بالقاهرة خبرها، وعرفت بالخناقة؛ فما زال بها الأمير علم الدين سنجر الخياط والي القاهرة حتى قبض عليها، وسمَّرَها. ووقعَ أيضاً في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أن امرأة بأرض الطبالة كانت عند طائفة البازدارية[2] تفعل ذلك بالنساء، فقبض عليها، وسمروا وسُمِّرتْ معهم؛ فكانت تقول – وهي مسمّرة يطاف بها على الجمَال في القاهرة– إذا رأت النساء وهنَّ يتفرجنَ عليها: "أه يا قحاب، لو عشت لكنَت أفنيتكن، ولكن ما عشتُ".

ويدل كذلك على حضور هذه الدور تلك القصة الطريفة التي ينقلها أبو حيان التوحيدي[3] (أخلاق الوزيرين): "جمع مُزَبّد بين قَحبة وصديقها في بيت فتعاتبا، فأراد أن يجامعها فامتنعت وقالت: ليس هذا موضعً ذا، فسمعها مُزَبّد فقال: يا زانية فأين موضعه أبين القبْر والمنبر والله ما بُني هذا البيت إلا من جذْر القحاب...". ويروي هو نفسه في (البصائر والذخائر): " أدخل رجل علوي بيته قحبة، فلما أرادها قالت: الدراهم، قال: دعي عنك هذا ويحك مع قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالتْ: دع هذا، عليك بقحاب قُمْ، هذا لا ينفق[4]

(1) سترد ترجمته لاحقاً.

(2) البازدارية: هم طائفة معنية بالطيور السلطانية، مكونة من باز (وهو الطائر المعروف)، ودار.

(3) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي. قيل إن أباه كان يبيع نوعا من التمر يسمى التوحيد، أو لعل هذه النسبة جاءته من أنه كان من المعتزلة من أهل العدل والتوحيد. فيلسوف، معتزلي متصوف. ولد في شيراز أو نيسابور وقضى معظم أيام حياته في بغداد وتلقى فيها العلوم على شيوخ العصر في الفقه والنحو المنطق واللغة. اتصل التوحيدي مدة يسيرة بأبي محمد الحسن المهلبي وزير معز الدولة البويهي ولما توفي معز الدولة انتقل التوحيدي إلى الري واتصل بابن العميد ثم بالصاحب بن عباد فلم ينل عندهما حظوة فعاد إلى بغداد سنة 370 هـ وبقي فيها إلى نحو سنة 400 أمضاها في فقر وبؤس ثم تنقل فيما بعد في البلاد فأدركه الموت في شيراز سنة 414 هـ. وقد رمي بالزندقة. كتب أبو حيان التوحيدي كتبا كثيرة أشهرها: (المقابسات)، كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، كذلك ألف التوحيدي للوزير ابن سعدان كتاب (الصداقة والصديق). ومن تأليف التوحيدي رسالة في علم الكتابة، وكتاب (بصائر القدماء وسرائر الحكماء) وكتاب (الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية) ورسالة في أخبار الصوفية. وكتاب (رياض العارفين) ورسالة في الإمامة وكتاب (الهوامل والشوامل) وكتاب في (مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد) وكتاب (تقريظ الجاحظ) وكتاب (الحنين إلى الأوطان) وكتاب (النوادر) وقد أحرق التوحيدي في آخر حياته كتبه.

(4) لا ينفق أي لا يُضحَك بمثله عليهنَّ.

على قحاب بغداد". وفيه أيضاً قصصٌ أكثر مجوناً. وينقل الآبي رسالة من جارية لمولاها تدل على أن دور الزنا كانت متفشية في مدينة فسا الإيرانية[1].

وقد اشتهرت، فيما يبدو خفاف القحاب حسب الطرفة التي يرويها الإمام الذهبي[2] (تاريخ الإسلام) عن الوهراني المغربي في رسالة ماجنة له. والذهبي نفسه يذكر في (سير أعلام النبلاء) أن ابن كادش كان وضّاعاً للحديث وأن ابن النجار قال عنه: رأيت له كتاباً سماه (الانتصار لرتم[3] القحاب) فيه أشعار، فيقول: أنشدتني المغنية فلانة، وأنشدتني ستوت[4] المغنية بأوَانا[5]، وقد قرأه عليه ابن الخشاب"[6]. كما عرف مصطلح (جَذْر القحاب) وهو الثمن الذي يأخذنه لقاء خدماتهنَّ.

وقد كان يلزم، بين فينةٍ وأخرى، مُراقبَة سوقِ الدعارة الواسعة الانتشار في مصر وإغلاق فنادقها.

---

(1) "هذه فصول من كتب زاد مهر جارية ابن جمهور إلى مولاها تليق بهذا الباب: كتبت إليك وحياة أنفك القاطولي، لا كان فعالك بي إلا شراً عليك، ولكنك الساعة العامل في فسا، وليس تذكر مثلي في قحاب فسا، الذين يدخلون الرجال والنساء حماماً واحداً، أنا أعلم أنك لو أخرجتني إليك لوجدت في بيتك أربع قحاب كلهم حبالى من ذلك البزر الذي لا يخلف الحلاوة، كأنه البطيخ العبدلائي، والله إن بزر الدفلى خير من بزرك. قطع ظهرك ونسلك! أشتهي والله أعلم البَغّاءات إيش يرون في وجهك؟ الذي، والله، وإلا فأنا جاحدة مشركة إن أخطئ، أقبح من عصفور مقلي بزيت، ولكنهم إذا أبصروا الشوابير قالوا: ذا من ولد العباس. يا هذا، للنساء مؤن لا يقف عليها الرجال. أهونها الدبق. فعسى تريد أن أطول طعنه في كبدك وآكله على حال لا بد من تنظيفه. إن لم نَزْنِ ساحَقْنا. واعلم علم يقين أن النفقة والكسوة إن تأخرت عني خرجتُ والله وغنيتُ وقمتُ بطني وعشرة معي، وأنفقتُ على روحي كما أشتهي، وإن فضل من الجذر شيء لم أظلمك وأبعثُ به إليك تنفقه أنت. واعلم أن الجارية إذا خرجت للغناء دخل سراويلها الزنى. فأنت أبصر ولا تطمع أن أخرج إليك. لا وحياتك. طمعويه بنى غرفة فانويه قعد فيها. عليك يا بن جمهور بقحاب فسا وشيراز الذين يشتهونك مائة بصفعة، الذين إذا قمت على الواحدة قمت وفي كمك عشرين ضرطة يا مدانية. ولولا أبوك الشيخ – أبقاه الله – كنت قد خريت كبدك على لبدك. ولكن إيش بعد قليل تنفق كل ما جمعت فتكون مثل ذلك الذي تبخر وفسا، خرج لا له ولا عليه بالسواء، هوذا أنصحك. ابعث إلي بنفقة وإلا وحياتك خرجت وغنيت، فقد قال القائل: من لم يكن يدك في قصعته لا يهولك بريق صلعته. ومن كتاب آخر لها: إن عزمت على حملي إلى عندك ابعث إلي رقعة بخطك تحلف فيها بالطلاق أنك لا تضربني ولا تخاصمني ولا تعذبني، ولو قلعت لك كل يوم حدقة، وإلا فبارك الله لك وبارك الله لنا قواد ابن أبي الساج هو ذا يدخلون البصرة ومن كان جذرها عشرين سوف يصير أربعين. وأنا ست من خرجت وغنت". نثر الدر للآبي.

(2) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. أبو عبد الله شمس الدين. الإمام الحافظ الذهبي التركماني الفارقي. تركي الأصل من أهل ميافارقين وإليها نسبته (الفارقي). من حفاظ الحديث ورجاله. رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان وكُفَّ بصره سنة 741هـ. كان معدودا من المحدثين والمؤرخين. من مؤلفاته: (تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام) و(دول الإسلام) و(معجم لأسماء رجال الحديث) و(تذكرة الحفاظ) و(المشتبه في الأسماء والأنساب) و(ميزان الاعتدال في نقد الرجال) و(العبر في أخبار البشر ممن غَبَرْ) و(طبقات الحفّاظ) و(طبقات القرّاء) و(الإمامة الكبرى) و(الكبائر) و(الطب النبوي) وغير ذلك.

(3) الرتْم يعني في الغالب هنا جمع رَتَمَة وهو خيط يُشدُّ في الإصبع أو الخاتم للعلامة أو التذكُّر. وربما كان علامة من علامات البغايا في ذلك الزمان.

(4) من الواضح أن ستوت هو اسم لمغنية مشهورة.

(5) أوَانَا: بالفتح والنون. بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة من نواحي دُجيل بغداد بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تَكريت وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخُلعاء في أشعارهم (ياقوت).

(6) يورد الغرناطي في (الإحاطة في أخبار غرناطة) الطرفة التالية: " وكانت نزهون بنت القلاعي الآتي ذكرها حاضرة، فقالت ونراك يا أستاذ قديم النغمة، بند وغناء وطيب شراب، تتعجب من تأتيه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه إلا بالعيان، لكن من يجئ من حصن المدور، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفةٌ بمجالس النغم. فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت: له دعه، فقال: من هذه الفاعلة؟ فقالت: عجوز مقام أمك، فقال: كذبت ما هذا صوت عجوز، إنما هذه نغمة قحبة محترقة تشم روائح كذا منها على فرسخ، فقال له أبو بكر: يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرية الأديبة، فقال: سمعت بها لا أسمعها الله خيراً، ولا أراها إلا أيراً. فقالت له: يا شيخ سوءٍ تناقضت، وأي خير أفضل للمرأة.؟".

يذكر النويري[1] (نهاية الأرب في فنون الأدب) أن الملك المُعظّم غياث الدين تورانشاه[2] كان قد "طهر العساكر من القحاب، والمدن". بينما يذكر المقريزي (المواعظ والاعتبار): "وفي تاسع جمادى الآخرة سنة ست وستين وستمائة[3]، أمر الملك الظاهر بيبرس[4] بإراقة الخمور وإبطال الفساد، ومنع النساء الخواطئ من التعرّض للبغاء من جميع القاهرة ومصر، وسائر الأعمال المصرية، فتطهَّرتْ أرضُ مصر من هذا المنكر، ونُهبَتْ الخاناتُ التي كانت معدّة لذلك، وسُلبَ أهلُها جميع ما كان لها، ونفي بعضهم، وحبست النساء حتى يتزوّجن. وكَتَبَ إلى جميع البلاد بمثل ذلك، وحطّ المال المقرّر على البغايا من الديوان، وعوّضَ الحاشية من جهات حلّ بنظيره، وفي سابع عشر ذي الحجة سنة تسع وستين وستمائة، أريقت الخمور، وأبطل ضمانها، وكان كل يوم ألف دينار، وكتب توقيع بذلك قرئ على المنابر، وافتتح سنة سبعين بإراقة الخمور، والتشدّد في إزالة المنكرات، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة..".

وفي زمن الناصر داود[5] "بطلت الخمور والقحاب و المكوس" (تاريخ الإسلام للذهبي)

من الغريب والمهم للغاية أن نلاحظ أن رحلة ابن فضلان (921م) كانت قد قدَّمَت قبل رحلة ابن بُطلان (1049م) إشارة بالغة الأهمية إلى بقايا العبادة الفالوسية (القضيبية) لدى شعب الباشغراد. وهو ما سهونا عن إدراجه في مقدمة طبعتنا لرحلة ابن فضلان ونسمح لأنفسنا بإيراده في هذا السياق. يقول ابن فضلان: "وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل، ويعلّقها عليه، فإذا

(1) هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم التيمي البكري القرشي الكندي النويري، نسبة إلى قرية في صعيد مصر. فقيه، أديب، مؤرخ. شغل بعض الوقت منصب رئيس الكتبة في إدارة الجيش بطرابلس الشام ثم منصب رئيس الكتبة في عدد من الأقاليم المصرية. أحاط بعدد كبير من فنون العلم والأدب، كما كان حسن الخط، سريع النسخ. تقوم شهرته على كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) وهو كتاب جمع فيه النويري كل ما يحتاج إليه الكاتب في ديوان الإنشاء من المعارف وقد قدّم هذا الكتاب إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون. توفي في القاهرة عن 60 عاما.

(2) سنة ثمان وأربعين وستمائة قتل على يد المماليك البحرية وتُرك على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة فحمل إلى ذلك الجانب وفي فن فكانت مدة ملكه أحداً وسبعين يوماً.

(3) الموافق لسنة 1268 الميلادية.

(4) حكم سنة بين السنوات 658–676 الهجرية.

(5) هو داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن نجم الدين أيوب أمه خوارزمية. خلف أباه على دمشق سنة 624هـ ثم انتزعها منه عمه الملك الأشرف أبو الفتح موسى، فرحل مشردا في البلاد، وتردد بين بغداد ودمشق وجرت له خطوب حتى لم يبق معه شيء، ويقول ابن كثير إنه أودع وديعة تقارب مائة ألف الدينار عند الخليفة العباسي المستنصر بالله فأنكرها عليه، ثم أقام في حلة بني مزيد وتوفي بقرية (البويضا) بظاهر دمشق بالطاعون. كان فصيحا عارفا بعلوم الأوائل له شعر.

أراد سفراً أو لقاء عدوٍّ قبَّلَها وسجد لها وقال: يا رب افعلْ بي كذا وكذا. فقلت للترجمان: سَلْ بعضهم ما حُجَّتُهم في هذا ولِمَ جعله ربه؟ قال: لأني خرجت من مثله فلستُ أعرف لنفسي خالقاً غيره"[1].

من المعروف أن الفالوس (القضيب) كان يمثل في التاريخ الإغريقي-الروماني البعيد عنصراً رمزياً، مرسوماً أحياناً ومنحوتاً أحياناً للأصل الذكوري، وقد كان موضعاً للتقديس الذي يلعب دوراً أساسياً في طقوس المسارّة. "في ذلك التاريخ البعيد فان الفالوس المنتصب كان يرمز إلى القدرة السلطوية وإلى الخصوبة المتسامية، السحرية أو ما فوق الطبيعية، وليس إلى التنوع البريابي (المنسوبة للإله برياب priape إله القوة التناسلية عند الذكور) لقوة الذكر، وكان يرمز إلى الأمل القيامي والقوة التي ستنتجه، والمبدأ المشرق الذي لا يسمح لا للظلال ولا للتنوع والذي يحتفظ بوحدة أبدية منبثقة من الكائن الآدمي. اللإلهين الإنعاظيين هوميروس وأوزوريس يجسدان هذا الإيحاء الأبدي"[2]. ما تزال بعض التجسيدات النحتية القديمة لهذه العبادة الأنتيكية موجودة اليوم في اليونان على شكل منحوتة تمثل قضيباً من الصخر بحجم كبير عند مدخل إحدى دور العبادة الوثنية اليونانية.

هكذا تتكشف نصوص الرحالة العرب عن مصادر أساسية في علْمَيْ الاجتماع والأنثروبولوجيا، وفي هذا الإطار يتوجب الانتباه إلى الملاحظات المَبثوثة هنا وهناك فيها.

ثانياً: النزعة العقلانية والإنسانية لدى ابن بطلان

الأمر الثاني الذي يجمل التوقّف ملياً أمامه يمسُّ النزعة العقلانية الصارمة لابن بطلان. تنمُّ كتاباته في حواره مع علي بن رضوان عن احترام جم للعقل، وعن امتلاكٍ لضمير مهنيٍّ حيٍّ نادرٍ.

---

(1) رحلة ابن فضلان: ص73 من طبعة (ارتياد الآفاق) من تحريرنا ومقدمتنا. الجدير بالذكر هنا أن الكلية الأوكرانية للعلوم الإسلامية التي افتتحت في سبتمبر 1999 تقع ضمن (مسجد ابن فضلان) بمدينة (دانيسك). ويرمز اسم المسجد الذي ترتفع منه مئذنتان إلى الدبلوماسي المسلم (ابن فضلان) الذي بعثه الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى بلاد (الصقالبة) الروس عام 309هـ ــ921م ــ، ضمن وفد لتعليمهم أحكام الإسلام.

(2) عن أس. لوران في كتابه "الفالوس والجنس عند المرأة" 1964، بالفرنسية.
(C. Laurin, Phallus et sexualité féminine, 1964)

لقد أشار أكثر من مؤرخ إلى المعرفة العميقة لرحّالتنا بعلوم الأقدمين، وقراءته المتفحصة لنصوصهم. وقد كان يقرأ، في يقيني، باللغات اليونانية والسريانية والعربية. وهذا الفارق الثقافي الجوهريّ يميِّزُهُ عن خصمه المصري. عبارة القفطي ذات شأن هنا:

"قال المختار بن عبدون بن بطلان الطبيب النصراني البغدادي إن برقلس هذا كان من أهل اللاذقية، وابن بطلان كثير المطالعة لعلوم الأوائل وكتبهم وأخبارهم، غير متَّهَمٌ فيما ينقله"[1].

والجملة الاعتراضية الأخيرة تعني أنه كان يقرأ القدماء بمعرفة ودراية.

(1) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص 63.

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم
مقالة الشيخ الفاضل الفيلسوف
ابن ابي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان
في تدبير الامراض العارضة على الاكثر من الاغذية المالوفة
والادوية الموصوفة ليتنفع بها رهبان الاديرة ومن بعد
عن المدينة وينقسم الى اثنين واربعين بابا
الباب الاول في غرض المقالة الباب الثاني
في علامات المزاج الحار بحسب الغالب عليه من الدم والصفرا
وما يصلحهما الباب الثالث في علامات المزاج البارد
بحسب الغالب عليه من البلغم والسودا وما يصلحهما الباب الرابع
في الشروط المراعاه عند الاستفراغ الباب الخامس
في التقدم بالحفظ من الامراض بالفصد والاسهال والقي والحقن
الباب السادس في حفظ الصحة بالاسباب الستة الضرورية
الباب السابع في ترتيب الغذا بحسب الامزاج ووصايا ينتفع
بها المغتذي الباب الثامن في طبايع الاغذية البسيطة
وتنقسم الى اربعة فصول الباب التاسع في طبايع الاغذية المركبة
ومنافع الخمور والامياه والاشربة الدوائية الباب العاشر
في امراض الدماغ الباب الحادي عشر في امراض العين
والاماق والاجفان الباب الثاني عشر في امراض الاذن والصماخ
الباب الثالث عشر في امراض الانف الباب الرابع
عشر في امراض الفم واللسان والشفتين الباب

ورقة من إحدى رسائل ابن بطلان الطبية التي كتبها "لينتفع بها الرهبان في الأديرة ومن بَعُد عن المدينة"

يشير نصه السجالي المنشور في متن الرحلة الحالية إلى تدقيقه واحترامه لنصوص كبار اللاهوتيين والأطباء السابقين عليه والمعاصرين له. هكذا سوف يستنكر أشد الاستنكار مرور ابن رضوان بخفة على كتابات حنين بن إسحاق ونقده لها:

"وإذا به [ابن رضوان] قَدْ وسمها بأغلوطات حنين، فعلمت أن الله يمهل عبده لخطائه إلى وقت يشاء. تصفحتها فرأيت كلامه فيهَا كلام من لَمْ يحط بشيء مما فيهَا علماً، لعدم قراءتها على معلميْ الصناعة، وَقَدْ سلك في بعضها ضدَّ المعرفة، فكان كمن رام إدراك الألوان بحاسة الذوق، والأصوات بحاسة الشم، فلم يدرك شيئاً، وتطلبت في جميعها مَا لا يجوز أن يجاب عنه". كما أن تأويلاته للنص اليوناني طالعة من معالجة عقلانية ومتعقلنة لا شك فيها، ولو أنها تظل تستخدم مصطلحات عصرها وحدود معارفه.

وإذا ما خَلَّطَ بعض المؤرخين واصفين معاركه مع ابن رضوان بأنها "منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة" وأنها "تنابز مر"، ففي ذلك القليل من الإنصاف لأنهم يضعون الرجلين في سلة واحدة، وهو ما لا تشهد عليه النبرة العاقلة، غير المُسْتَفَزّة، الواضحة الحُجّة التي تنأى بالسجال عن أية نزعة تطال شخص الآخر. يقول الرجل مثلاً في معرض رده على خصمه: "وإنهم [أي المرضى المضحوك عليهم] لا يسامحون الشيخ [أي ابن رضوان] كما سامحته بسبّي، ولا يغضون عنه كما أغضيتُ عن ثلب عِرْضِي".

إن الوعيَّ المهنيّ العالي لابن بطلان مشهودٌ عليه في حواره المذكور، ومكتوبٌ بنبرة نادرة بالفعل في تاريخ التنظيم المهنيّ والنقابيّ في تاريخ الإسلام: "وليتحقق [أيّ خصمه] أن اللذّة بمَضْغ الكلام لا تفي بغُصّة الجواب. فإن لنا موقفَ حساب، ومجمعَ ثواب وعقاب، يتظلّم فيه المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباءَ بالأغلاط القاضية في هلاكهم".

وأحسب أن الفكر الفلسفي الذي يمتلكه ابن بطلان، الذاهب إلى وضع العقل في مكان رفيع مناسب، إضافةً إلى نزوعه اللاهوتي الصادق الداعي إلى (الرحمة) و(العطف) و(المحبة)، وهي كلها عناصر أساسية لديانته المسيحية، إلى جانب خبرةٍ علميةٍ طبيةٍ مُخْتَبَرَةٍ على أرض الوقائع، قد قادت ابن بطلان إلى

التوصّل إلى استنتاجاته الطبية والأخلاقية، داحضاً آراء خصمه وإنْ شابت مداخلاته بعض المرارة.

سيرة مختصرة لابن بطلان

سنة 439 هـ: سافر من بغداد (أبن أبي أصيبعة).

سنة 439 هـ: سافر يريد مصر. مرَّ بحلب (الزركلي).

سنة 440 هـ، شهر رمضان: خرج من بغداد (القفطي).

سنة 440 هـ: (نحو، نيف): كتب رسالته أي رحلته هذه (ياقوت).

سنة 440 هـ: كتب رسالته أي رحلته هذه (ابن العديم).

سنة 441 هـ: دخوله الفسطاط في أول جمادى الآخرة (ابن أبي أصيبعة).

سنة 441 هـ: دخل مصر فأقام ثلاث سنوات (الزركلي).

سنة 441 هـ: مقالة جوابية على علي بن رضوان في الفسطاط (ابن أبي أصيبعة).

سنة 442 (هـ): كتب رسالته (رحلته الحالية) (ياقوت).

سنة 444 هـ: ترهب وانقطع إِلَى العبادة إِلَى أن توفي بأنطاكية (القفطي).

سنة 446 هـ: زار القسطنطينية وكنيسة لوقا وكان الوباء قد عمّها (ابن أبي أصيبعة)

سنة 446 هـ: سار إلى القسطنطينية، وكان الطاعون متفشياً فيها (الزركلي).

سنة 450 هـ: كتب في القسطنطينية عمله "دعوة الأطباء" (ابن أبي أصيبعة نقله من خط ابن بطلان)

سنة 450 هـ: سنة وفاته وفق (ابن الغزي).

سنة 450 هـ: توفي بعد هذه السنة وفق (حاجي خليفة).

سنة 455 هـ: كتب مقالة تدبير أكثر الأمراض بأنطاكية (ياقوت).

سنة 455 هـــ: كتب مقالة تدبير اكثر الأمراض بأنطاكية (الزركلي).

سنة 455 هـــ: وفاته في إنطاكية (ميخائيل عواد).

سنة 458؟ هـــ: توفي ابن بطلان و لم يتخذ امرأة، ولا خلَّفَ ولداً (كراتشوفسكي بالنسبة للتاريخ، وابن أبي أصيبعة).

وفاته

اختلفت الآراء في سنة وفاة ابن بطلان، فالقفطي يذكر شيئاً غامضاً عن سنة وفاته التي يجعلها بعد سنة 444 هجرية، ويتفق معه أدوارد فنديك فيقرر أنه توفي سنة 444 هـــ – 1053م[1]، وهذا غير أكيد لأسباب كثيرة. أما ابن الغزي (ديوان الإسلام)[2] فيقول أنه توفي سنة 450 هـــ. ويذكر حاجي خليفة في (كشف الظنون) أن ابن بطلان توفي بعد سنة 450 هجرية. ويذكر كراتشوفسكي أنه "توفي بأنطاكية على ما يبدو عام (458هـــ: 1066) ولو أن المصادر غير مُجمعة على تاريخ وفاته" على ما يقول. وإلى تلك السنة 458هـــ يذهب المستشرق فليكس كلاين–فرانكه والدكتور أحمد سوسة[3]، بينما لا يذكر الزركلي له تاريخَ وفاةٍ.

(1) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، القاهرة سنة 1897م. وعن رحالتنا يقول: " ابن بطلان البغدادي المتوفي سنة 444هـــ 1053م هو أبو الحسن المختار بن بطلان البغدادي النصراني أخذ الطب عن ابن الطيب وكان يمارس الطب، وقدم من بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة. ثم قدم مصر ولقي ابن رضوان المصري الطبيب الفيلسوف فجرت بينهما مذاكرة أفضت إلى المنافرة. وجاب كثيراً من البلاد ثم انقطع في أحد أديرة أنطاكية للعبادة. له تصانيف جليلة منها المدخل إلى الطب وتقويم الصحة وهو في الأطعمة و الأشربة. ومقالة في الداء المسهل وغير ذلك كثير. وهو من كبار الباحثين ومن أصدقاء عبد الله بن جبرائيل آخر عشيرة بخت يشوع السابق ذكرها".

(2) ديوان الإسلام: شمس الدين أبو المعالي محمّد بن عبدالرحمان ابن الغزي (ت 1167 هـــ)، تحقيق: كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1411 ه – 1990 م، ط 1.

(3) أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، الجزء الأول، نشر لجنة المهندسين العراقيين ومؤسسة كولبنكيان، بغداد 1974، ص216.



منظر شامل لرصافة هشام (سرجيوبوليس) أي (مدينة سيرجيوس) التي مرّ بها ابن بطلان، وتقع على عقدة تقاطع طرق القوافل بين تدمر جنوباً، درّة في الجنوب الشرقي وحاب غرباً. ويُشاهد في منتصف الصورة كنيسة (القديسين سرجيوس وباخوس). لم يبق من الرصافة سوى مبنيين أو ثلاثة يمكن تمييزها، في حين خرب الباقي. تشهد الحفريات العشوائية في أنقاض المدينة الحالية على عمل أجيال من المنقبين المجهولين الباحثين عن الدفائن والكنوز. كان يُحتفظ في كنيسة الشهادة برفات القديس سرجيوس ورفقته باخوس وجوليا. الكنيسة المذكورة عبارة عن (بازيليك basilique)، والكلمة تعني، بشكل عام، معبداً مستطيلاً مقسماً إلى أجنحةٍ كنسيةٍ nefs متوازيةٍ تنتهي بصدر الكنيسة (أو محرابها abside) الذي تجري فيه مختلف الطقوس. على بعد مائة متر شرقي "كنيسة الشهادة" توجد كنيسة أخرى مشابهة معمارياً تحمل اسم القديس سرجيوس. يتجلى التطابق بين الكنيستين في المخطط الهندسي، والأشكال الخارجية، وطريقة التزيين، وفي استخدام مواد البناء.

من هو الملك قُسْيان وما هي بيعة القُسْيان؟

كان ابن بطلان رجلاً نسطورياً وَرِعاً، من دون تعصّب، ويمكننا الاعتقاد أنه كان مهتماً، من بعيد، بالنقاش اللاهوتي الساخن الدائر في أنطاكية. يذكر كلاين-

فرانكه أن "ابن بطلان حلّ بالعاصمة البيزنطية، القسطنطينية، في الوقت الذي كان الخلاف فيه بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الشرقية على أشدّه. وبوصفه راهباً في الكنيسة النسطورية فقد طلبتْ منه البطريركية أن يقول، قبل انعقاد المجمع الكنسي الأوّل، حُكْماً مماثلاً لوجهة نظر البطريركية من المسألة. على أن ابن بطلان لم يكن، على ما يبدوَ، راغباً بالانشغال كثيراً بالفعاليات الإشكالية التي ستؤدي قريباً إلى الانقسام الكنائسيّ الأول. أقام مؤقتاً في دير، وربما كان ينتوي أن يُستريح من عناء إقامته القريبة في القاهرة. (خاصة وأن خصمه ابن رضوان) ذي الموقع المؤثر في البلد قد توصَّل إلى حظره ومنعه من الاتصال بزملاء المهنة في القاهرة"[1].

توحي رحلة ابن بطلان وهي تصف كنائس أنطاكية بانتباهاته للعمارة الدينية فيها، لكن لا تبدو علاقته بالكنيسة واضحة في الرحلة، ما يستدعي إلقاء نظرة سريعة على تاريخ كنيسة أنطاكية التي نفترض ارتباط ابن بطلان بها أو ببعض مدارسها اللاهوتية.

وفق المصادر الأرثوذوكسية المعاصرة (بطريركية أنطاكية وسائر المشرق) فقد أقام الرسولان بولس وبرنابا كرسي أنطاكية سنة 42م، إلا أن بطرس الرسول استوى عليه كأول الأساقفة لمدة ثماني سنوات (45-53م)، ثم انطلق لتأسيس كنائس أخرى، وهو أمر غير مُوَثق تاريخياً. وهناك آراء تاريخية وكنسية تقول إن بطرس الرسول هو الذي أقام الكرسي الأنطاكي بمعاونة بولس وبرنابا، وخلّفه على السدة الأنطاكية أفوديوس. وتمضي تلك المصادر للقول أن ليس بمستغرب أن لقب البطريرك (لفظة تعني رئيس العشيرة) قد لقب به بطرس الرسول، لكون المسيحية في أنطاكية قد انتشرت بين اليهود أولاً، ولأن بطرس كان عملياً زعيم هذه العشيرة. وما إطلاق تسمية البطريرك من قبل مجمع خلقيدونية (451م) على أسقف أنطاكية وحده دون سائر أساقفة الكراسي الأخرى، أي روما والقسطنطينية والإسكندرية وأورشليم، إلا تكريساً لهذا الأمر الواقع. لتلك الأسباب تعتبر هذه المصادر القديس بطرس أول البطاركة على كرسيّ أنطاكية.

لقد كانت أنطاكية مع دمشق بوابتي عبور المسيحية إلى أجزاء مهمة من العالم، وخصوصاً باتجاه الشرق، ما جعل لها حقوقاً شرعية على الكنائس الجديدة

(1) كلاين- فرانكه، ص2 (المقدمة بالإنكليزية والترجمة لنا).

في تلك الأصقاع. وترى مصادر الكنيسة الشرقية أن أسقف (بطريرك) أنطاكية كان متقدّماً منذ العهود المسيحية الأولى على سائر أساقفة الشرق، فهو الذي ترأس المجامع المكانية في الشرق (أنقرة 351م، قيصرية 316م) واعترف المجمع المسكوني الأول (نيقية، 325م) لكنيسة أنطاكية بالرئاسة على سائر أساقفة الشرق. وثَبَّتَ المجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية، 381م) هذه الرئاسة، في حين قَرَّرَ المجمع المسكوني الثالث (أفسس، 431م) استقلال كنيسة قبرص عن أنطاكية برئاسة رئيس أساقفة.

من جهة أخرى، مرت بالكرسي الأنطاكي العديد من الأحداث الساخنة، أدّت إلى المزيد من الانشقاقات. إذ فَصَلَ أول انشقاق في كرسي أنطاكية عام 498م، النساطرةَ، بعد مجمع أفسس (431م). وتلا ذلك انفصال السريان والأرمن عن أنطاكية، نتيجة رفضهم لمقررات مجمع خلقيدونية. وبعد ذلك، وفي الحروب الصليبية، انفصل الموارنة عن أنطاكية وأقاموا يوحنا مارون بطريكاً عليهم (685م). ومنذ منتصف القرن الثامن، طالبت الكنيسة الكرجية الأرثوذكسية باستقلالها عن الكرسي الأنطاكي، وحصلت عليه عام 1050م، وأصبحت كنيسة أرثوذكسية مستقلة.

وفي الفترة الممتدة من الفتح العربي لأنطاكية عام 637م، وحتى غزو الفرنجة عام 1098م (أي بعد وفاة رحالتنا أكثر من ثلاثين سنة)، مروراً بالعصر البيزنطي الثاني، حافظَ الكرسيّ الأنطاكيّ على وجوده وحيوته، في حين نال على يد الفرنجة نصيباً وافراً من النكبات. وحتى اندحار الفرنجة وسقوط أنطاكية عام 1268م، كان البطاركة الأنطاكيون يقيمون في القسطنطينية، إلا أن الكرسي الأنطاكي هجرها منذ احتلال الفرنجة لها متجولاً في آسية الصغرى حتى عام 1342م، حين تقرر نقله إلى دمشق أهم مدينة في بلاد الشام، وتالية أنطاكية من حيث مكانة أسقفها. وكان أسقف دمشق حينئذ يواكيم، وترتيبه 58 بعد حنانيا الرسول أول أساقفتها.

هذا هو السقف التاريخي الذي سبق وتلى أنطاكية ابن بطلان، وعلينا أن نرى خلاله إلى أوصاف الرجل لكنيسة (القُسيان) الغامضة، وورعه الديني الذي قاده إلى الترهّب والموت من دون زوجة أو ولد.

لقد أثارت البيعة المسماة في رحلة ابن بطلان (بيعة القُسيان) اهتمامي البالغ، وحاولتُ التوصل لمعرفة أي البيع هذه (وهي كنيسة لدى المسعودي). ومن هو يا ترى الملك "قُسيان الّذي أحيا بطرسُ رئيسُ الحواريين ولدَهُ " كما يقول لنا؟

ويبدو لي، من دون يقين، أن تصحيفاً، على كل حال، في الكلمة ذهب، على ألسنة المؤرخين العرب، مذهب الخطأ الشائع.

هنا بعض الفرضيات: نحو سنة 170 الميلادية كان يوجد في أنطاكية ملك اسمه أبيفان Épiphane (وربما تكون قسيان تصحيفاً لــ"أبيفان"؟). وكان هناك أكثر من ملك سلجوقي يحمل هذا الاسم قبل المسيحية (Ptolémée V Épiphane من السنوات 204–180) و(Antiochos IV Épiphane من سنة 175 إلى سنة 165).

وتحت هذا الاسم ثمة القديس لوسيان الأنطاكي (saint Lucien d'Antioche) وهو كاهنٌ مات سنة 312م وكان يُدرّس شرحَ الكتاب المقدس في أنطاكية. مات شهيداً حسب أعراف الكنيسة. ومن يدري فيما إذا ما تعرّض لوسيان (أو Lucianus)، لتصحيفٍ مماثل جعل الناسخين يكتبونه قُسْيان.

ومن أجل وضع الاسم قسيان في سياقه التاريخي والبحث عنه في هذا السياق بالضبط، يتوجّب علينا أن نعرف أن قلوذيوس بن طيبارس الإمبراطور البيزنطي قد صار، حسب المسعودي، إلى أنطاكية (مسعودي 225). بينما شيّد ديوقليط (Dioclétien 303م - 313م) في المدينة، بعد استتباب الديانة المسيحية، قصراً، وشيّد قسطنطين Constantin فيها بضعة كنائس. ويذكر الأب لويس شيخو أن أنطاكية استولى عليها الروم سنة 352 هــ (963م) في عهد نيقيفوس فوكاس فبقيتْ في يدهم إلى سنة 477هــ (1084م)، فدخلها ابن بطلان في أيام حكم الروم عليها.

يمكننا أن نفكّر، من جديد، أن (قُسْيّان) هو تصحيف لاسم (قسطنطين) مثلاً دون برهان أكيد، رغم أن أقرب الأسماء الكنسية لقُسيان هو القديس يوحنا كَسْيان (JOANNES CASSIANUS 360؟م– 435؟م)، وأصله من بيت لحم، مرّ بالقسطنطينية (وقد يكون مرّ بأنطاكية) قبل أن يذهب إلى روما ويستقر في مارسيليا Massilia، الفرنسية اليوم.

الفرضية الأخيرة تقع في إمكانية أن يكون قُسْيان جمعاً محلياً لكلمة قَسَ أو قسطنطين على غير قاعدة؟ خاصةً وإن بعض النصوص تورد أن الكنيسة الأولى في أنطاكية كانت مجمعاً يلتقي فيه خمسة من الرسل والحواريون من بينهم برنابا وبطرس؟ لا يقين لديَّ مرة أخرى.

أما بالنسبة للبيعة أو الكنيسة فأمرها مُلتبس وغامض بدوره. إن الأثر الأقدم من العهد المسيحي الأول في أنطاكية هي المغارة "المنسوبة" إلى القديس بطرس الرسول في جبل الصليب (ستاوريس)، ومما لا شك فيه أنها أقدم كنيسة مسيحية ضمّت المسيحيين الأوائل.



المغارة "المنسوبة" إلى القديس بطرس الرسول في جبل الصليب (ستاوريس Stauris) في أنطاكية، ومما لا شك فيه أنها أقدم كنيسة مسيحية ضمّت المسيحيين الأوائل. وجبل الصليب، ستاوريس، يستمد اسمه من سلسلة الجبال التي تحيط بالمدينة وهي جبال سيلبيوس وستاوريس Sylpius et Stauris. وليست المغارة، في أغلب الظن، هي بيعة القُسيان المذكورة في الرحلة. في هذه الكنيسة- المغارة ناقش القديس بول وبرنابا إمكانية أن يتشاطرَ اليهودُ والمسيحيون وجباتِهِمْ. في هذا المصلّى الكهفي يوجد نفق كان يمكّن المسيحيين الأوائل من الهرب من أعدائهم الوثنيين. وتذكر المعتقدات أن

رمحاً كان قد اخترق المسيح ثمَّ أخفاه، قد جَلَبَ الظفر، عند اكتشافه، إلى بوهيموند التارنتي Bohémond de Tarente أثناء حصار أنطاكية سنة 1097م.

لكن نص رحلتنا يتحدث عن تحفة معمارية لا علاقة لها بهذه المغارة، ولعله يتحدث عن كاتدرائية فخمة. سوى أن الكاتدرائية الموجودة اليوم في المدينة وهي (كاتدرائية القديسين بطرس وبولس) الواقعة وسط الأحياء الشعبية والمبنية على الطراز البيزنطي مع لمسات روسية، كانت في البداية بناءً بسيطاً من الخشب بني عام 1833م، ثم أعيد بناؤها بعد زلزال 1872م. ولعل الكنيسة التي يصفها النص قد اندثرت مع حوادث وحرائق وزلازل المدينة، وبنيت مكانها هذه الكنيسة.

سلسلة البطاركة الذين تولوا رعاية الكرسي الأنطاكي في حياة ابن بطلان:

إن المقتطع التالي من سلسلة البطاركة الذين تولوا الكرسي الأنطاكي (وفق بطريركية أنطاكية وسائر المشرق)، يطابق الفترة التي عاش بها رحّالتنا إلى حد كبير طالما أننا لا نعرف سنتي ولادة أو وفاة ابن بطلان بدقة. لكن السلسلة تعرِّفنا على الوضع الكنسي في أنطاكية، وهو ما قد يساعدنا في وضع ابن بطلان في سياق معرفي وتاريخي يخصّ شخصه بشكل أوثق.

التسلسل	اسم البطريرك	السنة
102	بطرس	1028م
103	يوحنا السادس	1051م
104	اميليانوس	1062م
105	ثاوذوسيوس الثاني	1075م

البطاركة الذين تولوا الكرسي الأنطاكي وفق (بطريركية أنطاكية وسائر المشرق)، أثناء حياة ابن بطلان

يبدو، تبعاً للتواريخ التي بحوزتنا عن حياة ابن بطلان، أن البطريركين بطرس (1028) ويوحنا السادس (1051) قد عاصراه بوصفهم بطاركةً، في حين أن لا ندري فيما إذا عاش ابن بطلان في حياة البطريك الأخير ثاوذوسيوس الثاني. بينما قد يكون هذا الأخير نفسه حيّاً في شطر من حياة ابن بطلان الذي نفترض أنه توفي بين السنوات 1055–1066 الميلادية كما قلنا.

إن التعقيدات في تاريخ الكنيسة الشرقية تجعلنا نسارع إلى القول أن شجرة (البطريركية للسريان الأرثوذوكس للكرسي الأنطاكي) تختلف، اليوم، عن شجرة (بطريريكية أنطاكية وسائر المشرق)، لجهة بطاركتها وتسلسلهم الزمنيّ، وهي قضية لا تعنينا هنا، بل نرجوها، فحسب، مُسَاعِدَاً في فهم وضعية الكنيسة التي انفجر الخلاف في داخلها في السنوات الأخيرة مَن حياة ابن بطلان. في المخطط التالي نرى أن السريان الأرثوذوكوس يمتلكون تصورات مُغايرَةً عن الوضع. أين كان ابن بطلان من هذه الاختلافات؟ لا نحر جواباً لأننا لا نمتلَك وثيقة منه أو من غيره عنه حول التزاعات الداخلية في الكنيسة.

66	يوحنا السابع ابن عبدون الملطي	1004-1033
67	ديونيسيوس الرابع يحيى	1034-1044
	بسبب نزاعات داخليّة خلال الكنيسة كان الكرسيّ البابويّ خالٍ لسنوات قليلة القادمة.	
68	يوحنا الثامن	1049-1057
69	أثناسيوس الخامس عائش	1063–1058

تسلسل البطاركة في حياة ابن بطلان، حسب (كنيسة السريان الأرثوذوكس)

على أن ورع ابن بطلان المسيحي لم يكن يعفيه من أن يضع الطب في مكانه المناسب من الدين. في موضعين على الأقل من (دعوة الأطباء) يوجِّه ملاحظات موضوعية لمن يظن أن الأقدار أو المشيئة الربانية أقوى من العلاج الطبي: "وواحدٌ يقول أنا آكل وأشرب، وأترك التداوي وأتوكّل على الله. وقائل ذلك إذا مرض له حمارُ قَبلَ فيه مشورة البيطار وكان يجب بحسب رأيه أن يتركه ويتوكل على الله. على أنَ الطبيب يأمر بالتداوي ولا ينهي عن التوكّل على الله". وفي موضع آخر يقول الطبيب الزائر: "ما بقي دواء إلا شربته فما نفعني، وقد وُصِف لي أن بهذه

العُمر رجل من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا بعينها فاطّرحوها عن خبرة، فأنا أمضي للقائه والتبرك بدعائه. فضحك الشيخ، وقال: ما أشبه هذا منك إلا برجل رمدت عيناه فلقيه صديق له، فقال له: أرى وجع عينيك قد طال فبماذا تعالجها؟. فقال: بدعاء الوالدة. فقال له: لو أضفتَ إليه قليل أنزروت[1] لكانَ أسرع في الإجابة. وكذلك أنت لو اعتضتَ عن دعاء الرهبان بمعجون الرامهران[2] كان أبلغ لك في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة..".

أخبار ابن بطلان وما رواه هو من أخبار

تركت لنا بعض المراجع التاريخية نتفاً من سيرة حياة ابن بُطلان، أو ما نقله هو من حكايات عن أطباء آخرين، وكلها تعالج الجانب الطبيّ من سيرهم.

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "ونقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان: أن أبا عثمان الجاحظ[3] ويوحنا بن ماسويه[4] قد اجتمعا،

---

(1) عنزروت أو انزروت: Sarcocolla. شجيرة مستقيمة يصل ارتفاعها مترا واحداً، فروعها مورقة في الأدوار العلويّة، وعارية ومعقّدة إلى الأسفل. تتداخل الأوراق أحيانا وتطوّق السّاق. زهورها أنبوبيّة (بطول 40 ملّيمتر). وفي المصادر العربية عنزروت: أنزروت (هي الشجرة التي صمغها الأنزروت) وهي الكحل الفارسي والكرماني ويسمى زهر جشم، ويعني ترياق العين، وهو صمغ شجرة شائكة كشجرة الكندر تنبت بجبل فارس.

(2) الرامهران: لم أتوصل إليها، ومن الجلي أنه دواء للعيون، ولعلها منسوبة لمدينة رامهر مز الفارسية.

(3) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي. أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، مولده ووفاته بالبصرة. نصر الاعتزال بكتابته وأصبح رئيس فرقة في الاعتزال تعرف باسم (الجاحظية). قضى الجاحظ أكثر عمره في البصرة وقصد بغداد بدعوة من المأمون وعينه في ديوان الرسائل وجعل له الصدارة فيه، وما انقضت ثلاثة أيام حتى استعفي من منصبه فأعفي، إلا أنه بقي مخلصا للمأمون، فأيسرت حاله بعد بؤس، وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث، وظل مقيما في بغداد إلى أيام المتوكل، فلما نكب المتوكل ابن الزيات وقتله سنة 233هـ عاد الجاحظ إلى البصرة واستقر فيها إلى وفاته. وله من الكتب ما يزيد على المائتي كتاب نُشر منها: كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين، وكتاب البخلاء، ورسائل. أما الرسائل فهي أبحاث في مواضيع شتى منها في الفلسفة والدين، كرسالته في فضيلة المعتزلة أو الرد على النصارى، ومنها في السياسة كرسالته في مناقب الترك أو في فخر السودان على البيضان، أو العثمانية، أو رسالة في بني أمية، ومنها اجتماعية كالقيان والعشق ومنها أخلاقية كالحاسد والمحسود، وذم الكتاب، ومنها علمية أو اقتصادية كرسالته في الخراج، ورسالته في الكيمياء وغير ذلك من الرسائل والأبحاث. وهناك رسائل أخرى نسبت إلى الجاحظ ولكن نسبتها تثير الشك ككتاب التاج. له كذاك كتاب (التبصرة في التجارة). فُلِجَ الجاحظ في آخر حياته، فاعتزل الناس إلا أقلهم، وقضى في فراشه مدة يغالب الداء، ومع ذلك لم ينقطع عن الكتابة، فقد مات والكتاب على صدره وقد بلغ من العمر 92 عاماً.

(4) طبيب سرياني الأصل، عربي المنشأ. أبو زكريا. كان من أعلام الأطباء في زمانه، وكان أبوه صيدلانيا في جنديسابور بخوزستان ثم من أطباء أمراض العين في بغداد. تقدم أبوه في دولة الرشيد ونشأ ابنه في بغداد ونبغ فيها، وكان أحد الذين عهد إليهم الرشيد بترجمة ما وجد من الكتب القديمة في أنقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم. وقد نقلت هذه الكتب إلى بيت الحكمة ببغداد، وجعل يوحنا أمينا لترجمتها إلى العربية، ورتّب له الرشيد كتابا حاذقين لتدوين الترجمة ونسخها. وقد حظي بتقدير كبير من الخليفة الواثق، وترجم كثيراً من الذخائر الأجنبية، فأغدق عليه الواثق نعما متوالية وخيراً وفيراً. تولى تطبيب الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل وتطبيب مرضاهم. أصاب شهرة واسعة وثروة طائلة، وكان مجلسه ببغداد أعمر مجلس، يجمع بين الطبيب والفيلسوف والأديب والظريف. ينسب إليه وإلى تلميذه حنين بن إسحاق أقدم معالجة للرمد وطب العيون. من أهم كتبه: البرهان والنوادر الطبية وخواص الأدوية، وخواص الأغذية، ومعرفة العين وطبقاتها، والحميات. يسميه الفرنج (mesue)

بغالب ظني، على مائدة إسماعيل بن بلبل الوزير[86]، وكان في جملة ما قُدِّمَ مَضيْرَة[87] بعد سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، قال له أبو عثمان: أيها الشيخ لا يَخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا، فقال يوحنا: واللّه مالي خبرة بالكلام، ولكن كُلْ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد. فأكل أبو عثمان نصرة لدعواه، ففلج[88] في ليلته، فقال: هذه واللّه نتيجة القياسِ المحال، والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن، ولو سامحناه في أنهما من طبع واحد لكان لامتزاجهما قوة ليست لأحدهما..".

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)[89]: "ونقلت من خط ابن بطلان في رسالته المعروفة (بدعوة الأطباء) أن القاسم بن عبيد اللّه، وزير المعتضد باللّه، بَلَغَهُ أن أبا إسحاق قد شرب دواءً مسهلاً، فأحبَّ مداعبته، وكان صديقاً له فكتب إليه:

(الهزج)

أبِنْ لي كيف أمسيتَ ... وكم كان من الحالِ

وكم سارت بك الناقـ ... ـة نحو المنزل الخالي

فكتب إليه إسحاق بن حنين

(الهزج)

بخير كنت مسروراً ... رضيَّ الحالِ والبالِ

فأما السير والناقـ ... ـة والمرتبع الخالي

---

(86) وزير الخليفة المعتمد على الله.

(87) والمَضِيرَة: مُرَيَّقَة تطبخ بلبن وأشياء، وقيل: هي طبيخ يتخذ من اللبن الماضر. قال أبو منصور: المضيرة عند العرب أن تطبخ اللحم باللبن البحت الصريح الذي قد حذى اللسانَ حتى يَنْضَجَ اللحمُ وتَخْثُرَ المضيرة، وربما خلطوا الحليب بالحَقِين وهو حينئذ أطيب ما يكون. (لسان العرب).

(88) الفالج هو الشلل النصفي. وقد فُلِجَ فَالِجاً، فهو مَفْلوجٌ؛ لأنه ذهب نصفه. وفي حديث أبي هريرة: الفالِجُ داءُ الأنبياء؛ هو داءٌ معروف يُرَخِّي بعضَ البدن(اللسان).

(89) الحكاية موجودة في (دعوة الأطباء)، طبعة كلاين-فرانكه، ص54.

فإجلالُــــــــــك أنــــــــــسانيه يـــــــا غايـــــــة آمـــــــالي"[1]

ابن أبي أصيبعة[2] (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "نقلت من خط ابن بطلان في مقالته في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تُعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، قال: كان قد أسكت الوزير أبو طاهر بن بقية[3] في داره الشاطئة[4] على الجسر ببغداد، وقد حضر الأمير معز الدولة بختيار[5]، والأطباء مجمعون على أنه قد مات، فتقدم أبو الحسن الحرّاني[6]، وكنت أصحبه يومئذ، فقال: أيها الأمير إذا كان قد مات فلن يضره الفصاد[7]، فهل تأذن في فصده؟ قال له: افعل يا أبا الحسن، ففصده، فرشح منه دم يسير، ثم لم يزل يقوى الرشح[8] إلى أن صار الدم يجري فأفاق الوزير، فلما خلوتُ به سألتُهُ عن الحال وكان ضنيناً بما يقول، فقال: إن من عادة الوزير أن يستفرغ في كل ربيعٍ دماً كثيراً من عروق المعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابَتِ الطبيعة من خناقها".

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "نقلت من خط المختار بن الحسن بن بُطْلان في مقالته في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تُعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج[9] واللقوة[1] والاسترخاء

(1) ترد القصة نفسها لدى الصفدي (الوافي بالوفيات) لكنه يضيف:

" وقيل إنه كتب الجواب:

كتبت إليك والنعلان مـــا إن ... أقلّمها من المشي العنـــيف

فإن رمت الجواب إليّ فاكتب ... على العنوان يوصل للكنيف"

أما ابن خلكان (وفيات الأعيان) فيذكر، بعد أيراد تلك القصة بأبياتها: "وكنت قد وقفت في كتاب الكنايات على مثل هذه القضية، فذكر أن الأول كتب البيتين الأولين وأن الثاني كتب الجواب: كتبت إليك والنـــعـــلان...الخ" الأبيات.

(2) سترد ترجمته لاحقاً.

(3) في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية وُزِّرَ ببغداد أبو طاهر بن بقية ولقب بالناصح وكان سمحًا كريمًا، له راتب كل يوم من الثلج ألف رطل وراتبه من الشمع في كل شهر ألف منه وكان أبو طاهر من صغار الكتاب.

(4) أي المحاذية للشاطئ.

(5) في خلافة الطائع كانت السلطة بالعراق لخمسة من بني بويه أولهم هو عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى سنة367 هـــ.

(6) وردت ترجمته أعلاه. وفي (طبقات الأطباء) قصة أخرى عن فصاد آخر قام به الحراني و عبد الله بن جبرائيل لرجل يقلي الكبود في بغداد سترد بعد قليل.

(7) الفصدُ: شَقُّ العِرْقِ؛ فَصدَه يَفْصِدُه فَصْداً وفِصاداً، فهو مَفْصُودٌ وفَصِيدٌ. وافْتَصَدَ فلانٌ إذا قطعَ عرْقَه فَفَصَد، وقد فَصَدَتْ وافْتَصدَتْ. ولا يوجد المصدر (فصاد) في اللسان كأنها محدثة.

(8) الرشح: خروج الدم.

(9) فالج: Hemiplegia شلل نصفي. يحدد أبو القاسم الزهراوي (التصريف لمن عجز عن التأليف) الفالج كالتالي: "هو انسداد مجاري العصب الذي تسلك فيه الروح النفساني بلزوجات البلغم فإن تمكن البلغم في جزء واحد من أجزاء الدماغ بطلت تلك الجهة من الجسم يمنة أو يسرة، ونسب الفالج إلى تلك الناحية، وسمى فالجا ناقصا، و أن عرض الانسداد في جميع بطون الدماغ حدث من ذلك السكتة وبطل حس جميع البدن كما قلنا. والفالج نوعان: فإما أن يكون عن البلغم اللزج،

والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور[2] القدماء، قال: إن أول من فطن لهذه الطريق ونبَّهَ عليها ببغداد، وأخذ المرضى في المداواة بها، واطّرَح[3] ما سواها، الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب[4]، رحمه اللّه، فإنني سمعته يقول أول: ما خطر لي النقل في الفالج الذي عرض لشيخنا أبي علي بن زرعة[5]، رحمه الله؛ وذلك أن أبا علي كان رجلاً مُنْحف الجسم، حاد الخاطر، محداثاً[6] مليح المجلس، ملازماً للتدريس والنقل والتصنيف، محباً للبوارد[7] المحرفات[8] والمطجنات[9]، ومليح الأسماك، وما عمل من البوارد بالخردل[10]، ثم أنه حرص في آخر عمره على عمل مقالة في بقاء النفس، فأقام نحواً من سنة يفكّر فيها، ويسهر لها حرصاً على عملها. كان أيضاً مفتوناً بالتجارة إلى بلد الروم، وله فيها أضداد[11] من تجار السريان، قد

وإما أن يكون في إثر ضربة أو سقطة. وعلامة الذي يكون من البلغم: استرخاء الظهر في تلك الجهة وأن يجد أعراض السكتة، وعلامة الذي يكون من الضربة أو السقطة أن يسترخي البدن كله أو بعض أعضائه بعقب ذلك".

(1) لقوة: Facial palsy شلل العصب الوجهي. وعند العرب "اللَّقْوة هو داء يكون في الوجه يَعْوَجُّ منه الشِّدق، وقد لُقِيَ فهو مَلْقُوٌّ. وفي حديث ابن عمر: أنه اكْتَوَى من اللَّقْوَة، هو مرض يَعْرِضُ لوجه فيُميلُه إلى أحد جانبيه" (اللسان). ويذكر الزهراوي: "القول في اللقوة: يكون في شيئين إما من بلغم غليظ لزج يسد منافذ العصب المؤدي حسه وحركته إلى عضلة الخد، فيسترخي ذلك الجانب ويميل إلى الجانب الصحيح ولا يقدر العليل على تغميض عينه التي في تلك الجهة، ولا ينتفخ في ذلك الجانب، وإما أن يكون من تشنج حدث في العصب المؤدي حسب ذلك الموضع وحركته فيجذب الجانب الآخر إلى نفسه. وعلامة الذي يكون من استرخاء ذلك الجانب ضعف حركته، وقلة تمدده، وانجذاب الجفن إلى أسفل، وكثرة الريق الرقوبة، وعلامة الذي يكون من تشنج العصب شدة جلدة الجهة في ذلك الجانب وتمددها وقلة الريق والرطوبة والبصاق، وألا يكون العليل كدر الحواس وأن يكون نحيفا قليل الرطوبات".

(2) أي لما سطَّره القدماء وكتبوه.

(3) اطّرح أي ترك وهجر.

(4) ويكنى أبا منصور كان في أول أمره فاصداً في البيمارستان ببغداد ثم إنه بعد ذلك اشتغل في صناعة الطب وتميز حتى صار من الأكابر من أهلها والمتعينين من أربابها.

(5) أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة. وهو أحد المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة، والنقلة المجودين وهو أخص تلاميذ يحيى، ومكمل تعليمه في اللاهوت. ولد سنة 331هـ/942م، وتوفي سنة 398هـ/1008م.

(6) محداث: حسن الحديث.

(7) البوارد تعني من دون سك الأكل البارد، غير الساخن. من حكاية يرد فيها "ثم قال: يا سيدي قد حضر الغذاء فتكرمني أن تتغدى عندي، فقال: هات فجاء بالمائدة وعليها البوارد، فأجال أبو الحسن عليه السلام يده في البارد وقال: البارد تجال اليد فيه، فلما رفعوا البارد وجاءوا بالحار، فقال أبو الحسن عليه السلام: الحار حمى". وفي قصة لابن طولون: "وأُحضرت مائدة ليس عليها إلا البوارد من البقول المطبوخة، فانهمك العباس في أكلها لشدَّة جوعه، حتى شبع من ذلك الطعام، وأبوه متوقف عن الانبساط في الأكل. فلما علم بأنه قد امتلأ من ذلك الطعام، أمرهم بنقل المائدة، وأُحضر كل لون طيـّب من الدجاج والبط والجدي والخروف، فانبسط أبوه في جميع ذلك فأكل، وأقبل يضع بين يدي ابنه منه، فلا يمكنه الأكل لشبعه. قال له أبوه: إنني أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحنتك به. لا تـُلَق بهمـّتك على صغار الأمور بأن تسهـِّل على نفسك تناول يسيرها فيمنعك ذلك من كبارها، ولا تشتغل بما قلّ قدرُه فلا يكون فيك فضلٌ لما يعظم قدرُه. من كتاب "سيرة أحمد بن طولون" للبلوي.

(8) المحرفات: الحَرَافة: حدة في الطعم تحرق اللسان والفم، والحِرِّيْف الذي فيه حرافة.

(9) المطجَّن هو ما قُلي في الطاجن (المقلى) أو صحفة من صحاف الطعام مستديرة عالية الجوانب تتخذ من الفخار وينضج فيها الطعام في الفرن. يقال: قَلِيّة مُطَجَّنَة.

(10) الخردل Mustard نبات عشبي حِرِّيْف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، تستعمل بزوره في الطب ومنها بزور يتبّل بها الطعام.

(11) أضداد أي أعداء ومن هم على الضدّ منه.

سعوا به دفعات إلى السلطان، وصودر على أموال، ولحقته عدّة نكبات، فالتام[1] عليه حرارة المزاج الأصلي، وفساد الأغذية، وكدّ الخاطر بالتصنيف، ومداراة السلاطين؛ فعرضت له مرضة[2] حادة واختلاط أبحر فيها بفالج كما يبحر المرضى بأورام ونحوها".

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "ونقلت أيضاً من خط ابن بطلان إن صاعد الطبيب[3] عالج الأجلّ المرتضى[4] رضي اللّه عنه من لَسْبِ[5] عقربٍ بأن ضمَّدَ المكانَ بكافور، فسكن عنه الألم في الحال"[6].

ابن خلكان (وفيات الأعيان): "وذكر ابن بطلان في كتاب دعوة الأطباء أن الوزير المذكور بلغه أن إسحاق المذكور استعمل دواء مسهلاً، فأحب مداعبته، فكتب إليه:

أبــــن لي كيـــــف أمــــسيتَ ... ومـــا كــــان مـــن الحـــالِ
وكـــم ســـارتْ بـــك الناقـــــة نحـــو المـــنزل الخـــالي

فكتب إليه جوابه:

بخــــيرِ بـــــتّ مـــــسروراً ... رخــــيّ البـــــال والحـــــالِ
فأمــــا الـــــسير والناقـــــة والمُرْتبــــع الخــــالي

(1) التام عليه: اجتمع عليه. وفي اللهجة العراقية يُقال (التمَّ والتمَّتْ عليه) بهذا المعنى.

(2) مرضة: أي مرض، وما زالت تستخدم في العامية العراقية بهذا المعنى.

(3) هو صاعد بن بشر بن عبدوس ويكنى أبا منصور المذكور أعلاه. كان في أول أمره فاصداً في البيمارستان ببغداد. ثم إنه بعد ذلك اشتغل في صناعة الطب وتميز حتى صار من الأكابر من أهلها، والمتعينين من أربابها. ثمة صاعد آخر هو صاعد بن الحسن بن صاعد. أبو العلاء. طبيب من أهل الرحبة. قال عنه ابن أبي أصيبعة: إنه من الفضلاء في صناعة الطب، وكان ذكيا بليغاً، صنع قلم الحبر المداد، وأملأه بمداد يخدم شهرا ولا يجف. وصنع آلة لرفع الحجارة والثقال. له شعر وعلم وأدب. من كتبه (التشويق في الطب) بمدينة الرحبة في رجب سنة أربع وستين وأربعمائة (1072م. نزل دمشق وأقام فيها.

(4) هو علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم. أبو القاسم، المرتضى. ولد ونشأ ببغداد. من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب هو أخو الشريف الرضي. نقيب الطالبيين بعد أخيه الرضي، وأحد الأئمة في علم الكلام والأدب والشعر. كان إماماً في التشيع والاعتزال. من تصانيفه (غرر الفوائد ودرر القلائد)، كتاب (إنقاذ البشر من الجبر والقدر)، (تفسير القرآن)، (الشهاب في الشيب والشباب)، (طيف الخيال)، ديوان شعره، وغير ذلك. أما مصنفاته في الفقه فمعظمها في الفقه الشيعي. توفي عن 81 عاما.

(5) لسب: لسع. وتقال للبعوض أيضا ولشتيمة اللسان.

(6) يرد عند ابن خلكان (وفيات الأعيان): "قال: ونقلت أيضاً من خط ابن بطلان أن صاعداً الطبيب عالج الأجل المرتضى رضي الله عنه من لسب عقرب بأن ضمده بكافور، فسكن عنه الألم في الحال" والحكاية نفسها لدى الصفدي.

فإجلالــــــــــكَ أنــــــــــسانيــــ ــــــــه يـــــا غايـــــة آمــــالي"[1].

ابن خلكان (وفيات الأعيان): "قال ابن بطلان: أسكت الوزير ابن بقية، وقد حضر الأمير عز الدولة بختيار والأطباء مجمعون على موته، فقال أبو الحسن: أيها الأمير، إذا كان قد مات، ما يضرُّ فصده، ففصده فرشح منه دمٌ يسيرٌ، ثم لم يزل يقوى إلى أن صار يجري فأفاق الوزير، فلما أن خلوتُ به، سألته فقال: عادة الوزير أن يستفرغ الدم كل ربيع من عروق المعدة، وفي هذا الفصل انقطع جريانه، فلما فصدته ثابَت القوَّة من خناقها. ولما دخل عضد الدولة[2] بغداد، دخل عليه أبو الحسن وغيرهَ من الأطباء قال: نحن في عافية ولا حاجة بنا إليهم، فقال سنان[3]: موضع صناعتنا حفظُ الصحة، لا مداواة المرض، والملك أحوج الناس إلى ذلك. فقال عضد الدولة: صدقتَ، فصارا ينوبان مع أطبائه، فلما خرجا، قال سنان نحن شيخا بغداد ونترك هذا الأسد يفترسنا. وكان إنسان يقلي الكبود إذا اجتازا عليه دعا لهما وقام قائماً، فلما اجتازا عليه لم يجداه، فسألا عنه فقيل مات، فمضيا إليه وأحضرا له فاصداً فصدَهُ فصدةً واسعة فخرج منه دمٌ غليظٌ، وكلما خرج الدم خفّ عنه حتى تكلم ورجع إلى حانوته في اليوم الثالث، وسئلا عن ذلك فقالا: كان يأكل من الكبود التي يقليها وبدنه يمتلئ من الدم الغليظ حتى إذا

(1) والقصة نفسها يوردها الصفدي في (الوافي بالوفيات): "وذكر ابن بطلان في كتاب دعوة الأطباء أن الوزير لما بلغه أن إسحاق استعمل دواء مسهلاً فأحبّ مداعبته وكتب إليه...الخ".

(2) عضد الدولة البويهي: هو فنا خسرو بن الحسن (ركن الدولة) بن بويه. أبو شجاع، عضد الدولة، تاج الملة. تولى سلطنة فارس بعد وفاة عمه علي (عماد الدولة) ، ثم حارب ابن عمه عز الدولة في معركة قتل فيها عز الدولة وملك بغداد والموصل وبلاد الجزيرة وخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية وتوجه وعقد له لواءين بيده. أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وكان يلقب (شاهنشاه) أي ملك الملوك، وهو أول من لقب بهذا اللقب. كان جبارا عاتيا عسوفا، وإذا غضب على أحد أمر بتغريقه، كما فعل بجميلة بنت ناصر الدولة الحمداني سنة 371هـ (سترد ترجمتها). أو كان يأمر أن يطرح تحت أقدام الفيلة فتتخبطه حتى يموت كما فعل بالوزير ابن بقية سنة 367هـ. لكنه كان أديباً عالماً بالعربية، ينظم الشعر. كان شيعياً. كان كثير العمران، أنشأ في بغداد البيمارستان العضدي وعمر القناطر والجسور، وبنى سورا حول مدينة الرسول. كان دخله في العام ثلاثمائة ألف ألف وعشرون ألف ألف درهم (أي 320 مليون) وجدد مكوسا ومظالم، وأنفق في بناء داره وإنشاء بستان فيها عشرة ملايين درهم. توفي في بغداد ودفن في النجف وكان عمره حين وفاته 48 سنة وكانت مدة ولايته خمس سنوات ونصف

(3) الطبيب المؤرخ سنان بن ثابت الذي أقام مارستاناً يقع في سوق يحيى على دجلة. وهو سنان بن ثابت بن قرة الحراني. أبو سعيد. صابئيّ أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ولم يسلم أحد من ولده ولا أهل بيته. طبيب عالم، أصله من حران ومنشؤه ببغداد. كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي وقد جعله رئيسا للأطباء وكان منهم ببغداد 860 طبيبا، ولم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب إلا بعد أن يمتحنه سنان، من دون الذين كانوا ذوي شهرة وتقدم في الطب، فإنه لم يمتحنهم، وحدد لكل من يمتحنه ما يصلح أن يتعاطاه في التطبيب. ويرجع إليه الفضل في إنشاء البيمارستانات السيّارة والزيارات الطبية، وذلك بأن يذهب الأطباء ومعهم الأغذية والأدوية لزيارة السجون أو لتمريض أهل النواحي النائية والاهتمام بصحتهم. أشار على الخليفة المقتدر أن يتخذ بيمارستانا ينسب إليه فاتخذ بباب الشام بيمارستان المقتدر، كما أشار على السيدة أم الخليفة ببناء بيمارستان لها، فبني على دجلة وعرف باسم بيمارستان السيدة. من تصانيفه: كتابه (التاجي) وهو عدة أجزاء في مفاخر الديلم وأنسابهم، وقيل صنعه لعضد الدولة البويهي وترجم إلى العربية، وله كتاب نواميس هرمس، والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئون. وقد أصلح كتاب أفلاطون في الأصول الهندسية وزاد فيه كثيرا، ورسالة في أخبار آبائه وأجداده، وغير ذلك.

فاض من العروق إلى الأوعية، غمر الحرارة الغريزية وخنقها كما يخنق الزيت الكثير الفتيلة، فلما نقص الدم خف عن القوة الحمل الثقيل، وانتشرت الحرارة، والصحيح أن الذي جرى له ذلك، وحكاية الوزير أيضاً، إنما هو أبو الحسن ثابت بن قرة"[1].

ابن بطلان وأبو العلاء المعرّي

ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب): "ذكر الوزير القاضي الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني في كتاب (إنباء الأنباه في أنباء النحاه) قال: قرأت بخط المفضل بن مواهب بن أسد الفارزي الحلبي قال: حدثني الشيخ أبو عبد الله الأصبهاني قال: لما حضرت الشيخ أبا العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي[2] [وهو أبو العلاء المعري] الوفاة أتاه القاضي الأجل أبو محمد عبد الله التنوخي بقدح شراب، فامتنع من شربه، فحلف القاضي أيماناً مؤكدة لا بد من أن يشرب ذلك القدح، وكان سكنجبين[3]، فقال أبو العلاء مجيباً له عن يمينه:

(الوافر)

أعبــــدَ الله خــــيرٌ مــــن حيــــاتي ... وطــــول ذمائهــــا مــــوتٌ صــــريحُ

تعلّلــــني لتــــشفيني فــــذرني ... لعلــــي أســــتريحُ وتــــستريحُ

وكان مرضه ثلاثة أيام ومات في اليوم الرابع ولم يكن عنده غير بني عمه، فقال لهم في اليوم الثالث: اكتبوا. فتناولوا الدوى[4] والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال القاضي أبو محمد: أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت. فمات

(1) الحكاية نفسها في (الوافي بالوفيات) للصفدي وتبتدئ كذلك بــ: "قال ابن بطلان".

(2) هو أبو العلاء المعري (363-449هــ=973-1057م): أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي المعري: شاعر وفيلسوف. ولد ومات في معرة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة 398 هــ فأقام بها سنة وسبعة أشهر. ولما مات وقف على قبره 84 شاعراً يرثونه. وكان يلعب بالشطرنج والنرد. وإذا أراد التأليف أملى على كاتبه علي بن عبد الله بن أبي هاشم. وشعره وهو ديوان حكمته وفلسفته، فثلاثة أقسام: (لزوم ما لا يلزم) ويعرف باللزوميات، و(سقط الزند) و(ضوء السقط)، وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية، وأما كتبه فكثيرة.

(3) سكنجبين: Oxymel شراب يتخذ من الخل والعسل.

(4) الدوى: جمع دواة.

في غداة غد. وإنما أخذ القاضي هذه المعرفة من ابن بطلان، لأن ابن بطلان كان يدخل على أبي العلاء، ويعرف ذكاءه وفضله، فقيل له قبل موته بأيام قلائل: إنه أملى شيئا فغلط فيه، فقال ابن بطلان: مات أبو العلاء، فقيل: وكيف عرفت ذلك فقال: هذا رجل فطن ذكي ولم تجر عادته بأن يستمر عليه سوء ولا غلط، فلما أخبرتموني بأنه غلط علمت أن عقله قد نقص، وفكره قد انفسد، وآلاته قد اضطربت، فحكمت عليه عند ذلك بالموت والله أعلم".

معارف ابن بطلان العلمية

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): " قال المختار بن حسن بن بطلان إن الإسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس[1] الستة عشر وفسّروها، كانوا سبعة وهم: إصطفن[2] وجاسيوس[3] وثاودوسيوس[4] وأكيلاوس وأنقيلاوس وفلاذيوس ويحيى النحوي[5]؛ وكانوا على مذهب المسيح، وقيل إن أنقيلاوس الإسكندراني هو كان المقدَّم على سائر الإسكندرانيين، وإنه هو الذي رتب الكتب الستة عشر لجالينوس. وقال [أي ابن بطلان]: وكان هؤلاء الإسكندرانيون يقتصرون على قراءة الكتب الستة عشر لجالينوس في موضع تعليم الطب بالإسكندرية، وكانوا يقرأونها على الترتيب، ويجتمعون في كل يوم على قراءة شيء منها وتفهمه، ثم صرفوها إلى الجمل والجوامع ليسهل حفظهم لها ومعرفتهم إياها، ثم انفرد كل واحد منهم بتفسير الستة عشر، أجود ما وجدت من ذلك تفسير جاسيوس للستة عشر، فإنه أبان فيها عن فضل ودارية. وعمر من هؤلاء الإسكندرانيين يحيى النحوي الإسكندراني الأسكلاني حتى لحق أوائل الإسلام".

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عن قصيدة ينقلها في كتابه: "أقول [أي ابن أبي أصيبعة]: وهذه القصيدة تنسب أيضاً إلى الشيخ الرئيس ابن سينا، وتنسب إلى المختار بن الحسن بن بطلان، والصحيح أنها لمحمد بن المحلي لما

(1) جالينوس واسمه الأول كلاوديوس هو Claudius Galienus. وبالفرنسية Claude Galien. وبالانكليزية Galen of Pergamum. ترجمته في مكان آخر.

(2) STEPHANUS.

(3) ربما Cassius.

(4) Theodosius.

(5) ترد ترجمته في هوامش متن الرحلة.

قدمته من إنشاد سديد الدين محمود بن عمر لي مما أنشده مؤيد الدين بن العنتري لوالده مما سمعه منه..".

ابن العبري (تاريخ مختصر الدول): "وأما هبة الله بن الحسين بن علي الحكيم الطبيب الأصفهاني فكان من محاسن الدهر، وأفاضل العصر، وفيه قيل أن عند طبه لا يشترى بقراط بقيراط، ولا يستقيم سقراط على الصراط، ولحق حق ابن بطلان بالبطلان".

القفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): "قال المختار بن عبدون بن بطلان الطبيب النصراني البغدادي أن برقلس هَذَا كَانَ من أهل اللاذقية وابن بطلان كثير المطالعة لعلوم الأوائل وكتبهم وأخبارهم غير متهّم فيما ينقله" (...) "وَكَانَ نيقولاؤس هَذَا من أهل اللاذقية بهَا ولد وبها قومه ومنها أصله ذكر ذَلِكَ ابن بطلان وَكَانَ كثير الاطلاع عالماً بماَ ينقله".

شاكر لعيبي/ أبو ظبي 1-1-2004

مسار الرحلة

- بغداد
- الأنبار
- (الجزيرة)
- (الموصل)
- (ديار بكر)
- الرحبة (وهي متوسطة، كما يقول ابن بُطلان، بين الأنبار وحلب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة)
- حلب
- (يافا– مصر ثم العودة ثانية كما يبدو إلى الشام)
- اللاذقية
- أنطاكية
- عم: بلدة في الروم
- القسطنطينية
- العودة إلى أنطاكية والترهّب والموت فيها

متن رحلة ابن بُطْلان

نص الرحلة عند القفطي

القفطي[1] (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)[2]: "المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم أبو الحسن الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان، طبيبٌ منطقيٌّ نصرانيٌّ من أهل بغداد. قرأ عَلَى علماء زمانه من نصارى الكرخ، وَكَانَ مشوه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله له، وفَضُلَ فِي علم الأوائل، يرتزق بصناعة الطب.

وخرج عن بغداد إِلَى الجزيرة والموصل وديار بكر[3]. ودخل حلب وأقام بِهَا مدة وَمَا حمدها، وخرج عنها إِلَى مصر، وأقام بهَا مدة قريبة، واجتمع فيهَا بابن رضوان المصري الفيلسوف[4] فِي وقته، وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة فِي المناظرة. وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً عَلَى ابن رضوان، وورد أنطاكية راجعاً عن مصر

(1) هو علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد القفطي. أصل عائلته من الكوفة وانتقلت إلى مصر وأقامت بقفط من بلاد الصعيد (بين قنا والأقصر) وبها ولد جمال الدين سنة 568هــ وقد رحل به أبوه وهو طفل وأسكنه القاهرة وفيها درس علوم القرآن والحديث والأدب. وفي سنة 583هــ ارتحل به أبوه إلى القدس وأقام فيها مع أبيه إلى سنة 598هــ ثم استوطن حلب وخدم الملك الظاهر غياث الدين غازي، صاحب حلب وخدم من بعده ابنه الملك العزيز إلى عام 628هــ ثم استعفي ولزم داره وأخذ في التأليف. كان عالما بالقرآن والحديث واللغة والأصول والنحو كما كان عالما بالمنطق والفلك والهندسة والتاريخ وكان ناظما، وله تصانيف كثيرة منها: (إنباء الرواة على إنباه النحاة) و(أخبار العلماء بأخبار الحكماء) و(أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين) و(تاريخ اليمن) و(الاستئناس في أخبار آل مرداس) و(الدر الثمين في أخبار المتيمين) و(تاريخ محمود بن سبكتكين) و(تاريخ السلجوقية) و(أخبار المغرب) وكتاب (من ألوت الأيام فرفعته ثم ألوت عليه فوضعته) و(أخبار المصنفين وما صنفوه) و(الكلام على الموطأ) و(الكلام على صحيح البخاري). كان شغفا بالكتب وقد جمع منها ما لا يحصى ولما مات أوصى بها للملك الناصر (الثاني) صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز. هو أخو المؤيد القفطي. توفي جمال الدين بحلب عن 78 عاما.

(2) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي، القاهرة، الصفحات 192-195

(3) ديار بكر: "هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هِنب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وحدها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحيزان وحيني وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل" عن ياقوت. وتقع اليوم في تركيا.

(4) علي بن رضوان بن علي بن جعفر-453هــ-1061م، أبو الحسن: طبيب، رياضي، من العلماء. من أهل مصر. كان أبوه فراناً. وارتقى هو بعلمه، فاتصل بالحاكم، فجلعه رأساً للأطباء. قال ابن تغري بردي: هو من كبار الفلاسفة في الإسلام. له تصانيف كثيرة، فيها المترجم والموضوع، منها (حل شكوك الرازي على كتب جالينوس) و(المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع) و(التوسط بين أرسطو وخصومه) و(كفاية الطبيب- خ) و(دفع مضار الأبدان- ط) رسالة، و(النافع-في الطب)، و(أصول الطب).

فأقام بهَا، وَقَدْ سئم كثرة الأسفار، وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار[1]، فغلب علَى خاطره الانقطاع، فنزل بعض أديرة أنطاكية، وترهب وانقطع إِلَى العبادة إِلَى أن توفي بهَا فِي شهور سنة أربع وأربعين وأربعمائة[2].

شاهدتُ فِي "كتاب الربيع" لمحمد بن هلال بن المحسِّن[3] نسخة سفرته إلى الرئيس هلال بن المحسِّن بن إبراهيم[4] نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا لما أعتقده من خدمة سيدنا الأجلّ، أطالُ اللهُ بقاه، وكبتَ أعداءَه دانياً وقاصياً، وافترضه من طاعته مُقيماً وظاعناً، أضمرتُ عند وداعي حضرته العالية، وَقَدْ ودَّعتُ منها الفضل السَّؤدد، والمجد والفخر والمحتد، أن أتقرّبَ إليها، وأجدّد ذكري عندها بالمُطالعة مما استطرفه من أخبار البلاد التي أطرقها، وأستغربُه من غرائب الأصقاع الَّتي أَسْلُكُها خدمةً للكتاب الذي هو تاريخ المحاسن والمَفاخر، وديوان المعاني والمآثر، ليودعه، أدام الله تمكينه، منها مَا يراه، ويلحق مَا يستوقفه ويرضاه، وعلى ذكره فما رأيتُ أحداً بمصر وهذه الأعمال أكثر من الراغب فيه، وكل رئيس فِي هَذه الديار متشوّقٌ إِلَيْه، متشوّفٌ لوصوله، مترَقبٌ متوقِّعٌ، وَلَو وصلتْ منه نَسخةٌ بَلَغ الجالب لَهَا أمنيَته فِي ربحها ونفعها، وإلى الله تعالى أرغب فِي نشر فضيلته الباهرة، ومحاسنه الزاهرة بجوده.

---

(1) صبيّ غُمْرٌ وغَمْرٌ وغَمَرٌ وغَمِرٌ ومُغَمَّر: لم يُجرِّب الأُمور بيّنُ الغمارة من قوم أَغْمارٍ، وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يُجَرِّب الأُمور؛ ويُقْتاس من ذلك لكل من لا غَناء عنده ولا رَأْي (اللسان).

(2) وهو ما يعادل سنة 1053 الميلادية، بفارق سنوات مع تاريخ وفاته في المصادر الأخرى.

(3) محمد بن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ المشهور بغرس النعمة: 480هـ –1087م، أبو الحسن: مؤرخ أديب من أهل بغداد. كان محترماً عند الخلفاء والملوك. له (عيون التواريخ) جعله ذيلا لتاريخ أبيه وكتاب أبيه ذيل لتاريخ ثابت ابن سنان، وهذا ذيل لتاريخ محمد بن جرير الطبري؛ وإن تاريخ ثابت الطبري قد انتهى إلى سنة 302 وتاريخ ثابت إلى 360 وتاريخ هلال إلى 448 وتاريخ غرس النعمة هذا إلى 479. وله أيضاً كتاب (الربيع) وكتاب (الهفوات). قال ابن قاضي شهبة: وقد انشأ داراً ببغداد ووقف فيها أربعة آلاف مجلد في فنون العلم الهِلالي.

(4) هلال بن المحسِّن بن إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ الحراني، أبو الحسين: أديب من صابئة بغداد التي وُلد بها. قرأ على أبي سعيد السيرافي. واطلع ياقوت على "مجموع" بخطه، جمعه لولده هلال. وفي ترجمته الموسَّعة في مقدمة تحقيق كتابه (رسوم دار الخلافة) يذكر ميخائيل عواد أنه ولد في 23 حزيران سنة 970 الميلادية وإنه أسلم في آخر عمره في حدود سنة 403 الهجرية (1013م) وتوفي سنة 448 هجرية (1057م) عن عمر يناهز 89 عاماً

وكنتُ خرجتُ من بغدادَ، وبدأتُ بلقاء مشايخ البلاد وخواصها، واستملاء[1] مَا عندهم من آثارها وعجائبها، فذُكرَ لي أخبارٌ مُسْتطرَفةٌ وعجائب غريبةٌ وأقطاعٌ[2] من الشعر رائقة. ولضيق الوقتَ وسرعة الرسول أضربتُ[3] عن أكثره، واقتصرتُ على أقَله.

وكنتُ خرجتُ، عَلَى اسم الله تعالى وبركته، مستهلّ شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة[4] مُصَعِّداً[5] في نهر عيسى[6] عَلَى الأنبار، ووصلتُ إِلَى الرحبة بعد تسع عشرة رحلة[7]، وهي مدينة طيّبة وفيها من أنواع الفواكه مَا لاَ يُحصى، وبها تسعة عشر نوعاً من الأعناب، وهي متوسطة بَيْنَ الأنبار وحلب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة، وبينها وبين قصر الرصافة[8] مسيرة أربعة أيام.

---

(1) استملاء المستملي: توصل من يسمع لفظ المملي على بعد منه،إلى تفهمه وتحققه بإبلاغ المستملي (مقدمة ابن الصلاح). والعبارة تعني الأخذ والكتابة عن المشايخ فيما يتعلق ببلدانهم.

(2) أقطاع (بفتح الهمزة): أي قطع، يُقال ثوب أقطاع: مقطوع قطعاً. وكَذلِكَ حَبْلٌ أَقْطَاعٌ، أي: مَقْطُوعٌ. والمقصود قِطَع رائقة.

(3) أضربتُ: طويتُ صفحاً وعزفتُ.

(4) سنة 440 الهجرية تُعادل سنة 1049 الميلادية.

(5) صعَّد في الجبل وعليه وعلى الدّرّجة: رقيَ. ومصعداً في النهر صاعداً فيه.

(6) نهر عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس: وهي كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد يعرف بهذا الاسم ومأخذه من الفرات عند قنطرة دمما ثم يمر فيسقي طسوج فيروز سابور حتى ينتهي إلى المحول، تتفرع منه أنهار تتخرق مدينة السلام، ثم يمر بالياسرية قنطرة الرومية وقنطرة الزياتين وقنطرة الأشنان وقنطرة الشوك وقنطرة الرمان وقنطرة المغيض عند الأرحاء قنطرة البستان ثم قنطرة المعبدي ثم قنطرة بني زريق. يصب في دجلة عند قصر عيسى بن علي وكان عند كل قنطرة سوق يعرف بها والآن ليس من ذلك كله غير قنطرة الزيّاتين وقنطرة البستان وتعرف بقنطرة المحدثين. وهو نهر على متنزهات وبساتين كثيرة. عن ياقوت.

(7) الرحلة: ارْتَحَلَ الْقَوْمُ عَنِ الْمَكانِ، ارتِحالاً: إذا انْتَقَلُوا، كتَرَحَّلُوا، والاسْمُ الرِّحْلَةُ، بالضَّمِّ، والكسرِ. والرِّحْلَةُ بالكسرِ: الارتِحالُ لِلْمَسِيرِ، يُقال: دَنَتْ رِحْلَتُنا، ومنهُ قَوْلُه تعالى: "رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْف". وبالضَّمِّ: الوَجْهُ الذي تَقْصِدُهُ، وتُرِيدُهُ، وتَأْخُذُ فيه، يُقالُ: أَنْتُم رُحْلَتِي، أي الذينَ أَرْتَحِلُ إلَيْهم. والرُّحْلَةُ أيضاً: السَّفْرَةُ الْواحِدَةُ (عن: تاج العروس). والمقصود هنا بالرحلة: المرحلة التي يقطعها المسافر.

(8) الرصافة (سرجيوبوليس): تقع على عقدة تقاطع طرق القوافل بين تدمر جنوباً، درّة في الجنوب الشرقي وحلب غرباً. لا يوجد في الرصافة ينابيع أو مياه جارية؛ لذا تعتمد على مستودعات حبس مياه الشتاء والأمطار. يحيط بها سور ضخم مؤلف من قطع كبيرة من الحجارة. وثمة ثلاثة أبواب تسمح بالدخول إلى المكان. المدخل الرئيسي مكرّس للقوافل والبابان الجانبيان للمشاة والدواب. دعيت الرصافة بعد الفترة الرومانية بـــ "سرجيوبوليس". واعتبرت ملحقاً هاماً لتدمر في القرون المسيحية الأولى. في القرن الرابع الميلادي غدت الرصافة مدينة يؤمها الحجاج للتبرك بالقديس سرجيوس. كان القديس سرجيوس والقديس باخوس جنديين سوريين وصديقين استشهدا في سبيل إيمانهما الديني حوالي سنة 305م. لم يبق من المدينة اليوم سوى مبنيين أو ثلاثة يمكن تمييزها. يقود الشارع الرئيسي في المدينة إلى المبنى الأول وهو كنيسة "الشهادة" حيث كان يُحتفظ بأجساد القديس سرجيوس ورفقته باخوس وجوليا. وعلى مبعدة مائة متر شرقي الكنيسة توجد واحدة أخرى مشابهة معمارياً تحمل اسم القديس سرجيوس. وإلى الجهة الشمالية، ثمة قاعة مستطيلة الشكل، تحولتْ مسجداً في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلاديين. وهناك كتابات يونانية وعربية تبرهن أن الديانتين، المسيحية والإسلامية، قد تعايشتا في هذه المنطقة. إلى الجهة الجنوبية الشرقية توجد كذلك فتحة في السور تقود إلى منطقة بنى عليها الخليفة هشام قصره المعروف في المصادر العربية بقصر هشام. خلف كنيسة الشهادة ثمة غرف عدة في بناء ذي باحة داخلية مركزية استخدمت لجمع المياه، لكنها تحوّلت بمرور الزمن إلى فندق للحجّاج.

ورحلنا من الرصافة إِلَى حلب فِي أربع رحلات[1]، وهي بلدٌ بالحَجر الأبيض، فيه ستة أبواب، وَفِي جانب السور قلعة فِي أعلاها مسجد وكنيستان[2]، وَفِي إحداهُمَا مكان المذبح الَّذي كَانَ قرب عَلَيْه إبراهيم عَلَيْه السلام، وَفِي أسفل القلعة مغارة كَانَ يخبأ فيهَا غنَمه وإذا حلبها أضاف[3] بلبنها النَاس، فكانوا يقولون حلب أم لا؟ ويسأل بعضهم بعضاً عن ذَلكَ، فسميت حلب.

وفي البلد جامعٌ وستُّ بيع[4] وبيمارستان[5] صغير. والفقهاءُ يفتون على مذهب الإمامية[6]، وشُرْبُ أهلِ البلد من صهاريج، وعلى بابه نهرٌ يعرف بقويق[7] يمدّ فِي الشتاء وينضب فِي الصيف، وفي وسط البلد دَارُ علوة[8] صاحبة البحتري[9]، وهو قليل الفاكهة والبقول والنبيذ إِلاَّ مَا يأتيه من الروم، وما بحلب موضع خراب.

---

(1) رحلات: انظر أعلاه، والمقصود غالباً توقفات أو وجهات تقصدها أو مراحل تقطعها.

(2) الكنيستان هما كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس (انظر أعلاه هامشنا عن الرصافة).

(3) أضاف: دعا الناس ضيوفاً.

(4) البيعة: معبد النصارى.

(5) بيمارستان: مستشفى.

(6) مذهب الإمامية: "الإمامية هم القائلون بإمامة علي بعد النبيّ: نصاً ظاهراً، وتعييناً صادقاً، من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين. قالوا: وما كان في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام؛ حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة؛ فإنه إنما بعث: لرفع الخلاف، وتقرير الوفاق؛ فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً: يرى كل واحد منهم رأياً، ويسلك كل منهم طريقاً، لا يوافقه في ذلك غيره؛ بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع إليهن وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه. وقد عين علياً رضي الله عنه؛ في مواضع: تعريضاً؛ وفي مواضع: تصريحاً" (الملل والنحل للشهرستاني).

(7) "قُوَيق: بضم أوله وفتح ثانيه كأنه تصغير قاق وهو صوت الضفادع، ولذلك قال شاعرهم:

إذا ما الضفــادع نــادَيْنَــه   قُوَيق قويقٌ أبى أن يجيبا

تغوصُ البعوضة في قعره   وتأبى قوائمها أن تَغــيبــا

وهو نهر مدينة حلب مخرجه من قرية تدعى سبتات، وسألت عنها بحلب، فقالوا: لا نعرف هذا الاسم إنما مخرجه من شنَاذَر قرية على ستة أميال من دَابَق ثم يمرُ في رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب ثم يمتد إلى قنسرين اثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يغيض في أجمة هناك، فمن مخرجه إلى مغيضه اثنان وأربعون ميلاً، وماؤه أعذب ماءٍ وأصحه، إلا أنه في الصيف ينشف فلا يبقى إلا نزور قليلة، وأما في الشتاءِ فهو حسن المنظر طيب المخبر، وقد وصفه شعراءُ حلب بما ألحقوه بنهر الكوثر، ومن أمثال عوام بغداد "يفرح بفلس مطلي من لم ير ديناراً". عن ياقوت (معجم البلدان).

(8) دار علوة: وعلوة هذه هي حبيبة البحتري التي كان يتغزل بها. يذكر ياقوت أن عيسى بن سعمان الحلبي قال يذكر تلك الدار:

يا دار علوة ما جيدِي بمنــعــطــف   إلَى سواكِ ولا قلبي بمــنــجــذب

ويا قرَى الشام من لَيْلُونَ لا بَخَلَــتْ   على بلادكمُ هَطــالَةُ الــســحُــبِ

ما مرّ برقُك مجتازاً على بَصَــري   إلا وذكرني الدارين مــن حَــلَــبِ

وقد تزوج الشاعر الأحوص علوة الكراعة التي كان يشبب بها البحتري، فهجاه البحتري.

(9) البُحْتُري (206-284ه 821-898م) الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري: شاعر كبير، يقال لشعره "سلاسل الذهب". وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة اشعر؟ فقال: المتنبي و أبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري. ولد بمنبج (بين حلب و الفرات) ورحل إلى العراق، فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، ثم عاد إلى الشام، وتوفي بمنبج. له "ديوان شعر-ط" و كتاب "الحماسة -ط" على مثال حماسة أبي تمام. وللآمدي "الموازنة بين أبي تمام و البحتري -ط" و للمعري "عبث الوليد -ط" في شرح ديوانه و نقده.

ومنه خرجنا من حلب طالبين أنطاكية وبين حلب وبينها يوم وليلة. فبتنا في بلدة للروم تعرف بـــ (عمّ)[1] فيهَا عين جارية يصاد منها السمك، ويدور عَلَيْهَا رحا، وفيها من الخنازير والنساء العواهر والزنا والخمور أمر عظيم، وفيها أربع كنائس وجامع يؤذن فيهَا سراً.

والمسافة الَّتِي بَيْنَ حلب وأنطاكية أرض مَا فيهَا خراب أصلاً إلاَّ أرضٌ زرعٌ للحنطة والشعير بجنب شجر الزيتون وقراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة.

وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل[2]، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عَلَيْهَا بنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك، فيضمنون حراسة البلد سنة، ويُستبدَلُ بهم في الثانية. وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد الجبل إِلَى قُلته[3]، ويستتم[4] دائرة. وَفي رأس الجبل داخل السور قلعةٌ تَبيْنُ[5]، لبُعدُها من البلد، صغيرةٌ. وهذا الجبل يستر عنها الشمس، فلا تطلع عَلَيْهَا إلاَّ في الساعة الثانية. وللسُّوْر المحيط بهَا دونَ الجَبَل خمسةُ أبواب، وَفي وسطها قلعةَ القسياني[6]، وَكَانَتْ دار قسيان[7] الملك الَّذي أحيا ولدَهُ بطرسُ[8] رَئيس الحواريين[1] وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون،

(1) "عمُّ: بكسر أوله وتشديد ثانيه ولا أراها إلا عجمية لا أصل لها في العربية، وهي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية وكل من بها اليوم نَصارَى، وقد نسب إليها قديماً قوم من أهل العلم والحديث، منهم بشر بن علي العِميُّ الأنطاكي روى عن عبد اللهَ بن نصر الأنطاكي روى عنه الطبراني" (ياقوت).

(2) الفصِيل: حائط صغير أقلّ من الحِصن والسور (المعجم الوسيط).

(3) قُلّة الجبل: أعلاه ومنتهاه.

(4) يستتم: يكتمل.

(5) قلعة تبين أي تبدو للنظر.

(6) بصدد حديثه عن كنيسة القسيان يذكر المسعودي: "وأول يوم منه القلندس، فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون في ليلته النيران، ويظهرون الأفراح، لا سيما بمدينة إنطاكية، وما يكون في كنيسة القسيان بها من القداس عندهم، وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها، وما يظهر أهل دين النصرانية بإنطاكية من الفرح والسرور وإيقاد النيران والمآكل والمشارب، ويساعدهم على ذلك عوام الناس وكثير من خواصهم، وذلك أن مدينة إنطاكية بها كرسي البطرك المعظم عندهم في ديانتهم.." (مروج الذهب: المسعودي).

(7) قُسيان: لم أستطع التوصل إلى معرفة هذا الملك رغم الجهود التي بذلتها.

(8) بطرس حسب المسعودي: "وممن كان في الفترة: حبيب النجار، وكان يسكن أنطاكية من أرض الشام وكان بها ملك متجبر يعبد التماثيل والصُّوَر، فسار إليه اثنان من تلامذة المسيح، فدعوّاه إلى اللّه عز وجل، فحبسهما وضربهما، فعززهما اللّه بثالث، وقد تنوزع فيه؛ فذهب كثير من الناس إلى أنه بطرس، وهذا اسمه بالرومية، واسمه بالعربية سمعان، وبالسريانية شمعون وهو شمعون الصفاء، وذكر كثير من الناس وإليه ذهب سائر فرق النصرانية أن الثالث المعزَّزَ به هو بولس، وأن الاثنين المتقَدمين اللذين أودعا الحبس توما وبطرس، فكان لهم مع ذلك الملك خطب عظيم طويل فيما أظهروا من الإعجاز والأعاجيب والبراهين: من إبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الميت.." (مروج الذهب). وفي المصادر الكنسية: "بطرس هو سمعان بن يونا وهو أخو أندراوس. ولد في بيت صيدا في الجليل وكانت مهنته صيد السمك. ولما جاء به أخوه أندراوس إلى يسوع ابتدره الربّ قائلاً: "أنتَ تدعى، من الآن، كيفَا أي الصخرة". ثم دعاه يسوع ثانية وأخاه قائلاً: اتبعاني

وعليه كنيسة عَلَى أساطين[2]، ودائر الهيكل أروقة يجلس فيهَا القضاة للحكومة ومعلمو النحو واللغة، وَعَلَى أحد أبواب هَذه الكنيسة فنجَان[3] الساعات يعمل ليلاً ونهاراً، دائماً اثني عشر ساعة، وهو من عجائب الدنيا[4]، وَفي أعلاه خمس طبقات، في الخامسة منها حماماتٌ وبساتين ومقاصير حسنة، وتخرّ منها المياه. وهناكَ من الكنائس مَا لا يحدّ كثرة، كلها معمولة بالفصّ المذهب والزجاج الملوَّن والبلاط المجزَّع.

وفي البلد بيمارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه.

وفي المدينة من الحمامات مَا لا يوجد مثله في مدينة من اللَذَاذَة والطِيْبة فإن وقودها من الآس وماؤها سيح[5].

وفي ظاهر البلد نهرٌ يعرف بالمقلوب[1] يأخذ من الجنوب إلَى الشمال وهو مثل نهر عيسى. وخارج البلد دير سمعان[2]، وهو مثل نصف دار الخليفة، يُضَاف[3]

فأجعلكما صيّادي الناس. وللوقت تركا الشباك وتبعاه. وبعد هذه الدعوة الثانية لازم بطرس يسوع ولم يفارقه إلى النهاية. ومَن يتصفّح النصوص الواردة في العهد الجديد، يتَضح له جلياً أن بطرس هو أول من تبع المسيح واعترف به. وكان أميناً لأسراره وقد رافقه في جميع مراحل حياته. وقد جعله الربّ زعيماً للرسل ورئيساً على كنيسته. وبدأ غير هيّاب، بالتبشير في السامرة، وطاف مدن سواحل فلسطين ولبنان، وعمّد كرنيليوس القائد برؤيا عجيبة مؤثرة جداً. وهو من خرج من أورشليم، قبل الرسل. وبعد صعود الربّ، بشّر بطرس في فلسطين وفينيقية وآسية خمس سنوات، ثم أقام كرسية سنة 44 للميلاد. ثم عاد إلى أورشليم في السنة نفسها، فألقاه هيرودس أغريبا في السجن وخلّصه ملاك الربّ. فاستأنفَ التبشير، وعقد المجمع الأول مع الرسل وكتب رسالته الأولى. ثم رجع إلى روما حيث اسقط سيمون الساحر من الجو وأخزاه هو وخداعه، وكان سيمون عزيزاً على نيرون الملك. غضب الملك على بطرس، فأخذ يترقّبه وبوحي إلهي عرف بدنو اجله، فكتب رسالته الثانية. وما لبث أن قبض نيرون عليه وسجنه، ثم أمر بصلبه، ولعمق تواضعه، أبى أن يُصلب إلاّ منكّساً".

(1) الحواريون: هم تلاميذ السيد المسيح ورسله الأوائل، الذين دعاهم واختارهم لاتّباعه، فلبّوا الدعوة ورافقوه طيلة حياته. ثم تابعوا رسالته بعد موته، فجالوا مبشّرين بالإنجيل. وكان ذلك بناء على وصية السيد المسيح نفسه: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يُدن" (مرقس 16:15–16). لقد سمّوا بالحواريين، نظراً لصفاء قلوبهم ونقاء سريرتهم. والمعروف أن كلمة حواري تعني باللغة العربية "الناصح" أو "المرشد" أو "أبيض القلب".

(2) أساطين جمع أسطوانة وهي العمود الأفقي الذي يرفع بناءً، مصنوعة من الحجر أو غيره.

(3) أظن أن في الأمر تصحيفاً غاب عن محقق كتاب القفطي (أخبار العلماء بأخيار الحكماء) لأن الفنجان هو الظَّرْف المُعَدّ لشُرْبِ القَهْوَةِ وغيرِهَا "فِلْجَان" والعَامّة تقول: فِنْجَان، وفِنْجَال، ولا يصحّان (تاج العروس). ولا علاقة البتة للفنجان بما يصف ابن بطلان في النص. الكلمة السليمة هي (بنكام): ساعة رملية، وليس (فنجان) وهو ما سيرد في نقولات ابن العديم صحيحاً. و(منجانة) و(مكانة) هي الساعة في العامية المغربية، ويقول د. محمد الفاسي إن أصل الكلمة يوناني: Magganon (عن: الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجليزية) هامش 6. ويذكر الأب شيخو في عدد مجلة (المشرق) آنف الذكر: "فنجان: كلمة فارسية تعريب بنكان وهي الساعة الزوالية clépsydre ويقال في العربية بنكام".

(4) ومثل ذلك ما يذكره القزويني عن منارة القسطنطينية مستخدماً بدوره كلمة الفنجان بدل البنكام: "وبها فنجان الساعات: اتخذ فيه اثنا عشر باباً، لكل باب مصراع طوله شبر على عدد الساعات، كلما مرت ساعة من ساعات الليل أو النهار انفتح باب وخرج منه شخص، ولم يزل قائماً حتى تتم الساعة، فإذا تمت الساعة دخل ذلك الشخص ورد الباب، وانفتح باب آخر وخرج منه شخص آخر على هذا المثال" (آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني).

(5) السَّيْحُ: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأَرض، وفي التهذيب: الماء الظاهر على وجه الأَرض، وجمعُه سُيُوح. وقد ساحَ يَسيح سَيْحاً وسَيَحاناً إذا جرى على وجه الأَرض. وماءٌ سَيْحٌ وغَيْلٌ إذا جرى على وجه الأرض، وجمعه أَسْياح (لسان العرب).

فيهَا المجتازون، يقال إن دَخْلَهُ فِي السنة أربعمائة ألف دينار، ومنه يُصْعَدُ إِلَى جَبَلِ اَللكام[4]، وفِي هذا الجَبل من الدَيارات والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والأنهار الجارية والزُّهّاد والسُّيَّاح وضَرْب النواقيس فِي الأسحار وألحان الصلوات مَا يتصور معه الإنسان أنه فِي الجنة.

وفي أنطاكية شيخ يعرف بأبِي نصر بن العطّار[5]، قاضي القضاة فيهَا، لَهُ يد فِي العلوم، مليح الحديث والإفهام.

وخرجتُ من أنطاكية إِلَى اللاذقية وهي مدينةٌ يونانيةٌ، ولها ميناءٌ ومَلْعبٌ[6] وميدان للخيل[7] مدوَّر، وبها بيتٌ كَانَ للأصنام[8] وهو اليوم كنيسة، وَكَانَ فِي أول الإسلام مسجداً.

وهي راكبة البحر، وفيها قاضٍ للمسلمين وجامع يصلون فيه وآذان فِي أوقات الصلوات الخمس. وعادة الرّوم إِذَا سمعوا الآذان أن يضربَوا الناقوسَ، وقاضي المسلمين الَّذِي بِهَا من قِبَلِ الرّوْم.

---

(1) المقلوب هو نهر العاصي. قال الواقدي: "وسار خالد بن الوليد إلى شيزر ونزل على النهر المقلوب". ويذكر الإدريسي عن حمص: "ونهر الأرنط المسمى المقلوب يجري على بابها بمقدار رمية سهم أو أشف قليلاً ولهم عليه قرى متصلة وبساتين وأشجار وأنهار كثيرة" ويذكر في موقع آخر نهر: "المقلوب المسمى بالأرنط ومخرجه من أرض دمشق مما يلي الطريق طريق البريد فيمر بحمص ثم يتصل بمدينتي حماة وشيزر ويأتي أنطاكية من جنوبها ثم ينعطف مع الجنوب فيمر وهو يجري مع الجنوب فيصب بجنوب السويدية في البحر الرومي" (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي).

(2) دير سمعَان: يقال بكسر السين وفتحها: وهو دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور وعنده قبر عمر بن عبد العزيز، ودير سمعانَ أيضاً بنواحي حلب بين جبل بني عُلَيم والجبل الأعلى (ياقوت).

(3) يُضَاف أي يُستضاف.

(4) اللكام هو امتداد لجبل قبق حسب ياقوت و"قبْقٌ: بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره أيضاً قاف كلمة عجمية وهو: جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان وهو آخر حدود أرمينية. ويقال: إن طوله خمسمائة فرسخ وهو متصل ببلاد الروم إلى حدّ الخزَر واللان ويقال: إن هذا الجبل هو جبل العرج الذي بين مكة والمدينة يمتد إلى الشام حتى يتصل بلبنان من أرض حمص وسَنير من دمشق ويمضي فيتصل بجبال أنطاكية وسميساط ويسمى هناك اللُكام ثم يمتد بلى ملطية وشمشاط وقاليقلا إلى بحر الخزَر وفيه باب الأبواب وهناك يسمى القبق. ويقول أيضاً: " ولُبنان. جبل مطل على حمص يجيءُ من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحَمَل وما كان بالأردُنْ فهو جبل الجليل وبدمشق سنير، وبحلب وحماة، وحمص لبنان، ويتصل بإنطاكية والمصيصة فيسمَى هناك اللُكامَ ثم يمتد إلى ملطية وسُمَيسَاط وقاليقلا إلى بحر الخزَر فيسمى هناك القَبْق".

(5) لم أعثر على ترجمة له في المراجع التي بين يديَّ.

(6) مَلاعِبُ الصبيانِ والجواري في الدار من دِياراتِ العرب: حيث يَلْعَبُونَ، الواحدُ مَلْعَبٌ. لكنني أظن أن بطلان يقصد بالملعب في هذا الموضع، المسرحَ الأغريقي.

(7) ميدان للخيل اليوناني hippodrome: كان ملعب الخيل في أنطاكية (502 م طولاً على 75 م عرضا) مغطّى كلياً بالحجارة المقطّعة ومزيناً بأعمدة الغرانيت المجلوبة من سيناء، وكانت تقع على أطرافه منصات تطلُّ على غاليري. تهدَّم في زلزال عام 526 الميلادية، وهُجر واستُخْدِم من أجل إعادة بناء المدينة. لكن من الجلي أنه كان ما زال قائماً في حياة ابن بطلان.

(8) يقصد كان معبداً يونانياً.

ومن عجائب هَذَا البلد أن المُحْتَسب[1] يجمعُ القحَابَ والغُرباءَ المُؤْثرينَ للفساد من الروم في حلقة، وينادي عَلَى كل واحدة منهَنَّ، ويزايد الفَسَقَةُ فيهنَّ لليلتها تلْكَ، ويؤخذون إلَى الفنادق الَّتي هي الخانات لسكنى الغرباء، بعد أن تأخذ كل واحدة منهنَّ خاتماً- هو خاتم المطَران - حُجَّةً بيدها من تعقُب الوالي لَهَا، فإنه متى وَجَدَ خاطياً مع خاطية[2] بغير خَتْمِ المُطران ألزمه جنَايةً[3].

وَفي البلد من الحُبَساء[4] والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم".

---

(1) المحتسب: قبل نحو الألف سنة أوجد هذا الأصل في المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلامية إدارة وتشكيلات أطلق عليها اسم "الحسبة" ودامت قروناً عديدة. كان نظام الحسبة موجوداً في القرن الرابع، ولعله ظهر في القرن الثالث كشأن من شؤون الحكومة الأخرى التي كانت لها إدارات وتشكيلات، مثل ديون القضاء. كان ديوان الحسبة هو المسؤول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت له صبغة دينية، وكان يتوجب على المحتسبين أن يكونوا من العلماء، ومن العارفين، ومن ذوي الورع والتقوى والأمانة، وان تكون لهم منزلة محترمة بين الناس. كان المحتسب ناظراً على الناس ويراقبهم لئلا يرتكبوا المنكرات، وعلى الأخص شرب الخمور والخمارين الذين كان يضعهم تحت المراقبة الشديدة. يقول جرجي زيدان إن عمل دائرة الحسبة يشبه العمل الذي تقوم به البلديات اليوم.

(2) الخاطئ والخاطئة في هذا الموقع تشير إلى الزنا والدعارة.

(3) ألزمه جنايةً أي عاقبه وغرّمه غرامةً.

(4) الحبساء: الذين حبسوا أنفسهم من أجل الله زهداً.

الرحلة وفق روايات مؤلفين مختلفين

ابن بُطْلان في يافا

ياقوت الحموي[1] (معجم البلدان)[2]: "قال ابن بُطلان في رسالته التي كتبها في سنة 442 (هـــ):

ويافا بلد قحط والمولود فيها قلَّ أن يعيش حتى لا يوجد فيها مُعلِّم للصبيان"[3].

(1) ياقوت الحموي (1178–1228م): هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. لا تذكر المراجع الأصيلة شيئاً عن تاريخ ميلاده، إلا أن الثابت أنه أخذ أسيراً من بلاد الروم وحمل إلى بغداد مع غيره من الأسرى، حيث بيع. فاشتراه تاجر غير متعلم، يقال له عسكر الحموي، فنسب إليه، وسمي ياقوت الحموي. ألحقه مولاه بأحد الكتاتيب ليتعلم، على أمل أن ينفعه وينفع الناس في ضبط الحسابات وحصر الأعمال التجارية. وقرأ ياقوت الصرف والنحو وسائر قواعد اللغة، واستخدمه مولاه في الأسفار التجارية، ثم اعتقه. عندئذ راح ياقوت يكد ويكسب العيش عن طريق نسخ الكتب، فطالع العديد من الكتب واتسع أفقه العلمي. وبعد مدة عاد ياقوت إلى مولاه الذي وكل إليه عمله وعطف عليه. وطلب منه السهر على أسفاره للتجارة. فأفاد ياقوت من رحلاته المتعددة فجمع المعلومات الجغرافية الفريدة. ثم سافر إلى حلب، مستغلاً تنقله لجمع المعلومات، ومن حلب انتقل إلى خوارزم فاستقر فيها إلى أن أغار جنكيزخان المغولي عليها عام 616 هـــ. ففرّ ياقوت معدماً إلى الموصل، مخلفاً وراءه كل ما يملك. ثم سار إلى حلب وأقام في ظاهرها، إلى أن توفي في سنة 626 هـــ. اشتهر بكتابه "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، الذي جمع فيه أخبار الأدباء إلى أيامه، ورتبهم فيه حسب حروف المعجم. كتابه "معجم البلدان"، هو موسوعة جغرافية ضخمة تستغرق عدة مجلدات، رُتِّبتْ على حروف المعجم كذلك.

(2) المعجم، ط دار إحياء التراث، حرف الياء، ص426.

(3) فقرة ابن بطلان هذه تدل على أن نص الرحلة الضائع يتضمن وصفا للبلدان والمدن التي مرّ بها ابن بطلان في طريقه إلى مصر، ويمكننا تصوُّر زيارته للقدس بوصفه كاهناً نسطورياً لوقوعها على طريقه إلى مصر.

ابن العديم[1] (بغية الطلب في تاريخ حلب): "وقد أنبأنا أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف عن أبي الفتح بن البطي قال: أخبرنا الحميدي قال: أخبرنا محمد بن هلال بن المُحسِّن الصابئ وقال: كتب المختار بن الحسن بن بطلان المتطبّب كتاباً إلى والدي هلال بن المُحسِّن في سنة أربعين وأربعمائة يذكر له فيها خروجه من بغداد وما دخل من البلاد، قال فيها:

رحلنا من الرصافة إلى حلب في أربع مراحل، وحلب بلد مُسَوَّرٌ بحجرٍ أبيض، فيه ستة أبواب، وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان، وفي إحديهما كان المذبحُ الذي قرب عليه إبراهيم عليه السلام.

وفي البلد جامعٌ، وستُّ بِيَعٍ، وبيمارستان صغيرٌ، والفقهاء يفتون على مذهب الإماميةَ، ويشرب أهل البلَدِ من صهاريج فيه مملوءة بماء المطر، وعلى بابه نهر يعرف بالقويق، يَمُدُّ[2] في الشتاء وينضب في الصيف. وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري.

وهو بلدٌ قليلُ الفاكهة والبُقُول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم، وفيها من الشعراء جماعةٌ، وذكرَ أبا الفَتح بن أبي حصَينة[3]، وذكر كاتباً نصرانياً هو صاعد بن عيسى بن سمان[1]، وذكر أبا محمد بن سنان[2]، وأبا المشكور[3].

---

(1) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، أبو القاسم، كمال الدين العقيلي، المعروف بابن العديم الحلبي، أصل أهله من البصرة. ولد بحلب من بيت مشهور يتصل نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب مؤرخ، محدث، من الكتاب. تلقى العلم في حلب وبغداد وتصدر للتدريس والفتيا، وتولى القضاء في حلب ووزر لنفر من الأمراء. لما اجتاح المغول حلب في ثامن صفر سنة 658هـ (16 / 12 / 1260م) هرب ابن العديم إلى القاهرة ولكنه عاد وشيكا إذ عينه هولاكو قاضيا في الشام ثم رجع إلى القاهرة وفيها توفي عن 57 عاما. من كتبه: (بغية الطلب في تاريخ حلب) اختصره وسماه (زبدة الحلب في تاريخ حلب) (الدراري في ذكر الذراري) و(الوسيلة إلى الحبيب في ذكر الطيبات والطيب) و(مختارات من القصائد والموشحات) (الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) و(الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة) (كتاب في الخط وآدابه ووصف ضروبه وأقلامه).

(2) مدّ الشيء: زاد فيه، ويُقال: مدّ النُهير النهرَ. وفي القرآن: "والبحرُ يَمُدُّهُ من بعدِهِ سبعةُ أبْحُرٍ".

(3) أبو الفتح بن أبي حصينة (388-457هـ، 998-1065م) هو الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار، أبو الفتح، ابن أبي حصينة السُّلَمي: شاعر، من الأمراء. ولد ونشأ في معرة النعمان (بسورية) وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، فامتدح عطية بن صالح المرداسي، فملَّكَه ضيعةً. فأثرى. وأوفده ابن مرداس إلى الخليفة المستنصر العلوي بمصر، رسولاً، سنة 437هـ، فمدح المستنصر بقصيدة وأعقبها بثانية سنة 450هـ، فمنحه المستنصر لقب (الإمارة) وكتب له سجلٌ بذلك، فأصبح يحضر في زمرة الأمراء، ويخاطب بالإمارة. وتوفي في سروج. له ديوان شعر مطبوع.

ثم قال:

ومن عجائب حلب أن في قيسارية البَزّ[4] عشرين دكاناً للوكلاء، يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمرٌّ ذلك منذ عشرينَ سنةٍ وإلى الآن.

وما بحلب موضع خَرابٌ أصْلاً.

قلتُ [أي ابن العديم]: الكنيسة[5] التي أشار إليها في القلعة أن فيها مذبح إبراهيم عليه السلام، هي الآن مقام إبراهيم عليه السلام الأسفل، والكنيسة الأخرى دَثرتْ، والمسجدُ الذي في أعلى القلعة هو مقام إبراهيم عليه السلام الأعلى، وأما البيع الست، فاثنتان باقيتان إحداهما بالقرب من الزجّاجين[6]، إلى جانب مسجد ابن زُرَيْق[7]، والأخرى بالقرب من الرحبة، والبواقي جعلت الذي بمشهد الدَّكّة[8]، ويقال إن به سَفَطَاً[9] للحسين بن علي (رضي الله عنه). وكان يدبر أمر البلدة أبو الفضل ابن

---

(1) صاعد بن عيسى بن سمان النصراني: هو كاتب محمود حسام الدولة منيع بن مقلد الذي أمر، مرةً، صاعد بن عيسى بن سمان النصراني بأن يعمل شعراً في قصة يرويها ابن العديم. ولما ملك معز الدولة حلب جاء أبو العلاء بن سمان ليسلم عليه، فحمل عليه ليطعنه، فطرح نفسه من بغلته، وغيب شخصه عنه، وسار إلى أنطاكية، وصار بها أسقفاً إلى أن مات. انظر: (زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم).

(2) سترد تفصيلات ومعلومات عن ابن سنان هذا في نقولات ياقوت الحموي من رحلة ابن بطلان.

(3) لعله أبو المشكور بن أبي العباس الحلبي. يذكر ابن العديم أنه "شاعر مجود من أقران الماهر الحلبي.قرأت في كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون في ذكر الغناء والمغنين، تأليف أبي الحسين بن الطحان في باب ما مدح به المغنون في زماننا هذا يعني زمانه". (زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم)، لكنني لستُ أكيداً من ذلك.

(4) البَزُّ: الثياب، وقيل: ضرب من الثياب، وقيل: البَزُّ من الثياب أَمتعة البَزّاز، والبَزّازُ: بائع البَزِّ وحِرْفَتُهُ البِزَازَةُ.

(5) تعقيب ابن النديم ضروري هنا لمعرفة ما آل إليه حال المواضع التي يذكرها ابن بطلان، سنوات طوال بعد رحلته.

(6) سوق الزجاجين وكانت مدرسة الزجاجين ومسجد ابن زريق بالقرب منه.

(7) لعله مسجد منسوب إلى عفيف الدين بن زريق الذي كان له دار بحلب.

(8) يقول ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب): "وإنما عرف هذا المشهد مشهد الدكة لأن في سطح جبل جوشن من شمالي المشهد المذكور في مكان مشرف صخرة ناتئة في الجبل تشبه الدكة المبنية. ووقفت يوماً عليها ومعي رضى الدين أبو سالم بن المنذر، وكان شيخاً حسناً من أعيان الحلبيين فقال لي: هذه الدكة كان يجلس عليها الأمير سيف الدولة بن حمدان كثيراً ويتفرج على مدينة حلب وما حولها، فلا يستتر عنه شيء منها؛ وهذا المشهد جدد عمارته قسيم الدولة أق سنقر والدزنكي، واسمه عليه. وفي سفح جبل جوشن من شمالي مشهد الدكة مشهد آخر يسمى مشهد الحسين، بناه الحلبيون لمنام زعموا أنه رؤي، وتنوقوا في بنائه وإحكامه ومنجوره، وتبرع جماعة من الصناع في عمارة شيء منه، وأظهر صنعته فيه؛ ووقف الملك الظاهر غازي رحمه الله عليه وقفاً حسناً، استمالة لقلوب الشيعة من أهل حلب".

(9) السفط هو الصندوق.

الخشاب[1]، لأن صاحبها تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق كان بماردين فجعل ابن الخشاب كنائس حلب هذه مساجد. إحداهما الكنيسة العظمى التي يقال إن هيلانة[2] ملكة القسطنطينية بنتها، فجعل فيها محراب، وعرفت بمسجد السرّاجين[3]، وهي غربي المسجد الجامع وجعلها نور الدين محمود بن زنكي[4] مدرسة لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه، والأخرى جعلت مسجداً بالحدّادين، فوقفت مدرسة للحنفية أيضاً، وقفها حسام الدين لاجين[5] وهي مدرسة الحدّادين، والأخرى كانت بدرب الخزاف فهدمها عبد الملك بن المقدم[6]، وبناها مدرسة للحنفية أيضاً، وأما الرابعة فلا أعلم بها"[7].

ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب): "قرأت بخط غرس النعمة محمد بن هلال بن المُحسِّن في "كتاب الربيع"، وأنبأنا به جماعة عن ابن البطي عن محمد بن فتوح الحميدي قال: أخبرنا غرس النعمة أنه نقل من خط

---

(1) كان يتدبر أمر حلب سنة 1186 الميلادية. قتل ابن الخشاب أثناء الفتنة التي وقعت بحلب بين السنة والشيعة.

(2) الإمبراطورة القديسة هيلانة [سانت هيلين 248-328م] انفصلت بالطلاق لأسباب سياسية عن الإمبراطور البيزنطي الأول قسطنطينوس، الذي تزوج بدلاً منها تيودورا الفاتنة ربيبة الإمبراطور الروماني مكسيميان. وعندما أصبح قسطنطين الأكبر ابن هيلانة إمبراطوراً سنة 306م تلقبت هيلانة بلقب الإمبراطورة الأم واعتنقت النصرانية. ثم ادّعت "فاوستا" زوجة ابنها الثاني أن "كرسبوس قيصر" حفيد هيلانة قد راودها عن نفسها، فلم يكن هناك مفر من إعدامه شنقاً على رؤوس الأشهاد سنة 326م، ولم تطق هيلانة صبراً على ما جرى لحفيدها، فدبرت لتيودورا مكيدة وقادتها إلى حبل المشنقة، ظناً منها أن ذلك سوف يشفي غليلها. ولكن هيلانة الإمبراطورية الأم أصيب بعد تلك الأحداث بحزن عميق، أدى بها إلى التصوف والوسوسة، ونصحها الناصحون بالتوجه إلى الأرض المقدسة، فلسطين، من أجل النسيان والبحث في آثار التوراة والإنجيل. ولقيها هنالك من الأحبار والرهبان من قرأ عليها خبراً من كتابات المؤرخ "ديودور الصقلي" [سنة 10 ق.م] نقله عن "أرتميدوروس" [سنة 110 ق.م] وعن "أغاثارشيدس" [سنة 160 ق.م] يفيد بأن هنالك نقوشاً وكتابات على الصخور قرب "الطور" غير معروفة الأصل. فظنت الإمبراطورة أن تلك النقوش المجهولة لا بد وأن تكون نقوش أصحاب موسى أثناء التيه، فشدّت الرحال إلى وادي "المكَتَّب" على وزن المقطّم. ومنذ تلك الرحلة التي قامت بها الإمبراطورة شاعت فكرة نسبة تلك النقوش السينائية إلى تيه أصحاب موسى بن عمران. وهذا ما ثبت خطؤه بعد قرون.

(3) والمدرسة الحلاوية في حلب تُعرف (بمسجد السراجين) حسب ابن العديم. وهي تقع على ما يبدو في سوق السراجين.

(4) نور الدين محمود بن زنكي الملقب بالملك العادل، ولد سنة 511 الهجرية (1118م)، وتوفي بدمشق 569 الهجرية (1174م).

(5) هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمري المعروف بالدرفيل وهو المنصور حسام الدين لاجين 696-698 هجرية/1297-1299 ميلادية، اغتيل اغتيالاً.

(6) الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم. عندما أغار الفرنج سنة 572 هـ (1177م) على البقاع خرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم من بعلبك فأوقع بهم وقتل منهم وأسر.

(7) ويضيف ابن العديم (بغية الطلب في تاريخ حلب): "ولما نزل الفرنج على حلب وحصروها في سنة ثمان عشرة وخمسمائة نبشوا الضريح الذي يقال به السفط في المشهد المذكور، ونزلوا فيه، فلم يروا فيه شيئاً فأحرقوه، وكان أبو الفضل بن الخشاب حينئذ يتولى تدبير أمر المدينة في الحصار فغير كنائس النصارى بحلب، واتخذ فيها محاريب إلى جهة القبلة، وجعلها مساجد؛ أخبرني بذلك والدي رحمه الله عن أبيه. وإنما عرف هذا المشهد مشهد الدكة لأن في سطح جبل جوشن من شمالي المشهد المذكور في مكان مشرف صخرة ناتئة في الجبل تشبه الدكة المبنية".

ابن بطلان الطبيب رسالة، كتبها إلى والده هلال بن المُحسِّن، بعد خروجه من بغداد يخبره فيها بأحوال البلاد التي مر بها في سفره، وذلك في سنة أربعين وأربعمائة قال فيها:

وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية، وبين حلب وبينها يوم وليلة، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية أرضاً عامرة لا خراب فيها أصلاً، لكنها أرضٌ زَرْعٌ للحنْطة والشعير تحت شجر الزيتون، قراها مُتَّصِلَة ورياضُها مُزْهِرَة، ومياهُها مُتَفجِّرة، يقطَعها السَفرُ في بالٍ رخيٍّ وأمنٍ وسكون.

وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل[1]، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس، ينفذون[2] من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنةً، ويستبدل بهم في السنة الثانية.

وسكك البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قلّته، فيتم دائرة، وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تَبيْنُ، لبعدها عن البلد، صغيرةً. وهذا الجبل يستر عنها الشمس، فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب، وفي وسطها بيْعَة القُسيان[3]، وكانت دار قُسيان المَلك الذي أحيا ولدَهُ فطرسُ[4] رئيس الحواريين عليه السلام[5]، وهو هيكلٌ طولُهُ مائةَ خطوة، وعرضه ثمانون، وعليه كنيسة على أساطين، وكان بدُوْرِ الهيكل أروقةٌ يجلس عليها القضاةُ للحكومة، ومعلمو النحو واللغة، وعلى أبوابَ هذه

(1) الفصِيل: حائط صغير أقلّ من الحِصن والسور (المعجم الوسيط).

(2) ينفذون: يَقْدِمُون.

(3) يقول المسعودي في (التنبيه والإشراف) متحدثا عن ملوك الروم وبناء كنيسة القسيان: "السادس: قلوذيوس بن طيباريوس، ملك أربع عشرة سنة، وفي أول سنة من ملكه قتل أغريفوس عامله على الإسرائليين يوحنا بن زبدي أحد التلاميذ وحبس شمعون الصفا، ثم خلص شمعون الصفا من الحبس، وصار إلى مدينة أنطاكية، والنصارى يدعونها مدينة الله، ومدينة الملك، وأم المدن، لأنها أول بلد أظهر فيه دين النصرانية، وبها كرسي بطرس ويسمى شمعون وسمعان، وهو خليفة إيشوع الناصري والمرأس على سائر التلاميذ الاثني عشر والسبعين وغيرهم، فشرع بطرس في بناء الكنيسة المعروفة في أنطاكية بالقُسيان إلى هذا الوقت" ص 126 من طبعة ليدن وص225– القسم الأول من طبعة وزارة الثقافة السورية.

(4) وردت بطرس في نص القفطي، وأحسب أن فطرس هي طريقة نطق فارسية لبطرس امتدت إلى النصوص العربية. تزعم الكثير من الكنائس أنها أقيمتْ على يد بطرس (وهو سمعان وشمعون)، وهو أمر ليس بالصحيح تاريخاً. يمكن تتبع خطا بطرس في السامرة، وعلى الشواطئ السورية الفلسطينية، وفي جوبيا Joppé (حيث أحيا دورقاس Dorcas – تابيثا Tabitha وهي الغزالة بالأرمنية)، في شيزر Césarée، في أنطاكيا وربما في كورينثية Corinthe.

(5) انظر ملاحظاتنا عن هذه البيعة أو الهيكل في المقدمة. وأرى أنها اختفت بسبب عوادي الزمان.

الكنيسة بنجام[1] للساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً، اثنتي عشرة ساعة، وهو من عجائب الدنيا، وفي أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين، ومعاصر حسنة تخرقها المياه، وعلة ذلك أن الماء يترل إليهم من الجبل المطل عليهم، وهناك من الكنائس ما لا نحد كثرةً، كلها معمولة بالفص المذهب، والزجاج المُلوّن والبلاط المُجَزَّع[2].

قال: وظاهر البلد نهر يعرف بالمقلوب[3]، يأخذ من الجنوب إلى الشمال، وهو مثل نهر عيسى، وعليه رِحَىً، يسقي البساتين والأراضي.

والمسجد الجامع الذي كان بأنطاكية للمسلمين، هو إلى جانب القسيان، ودخلتُ أنطاكية في سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة وستمائة[4]، ودخلتُ بيعة القُسيان فوجدت بجانبها محراب المسلمين على حاله، وفي سقوفه آيات القرآن مكتوبة في النقش، وهي على ما ذكره ابن بطلان من الصورة، وبيعة القسيان مزخرفة بالرخام والفسيفساء[5]. باب في ذكر ما بحلب وأعمالها من المزارات: (..) قبور الأنبياء والأولياء والمواطن الشريفة التي بها مظان إجابة الدعاء فأما المقام التحتاني فكان موضعه كنيسة للنصارى إلى أيام بني مرداس[6]، وقد قال ابن بطلان في بعض رسائله إن فيها كان المذبح الذي قرب عليه إبراهيم (عليه السلام)، فغيِّرتْ بعد ذلك

(1) بنجام: في يقيني فإن محرري نص القفطي السابق يخطئون خطأ جسيماً في كتابة هذه الكلمة بصيغة (فنجان). إنه تصحيف كما ذكرت آنفاً لأن الأمر يتعلق، كما هو في نص ابن العديم هذا، بالبَنْكَام: ساعة الرمل المعروفة (المعجم الوسيط). وهو من الحيل الميكانيكية المعروفة يومئذ.

(2) مُجَزَّع أي مُقَطَّع بألوان مختلفة أي قَطِّع سواده ببياضه، وكأَنَّ الجَزْعةَ مسماة بالجَزْعة، المرة الواحدة من جَزعَتْ.

(3) المقلوب هو نهر العاصي.

(4) المقطع لابن العديم هنا، لكأننا في رحلة داخل الرحلة، والتاريخ الهجري المذكور في النص يوافق سنة 1218 الميلادية. يؤكد ابن العديم، في هذا المقطع، معلومات ابن بطلان بعد ما يقارب من قرن ونصف من وفاته.

(5) من الواضح أن هذه الفقرة تشكِّل كذلك تعليقاً من طرف ابن العديم على نص ابن بطلان، ومثله ما سيلي.

(6) بنو مرداس هم الكلابيون في حلب وشمال الشام. وكلاب التي ينتمي إليها المرداسيون هي القبيلة العربية التي نزلت ضفاف الفرات والجزيرة.وهي كلاب بن ربيعة، بطن عظيم من عامر بن صعصعة من قيس عيلان من العدنانية. وكان الكلابيون مادة الدولة المرداسية وركيزتها، منهم تستمد القوة وعليهم تعول. وعاش بنو كلاب قرابة قرن في بلاد الشام قبل إقامة دولتهم، واستطاعوا بفضل كثرتهم العددية أن يفرضوا إرادتهم في منطقة حلب، كما خلقوا لأنفسهم المناخ المناسب لإقامة إمارتهم وسط القوى المتصارعة في ذلك الوقت.

وجُعلتْ مسجداً للمسلمين[1]، وجدَّد عمارته نور الدين محمود بن زنكي ووقف عليه وقفاً حسناً، ورتب فيه مدرساً يدرس الفقه على مذهب أبي حنيفة (رضي الله عنه). وأما المقام الأعلى ففيه تقام الخطبة بالقلعة، ويصلي فيه السلطان الجمعة، وفيه رأس يحيى بن زكريا (عليه السلام) موضوع في جرن من الرخام في خزانة، ووقع الحريق ليلة من الليالي في المقام المذكور فاحترق جميعه في سنة أربع وستمائة[2]، و لم يحترق الجرن المذكور ودفع الله النار عنه".

ياقوت الحموي (معجم البلدان)[3]: " وقرأت في رسالة كتبها ابن بُطلان المتطبّب إلى هلال بن المُحسِّن بن إبراهيم الصابئ في نحو سنة 440 (هـــ) في دولة بني مرداس فقال:

دخلنا من الرصافة إلى حلب في أربع مراحل، وحلب بلد مُسَوَّر بحجر أبيض، وفيه ستة أبواب، وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان، وفي إحداهما كان المذبح الذي قرب عليه إبراهيم عليه السلام، وفي أسفل القلعة مغارة كان يخبأ بها غنمه، وكان إذا حلبها أضاف الناس بلبنها، فكانوا يقولون: حَلَبَ أمٍ لا؟ ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك، فسمّيتْ لذلك حَلَباً.

وفي البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير. والفقهاءُ يفتون على مذهب الإمامية.

---

(1) هذه المعلومة مهمة في تحديد مصير الكنيسة التي يتحدث عنها ابن بطلان.

(2) سنة 604 الهجرية توافق سنة 1208 الميلادية. والتعليق من ابن العديم بالطبع.

(3) المعجم، ط دار إحياء التراث، حرف الحاء، ص283-284.

وشُرْبُ أهلِ البلد من صهاريجَ مملوءة بماء المطر، وعلى بابه نهر يعرف بقُوَيق[1]، يمدُّ في الشتاءِ ويَنْضب في الصيف. وفي وسط البلد دار علوة[2] صاحبة البُحتُري.

وهو بلدٌ قليلُ الفواكه والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم، وفيها من الشعراءِ جماعةٌ، منهم شاعرٌ يُعْرَف بأبي الفتح بن أبي حصينة[3]، ومن جُملةِ شعرِه قوله:

(الطويل)

ولمــا التقينـــا للـــوداع ودمعهـــا   ودمعي يفيضان الصبابة والوجـــدا

بكت لؤلؤاً رَطْباً ففاضت مـــدامعي   عقيقاً فصار الكلّ في نحرها عِقـــدا

وفيها كاتبٌ نصرانيٌّ له قطعةٌ في الخمرِ أظنه صاعد بن شَمَّامة[4]:

(البسيط)

خافتْ صوارمُ أيدي المـــازجينَ لهـــا   فألبَسَتْ جسمَها درْعاً من الحَبَبِ[5]

وفيها حدثٌ[6] يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر طبقة المحنّكين فمن قوله:

(البسيط)

إذا هجوتكم لم أخـــشَ صَـــولتكم   وإنْ مدحتُ فكيفَ الريُ باللـــهَبِ

فحينَ لم ألقَ لا خوفـــاً ولا طمعـــاً   رغبتُ في الهجوِ إشفاقاً من الكَذِبِ

---

(1) انظر أعلاه بشأن هذا النهر.

(2) انظر أعلاه بشأن دار علوة.

(3) انظر أعلاه بشأن هذا الشاعر.

(4) لم أعثر على ترجمة له.

(5) والحَبَب: حَبَب الماء، وهو تكسّره، وهو الحَباب.

(6) حدث: شاب.

وفيها شاعر يعرف بأبي العباس يكنّي بأبي المشكور، مليح الشعر، سريع الجواب، حلو الشمائل، له في المجون بضاعةٌ قويةٌ، وفي الخلاعة يدٌ باسطةٌ. ولهُ أبياتٌ إلى والده:

يـــا أبـــا العبـــاس والفـــضل أبـــا العبـــاس تَكَنّـــا

أنـــت مـــع أمـــي بـــلا شَـــكِ تحـــاكي الكَركَـــدَنَا

أنبتـــتْ في كـــل مَجـــرى شـــعرةٍ في الـــرأس قرنـــا

فأجابه أبوه:

أنـــت أولى بـــأبي المـــذموم بـــين النـــاس تكنـــا

ليـــت لي بنتـــاً ولا أنـــت ولـــو "بنـــت يُحنـــا"[1]

بنتُ يحنا: مغنية بأنطاكية تحن إلى القرباء، وتضيف الغرباءَ، مشهورة بالعهر. قال [أي ابن بطلان]:

ومن عجائب حلب أن في قَيسارية البز[2] عشرين دكاناً للوُكلاء. يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار، مستمرٌ ذلك منذ عشرين سنة والى الآن. وما في حلب موضع خراب أصلاً.

وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية وبينها وبين حلب يوم وليلة آخر ما ذكر ابن بطلان".

إقامة وعلاقات في حلب

القفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): "وَقَدْ كَانَ ابن بطلان هَذَا أكبر أصحاب أبي الفرج بن الطيّب البغدادي. وَكَانَ أبو الفرج يُجلِّه ويُعَظِّمُهُ ويُقدِّمُهُ عَلَى تلاميذه

(1) بنت يُحنا: بنت يوحنا.

(2) البز: القماش.

ويُكْرِمُهُ، ومنه استفاد وبعلمه تخرَّج. وَقَدْ رأيتُ مثال خط أبي الفرج لَهُ عَلَى كتاب (ثمار البرهان) من شرحه، وهو: "قرأ عليَّ هَذَا الكتاب من أوله إِلَى آخره الشيخ الجليل أبو الحسن المختار بن الحسن، أدام الله عزه، وفهمه غاية الفهم وكتب عبد الله بن الطيب"[1]. ولما دخل ابن بطلان إِلَى حلب، وتقدم عند المستولي عَلَيْهَا، سأله ردَّ أمر النصارى في عبادتهم إِلَيْه، فولاهُ ذلكَ. وأخذَ في إقامة القوانين الدينية عَلَى أصولهم وشروطهم فكرهوه. وَكَانَ بحلب رجل كاتب طبيب نصراني يعرف بالحكيم أبي الخير بن شرارة. وَكَانَ إذَا اجتمع به وناظره في أمر الطب يستطيل[2] عَلَيْه ابن بطلان بما عنده من التقاسيم المنطقة، فينقطع في يده[3]، وإذا خرج عنه، حمله الغيظ عَلَى الوقيعة فيه، ويحمل عَلَيْه نصارى حلب[4]. فلم يمكن ابن بطلان المقَامَ بَيْنَ أظهرهم، وخرج عنهم، وَكَانَ ابن شرارة بعد ذَلكَ يقول: لَمْ يكن اعتقاده مُرْضياً. ويَذْكُرُ عن راهب أنطاكي أنه حكى لَهُ أن الموضع الَّذي فيه قبر ابن بطلان من الكنيسة الَّتي كَانَ قَدْ استوطنها وجعلها معبداً لنفسه متى مَا أُوقد فيه سراجٌ انطفأ، ويقول عنه أمثال هَذه الأقوال. وللحلبيين النصارى فيه هَجْوٌ، قالوه عندما تولى أمرهم في كنائسهم وتقرير صلواتهم وعباداتهم عَلَى أصولهم وشروطهم فكرهوه"[5].

---

(1) النص بين المزدوجين هو التعليق الذي كتبه الأستاذ مقرّضاً تلميذه ابن بطلان.

(2) يستطيل عليه أي يتفوّق عليه.

(3) ينقطع في يده أي لا يحر جواباً.

(4) يحمل عليه أي يحرّض عليه.

(5) نفس المرجع السابق ص207-208.

القفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): "ابن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي هَذَا رجلٌ كاتبٌ طبيبٌ من أهل حلب نصرانيٌّ يعرف من الطب أوائله، وَلَمْ يكن لَهُ يد فِي علم المنطق، وَكَانَ ارتزاقه بطريق الكتابة، وَلَهُ جرائد مشهورة بحلب عند أهلها يحفظونها لأجل الخراج المستقر عَلَى الضياع. وَكَانَ قويّ الصنعة فِي علم الكتابة، وتُعْرَفُ جرائده بالجرائد الحكميات، وإذا اختلف النوّاب فِي شيء من هَذَا النوع رجعوا إليها. وكان أبو الخير قَدْ اجتمع بابن بطلان الطبيب عند وروده إلى حلب، وجرتْ بينهما مذاكراتٌ[1]، أدت إلى المنافرة، وقدم ذكرها في ترجمة ابن بطلان. وَلَمْ يزل ابن شرارة هَذَا مقيماً بحلب يتقلب فِي صناعته[2] إلى أن دخلت دولة الترك، وبها رضوان بن تتش[3] وحضر يوماً عنده وهو يشرب فحمله السكر على أن قال لَهُ: أسلم، فامتنع فضربه بسيف كانَ في يده أثر في جسمه بعض أثر، ونزل من بَيْنَ يديه، وَلَمْ يعدْ إلى داره، ومرَّ عَلَى وجهه إلى أنطاكية، وخرج عنها إلى مدينة (..) ودفن بهَا فِي حدود سنة تسعين وأربعمائة[4]. ولأبي الخير هَذا كتاب فِي التاريخ ذكر فيه حوادث مَا قرب من أيامه، يشتمل عَلَى قطعة حسنة مَن أخبار حلب فِي أوانه، وَلَمْ

(1) مذاكرات: مناقشات وسجالات.

(2) أي في صناعة الطب.

(3) رضوان بن تتش: هو فخر الملك رضوان بن تاج الدولة تتش بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، صاحب حلب ملكها بعد مقتل أبيه في معركة جرت في (الري) بينه وبين ابن أخيه بركياروق سنة 488. كان سيئ السمعة، ظالما فقد قتل أخويه: أبا طالب وبهرام وقتل خواص أبيه. كان لا يصد غارات الصليبيين على حلب فكانوا يغيرون ويسبون. وقد كثر الباطنية (الإسماعيلية) في أيامه وجعل جنده منهم، وكان مقدمهم رجل عجمي يدعى أبا طاهر الصائغ، وانطلقت ألسن الناس بشتمه، فاشتد خوفه منهم وترك الخروج إليهم. مات بعد مرض حاد، وخلف أموالا كثيرة اكتنزها بشحه. خلفه من بعده ابنه ألب أرسلان (الثاني) وعمره ست عشرة سنة وكان في لسانه حبسة فعرف بالأخرس ولم يلبث في الحكم سوى سنة واحدة فقد قتله الباطنية سنة 508 هـ وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه، وتولى الحكم الحاجب لؤلؤ وأصبح صاحب الأمر في الدولة.

(4) سنة 490 الهجرية تعادل سنة 1097 الميلادية.

أجد منه سوى مختصر جاءني من مصر اختصره بعض المتأخرين اختصاراً لم يأت فيه بطائل".

حكايات في حلب

أسامة بن منقذ[1] (كتاب الاعتبار)[2]: "ومّما يُشاكلُ ذلك أنَّ رجلاً أتى يوحنا بن بطلان[3] الطبيبَ المشهورَ بالمعرفة والعلم والتقدّم بالصنعة الطبِّ[4] وهو في دكانه[5] بحلبَ، فشكا إليه مَرَضَهُ فرآه قَد اَستحكمَ به الاستسقاء[6]، وكبر بطنه، ودقت[7] وتغيّرتْ سُحْنَتَهُ. فقال له:

يا ولدي ما لي، والله، فيكَ حيلةٌ، ولا بقي الطب ينجح فيك[8] فانصرف. ثم بعد مدة اجتازَ به وهو في دكانه، وقد زال ما به من مرض، وضمر جوفه، وحسنت حاله، فدعاه ابن بطلان فقال:

(1) أسامة بن منقذ (1095–1188): أديب عربي. ولد في شيزر، شمال حماة في وسط سوريا، ومات بدمشق. كان أبوه أمير البلدة. التحق بجيش نور الدين زنكي، وعاش في بلاط النوريين بدمشق (1138–1144)، ثم في بلاط الفاطميين بالقاهرة حتى 1154، حيث اشترك في الحملات على الصليبيين في فلسطين. عاد إلى دمشق سنة 1154. عُني بالشعر والقتال في أول حياته ونظم ديواناً في الفخر والغزل والوصف. ثمة فارق زمني مُعتبر بين وفاة ابن بطلان (1066م) ووفاة أسامة بن منقذ (1188م) يجعل بعض الشكوك تحوم حول رواياته عن ابن بطلان، رغم أنه يروي قصصاً تتعلق ببعض أجداده الذين عالجهم ابن بطلان. هل يتعلق الأمر بابن بطلان آخر؟ لا يوجد طبيب "مشهور بالمعرفة والعلم والتقدم بالصنعة" كما يقول أسامة غير رحالتنا.

(2) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرّره: فيليب حتي، د.ف.، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، الصفحات 183–185.

(3) لا يوجد، في المراجع التي بين يديَّ طبيب باسم (يوحنا بن بطلان). سوى أن جميع التواريخ وخاصة إشارة بن منقذ أن بن بطلان كان طبيبا لجده توحي أن المقصود بالطبيب المذكور ليس سوى مَنْ يعنينا في هذه الرحلة. وربما يكون الاسم الأول لابن بطلان هو الاسم المسيحي الشائع يوحنا، وهو ما أسقطته المصادر التي بين أيدينا لسبب من الأسباب، وذكرت له فحسب اسمه (إيوانيس) الذي يقترب بشكل ظاهر من اسم يوحنا إذا لم يكن الأخير مجرد لفظ شامي له. لقد فكرّنا أن يكون بطلان في نص بن منقذ تصحيفاً محضاً لاسم آخر، وبالعودة إلى المراجع التاريخية وجدنا من اسمه (يوحنا بن حيلان) على أن هذا كانت وفاته بدمشق في رجب سنة 339 هـ أي متقدم على ابن بطلان بقرن ونصف تقريباً. ولدي الصفدي (الوافي بالوفيات): " ورأيت ابن خلكان قد قال محمد بن طرخان قدم بغداد وأدرك بها متى ابن يونس الفيلسوف فأخذ عنه وسار إلى حران فلزم يوحنا ابن جيلان النصراني وأخذ عنه وأتقن ببغداد اللغة" وهو الطبيب الأول أعلاه. على أن الروايات التي ينقلها أسامة قد تكون سماعية فحسب طالما أنه لم يشهد هو بعضها البتة، ويوردها فحسب بسبب شهرة ابن بطلان. انظر مقدمتنا كذلك بهذا الشأن.

(4) نعت ابن منقد لابن بطلان في هذا النص بالتقدّم والشهرة هو دليل على أن المقصود بـ(يوحنا) هنا هو (إيوانيس).

(5) المقصود بدكانه هنا ما نريد نحن اليوم بعيادته. كان للطبيب مكان مقصود في مكان عام يتردد عليه المرضى.

(6) الاستسقاء: تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني، لا يكاد يُبرأ منه.

(7) دقت الرقبة: صغرتْ.

(8) (ولا بقي الطب ينجح فيك) صيغة أقرب للعامية مما هي للفصحى.

- ما أنتَ الذي حضرتَ عندي من مدّة[1] وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك، ودقّتْ رقبتك، وقلتُ: لكَ مالي فيك حيلة؟

قال: بلى.

قال: بماذا داويتَ حتى زال ما بك؟

قال: والله ما تداويتُ بشيء، أنا رجلٌ صعلوكٌ ما لي شيء، ولا لي من يدور بي سوى والدتي، عجوز ضعيفة كان لها في دُنَيْنٍ[2] خلٌّ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز.

فقال له ابن بطلان: بقي من الخلِ شيءٌ؟

قال: نعمْ.

قال: امشي معي اربي الدَّنَّ الذي فيه الخلّ.

فمشى بين يديه إلى البيت أوقفه على دَنّ الخلِّ. فأفرغ ابن بطلان ما كان فيه من الخل، فوجد في أسفله أفعيين قد هَرأتا.

فقال له:

- يا بني ما كان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ إلا الله عز وجل[3].

وكان لابن بطلان إصابات عجيبة في الطب. فمن ذلك إن رجلاً أتاه وهو في دكانه بحلب، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهم منه إذا تكلم.

فقال له: ما صنعتك؟

(1) (ما أنتَ الذي حضرتَ عندي من مدة): صيغة أقرب للعامية مما هي للفصحى، وهي سمة لغة مقطع ابن منقذ المُستَشْهَد به هنا.

(2) دُنين: تصغير دن. الدَّنّ: ما عَظُم من الرّواقِيد، وهو كهيئة الحُبّ إلا أنه أطول مُستَوي الصَّنْعة في أسفله كهيئة قَوْنَس البيضة، والجمع الدِّنان وهي الحِباب، وقيل: الدَّنُّ أصغر من الحُبّ، له عُسْعُس فلا يقعد إلا أن يُحْفَر له (اللسان).

(3) هذه القصة لا تدل في الحقيقة على براعة في الطب وتُوْرَد، في يقيني، من باب الطرفة.

قال: أنا مُغَرْبِلٌ[1].

فقال: احضرْ لي نصفَ رطلِ خلٍّ حاذق[2].

فأحضره.

فقال: اشربه.

فشربه لحظة فذرعه القيء، فتقيأ طيناً كثيراً في ذلك الخلّ، فانفتحَ حلقه، واستوى كلامه. فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته:

– لا تداووا بهذا الدواء أحداً فتقتلوه، هذا كان قد عَلُقَ بالمريء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه إلا الخلّ.

وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوّج مقلد بن نصر بن منقذ[3]. فظهر في جدي أبي الحسن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ[4] رحمه الله وَضَحٌ[5] وهو صبيٌّ صغيرٌ، فاقلق ذلك أباه، وأشفقَ عليه من البرص، فاحضرَ ابن بطلان، وقال له:

– ابصرْ ما قد ظهر في جسم علي.

فنظره وقال:

---

(1) غَرْبَلَ الشيء: نَخَله. والغِرْبالُ: ما غُرْبِلَ به، غَرْبَلْت الدقيق وغيره. والمُغَرْبِل مُحْتَرِف الغربلة.

(2) الخَلُّ يَحْذِقُ حُذوقاً: حَمُض. وحذَق اللبن والنبيذ ونحوهما يَحْذِق حُذوقاً: حَمُض. وحذَق اللبن والنبيذ ونحوها يَحْذِق حُذوقاً حذَى اللسانَ. والحاذِقُ أيضاً:الخبيث الحموضة (اللسان).

(3) مقلد بن منقذ (ت 435 هـ): مقلد بن منقذ الكناني، أبو الفتوح، الملقب بمخلص الدولة. قال ابن خلكان: "كان رجلاً نبيل القدر، لقد رزق السعادة في بنيه وحفدتـــه، وكان مقيماً بالقرب من قلعة شيزر عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم، وكانت أشغالهم في حماة، ولهم فيها عقار نفيس وبيوت". ومقلد هذا هو والد ملوك شيزر، وهي من توابع حماة وفي جهتها الغربية، يسميها الصليبيون (sizarar).

(4) هو علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، أبو الحسن، سديد الملك. صاحب قلعة شيزر، قرب مدينة حماة بسورية. كان شجاعاً مقداماً قوي النفس، كريما. هو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ. فقد كان مقيما بجوار القلعة قرب الجسر المعروف بجسر بني منقذ وكانت القلعة بيد الروم، فنازلها وتسلمها بالأمان سنة 470 هـ ولم تزل في يده ويد أبنائه حتى دمرتها الزلازل سنة 552 هـ وأتت عليها وقتلت كل من فيها من بني منقذ وغيرهم تحت الهدم وشغرت فجاء نور الدين الشهيد محمود بن زنكي، أمير الشام فأخذها. كان ابن منقذ شاعرا وله ديوان شعر.

(5) الوضح: هو والوَضَحُ: بياض غالب في ألوان الشاء قد فشا في جميع جسدها، والجمع أَوضاح؛ وقد يظهر في الصدر والظهر والوجه، يقال له: تَوْضيح شديد، وقد تَوَضَّح. ويقال: بالفرس وَضَحٌ إذا كانت به شِيَةٌ، وقد يكنى به عن البَرَصِ، ومنه قيل لِجَذِيمَةَ الأَبْرَشِ: الوَضَّاحُ؛ وفي الحديث: جاءه رجل بكَفِّه وَضَح أَي بَرَصٌ. والمقصود في النص بياض في البشرة وليس البرص بعد.

– أريد خمس مائة دينار حتى أداويه وأذهب هذا عنه.

فقال له جدي:

– لو كنت داويت علياً ما كنت رضيت لك بخمس مائة دينار.

فلما رأى الغضب من جدي قال:

– يا مولاي أنا خادمك وعبدك وفي فضلك، ما قلتُ ما قلتُه إلا على سبيل المزاح، وهذا الذي بعلي بَهَق[1] الشباب، وإذا أدرك[2] ذهب عنه، فلا تحمل منه همّاً، ولا يقول لك سواي أنا أداويه ويتسوّق عليك[3]، فهذا يزول عند بلوغه.

فكان كما قال. وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب لها برة[4]، لَحقَها بَرْدٌ في رأسها. فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة[5] والمُخْمَلة[6] والمَناديل حتى تصيرَ على رأسها عمامة كبيرة، وهي تستغيث من البرد، فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها. فقال:

– حصلي في غد خمسين مثقالاً من كافور رياحي[7] عارية[8] أو مكرى من بعض الطِيْبِيّن[9]، فهو يعود إليه بأسره[10].

فحصّلتْ له الكافور، ثم أصبح ألقى كل ما على رأسها وحشا شعرَها بذلك الكافور، وردَّ على رأسِها ما كان عليه من الدثار، وهبّتْ تستغيثُ من البردِ،

(1) البهق: إنما هو في الجلد شيء بمنزلة القشور (الرازي). البَهَقُ: بياض يعتري الجسد بخلاف لونه ليس من البَرَص (اللسان).

(2) أدرك الشاب: صار ناضجاً عاقلاً مكتمل البنية.

(3) تبدو لي الجملة الأخيرة أقرب إلى المحكية مما هي إلى الفصحى. يتسوق عليك بمعنى يغشك ويأخذ منك فلوساً.

(4) بروت الناقة وأبريتها: جعلت في أنفها برة. وناقة مبراة: في أنفها برة، وهي حلقة من فضة أو صفر تجعل في أنفها إذا كانت دقيقة معطوفة الطرفين، وربما كانت البرة من شعر فهي الخزامة،. والبرة هي واحدة البرين: الخلاخيل.

(5) القلنسوة هي غطاء للرأس.

(6) الخميلة هي القطيفة المخملة. والخَمِيل: الثِّياب المُخْمَلة.

(7) كافور رياحي: جنس من الكافور. واسم الكافور Camphor (الكينا) العلمي هو: Eucalyptus spp.

(8) عارية أي استعارة وإعارة. والعارِيّة والعارةُ: ما تداوَلُوه بينهم؛ وقد أعارَه الشيءَ وأعارَه منه وعاوَرَه إيَّاه. والمُعاوَرة والتَّعاوُر: شبه المُدَاوَلة والتّداوُل في الشيء يكون بين اثنين. بينما المكاري هو المأخوذ بالكراء، والمقصود أنه يريد كافورا مستعاراً استعارة، أو مُكْترى بثمن معلوم للكراء.

(9) أي باعة الطيب.

(10) وهذا يعني أن هذه الكمية من الكافور، المعارة أو المستأجرة، ستعود إلى بائع الطيب على أية حال بعد استخدامها.

فنامتْ لحظةً وانتبهتْ تشكو الحرَّ والكرب في رأسها حتى بقيَ على رأسها قناعٌ واحدٌ، ثم نفضَ شَعْرَها من ذلك الكافور، وذهبَ عنها البردُ، وصارت تتقنّع بقناعٍ واحدٍ".

الطريق من حلب إلى أنطاكية

ياقوت الحموي (معجم البلدان)[1]: " وقال ابن بُطْلاَن في رسالته التي كتبها في سنة 440 إلى ابن الصابئ:

وخرجنا من حلب إلى أنطاكية، فبتنا في بلدة للروم تعرف بـــ (عمّ) فيها عين جارية يُصادُ فيها السمكُ، ويدور عَليها رحىً. وفيها من مشاوير[2] الخنازير ومُباح النساء[3] والزنا والخمُور أمر عظيم. وفيها أربع كنائس وجامع يُؤذنُ فيه سرّاً".

ياقوت الحموي (معجم البلدان)[4]: "وقال ابن بُطلان في رسالة كتبها إلى بغداد إلى أبي الحسين هلال بن المحسن الصابئ في سنة نيف وأربعين وأربعمائة قال فيها:

وخرجنا من حلب طالبين أنطاكية، وبينهما يوم وليلة، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلاً، ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون. قُراها متصلة ورياضها مُزهرة ومياهها منفجرة يقطعها المسافر في بالٍ رخِي وأمنٍ وسكونٍ.

---

(1) المعجم، ط دار إحياء التراث، حرف العين، ص157.

(2) المشوار، المكان الذي تعرض فيه الدواب. ليَنْظُرَ كيفَ مِشْوارها، أي كيف سيرتُها، ومنه قولهم: إياك والخُطَبَ فإنّها مِشْوارٌ كثيرُ العِثارِ وهو مجاز. والمِشْوَار:المَنْظَر. وأخذت الدابة مِشْوَارها ومَشَارَتَها: سَمِنت وحسُنت هيئتها. والمِشْوَارُ: المخْبَرُ والمَنْظَرُ، يقال: فُلانٌ حَسَنُ المِشْوارِ والمِشْوارُ: ما أَبْقَت الدَّابَّةُ منْ علَفِها. مشاوير الخنازير إذن هي الأماكن التي تُعْرَض أو ترعى فيها الخنازير.

(3) يعني بمباح النساء: النساء البغايا.

(4) معجم البلدان، الجزء الأول، تحقيق: عبد الله بن يحيى السريحي، طبعة المجمع الثقافي أبو ظبي 2002 ص495-498. كما طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الجزء الأول، ص266-268.

وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل[1]، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس يُنفَذون من القسطنطينية من حضرة الملك يَضْمنون حراسة البلد سنة، ويُستَبْدَل بهم في السنة الثانية. وشَكْلُ البلد كنصف دائرة قُطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى ثُلته فتتم دائرة. وفي رأس الجبل، داخل السور، قلعةٌ تَبيْنُ، لبعدها من البلد، صغيرةً. وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلُع عليها إلا في الساعة الثانية، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب. وفي وسطها بيعة القُسيان، وكانت دار قُسيان الملك الذي أحيا ولده فُطْرُس رئيس الحوارين. وهو هيكل طولُه مائة خطوة، وعرضه ثمانون. وعليه كنيسةٌ على أساطينَ. وكان بدُوْرِ الهيكلِ أروقةٌ يجلس عليها القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة. على أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان[2] للساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة، وهو من عجائب الدنيا، وفي أعلاه خمس طبقات، في الخامسة منها: حماماتٌ وبساتين ومناظر حسنة تخرُّ منها المياه. وعلّة ذلك أن الماءَ يترل عليها من الجبل المطلِّ على المدينة.

وهناك من الكنائس ما لا يُحَدُّ، كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملوَّن والبلاط المجزَّع.

وفي البلد بيمارستان يُراعي البَطريك المَرضى فيه بنفسه، ويُدخلُ المجذمين[3] الحَمّامَ في كل سنة، فيَغسلُ شُعورهم بيده، ومثل ذلك يفعل الملك بالضعفاء كل سنة، ويُعينه على خدمتهم الأجلاء من الرؤساء والبطارقة التماس التواضُع.

وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة أخرى لذاذةً[4] وطيبةً، لأن وقُودها الآس ومياهها تَسعى سَيحاً بلا كُلفة[5].

(1) الفصِيل: حائط صغير أقلّ من الحِصن والسور (المعجم الوسيط).

(2) انظر ملاحظتنا عن هذه الكلمة في مكان أخر. يتوجب أن تُقرأ منجانة أو منجان. المثير للفضول أن محقق كتاب مثل (علم الساعات والعمل بها مع مجموع في الميكانيك الإسلامي) لرضوان محمد الساعاتي، تحقيق: محمد أحمد دهمان 1981 الذي يتضمن العمل على الساعات والعمل وبذيله مقالة عمل صندوق الساعات ومقالة أرشميدس في الساعات، يتضمن كذلك (مقالة في عمل الفنجان)، وهو يستعيد الخطأ نفسه لدى جمهرة من المؤلفين بتسمية المناجين بالفناجين.

(3) المصابون بمرض الجذام المعدي.

(4) لذاذةً: لذةً.

(5) بلا كُلفة، إضافة من ياقوت لا توجد عند القفطي.

وفي بيعة القُسيان من الخدم المُسترزقة ما لا يُحصى، ولها ديوان لدَخل الكنيسة وخرجها، وفي الديوان بضعة عشر كاتباً.

ومُنذ سنة وكَسْر[1]، وقعت في الكنيسة صاعقة، وكانت حالها أعجوبة[2]، وذلك أنه تكاثرت الأمطار في آخر سنة 1362 للإسكندر الواقع في سنة 442 للهجرة[3]، وتواصلت أكثر أيام نيسان، وحدث في الليلة التي صبيحتها يوم السبت الثالث عشر من نيسان رَعدٌ وبَرقٌ أكثر مما أُلفَ وعُهدَ وسُمع، في جُملته أصوات رعد كثيرة مَهولة أزعجت النفوسَ. ووقَعتْ في الحالَ صاعقةٌ على صَدفة[4] مخبأة في المذبح الذي للقُسيان ففَلَقتْ عن وجه النسرانية[5] قطعة تشاكل ما قد نُحت بالفاس والحديد الذي تُنْحَتُ به الحجارة. وسقط صليبُ حديد كان منصوباً عَلى علو هذه الصدفة وبقي في المكان الذي سقط فيه، وانقطع من الصدفة أيضاً قطعة يسيرة. ونزَلَت الصاعقة من منفذ في الصدفة وتَنْزُلُ فيه إلى المذبح سلسلة فضة غليظة يُعلق فيها الثميوطون[6]، وسَعة هذا المنفذ إصبعان، فقطَّعت السلسلة قطعاً كثيرة، وأنسبَك بعضها، ووُجد ما أنسَبَك منها مُلقَى على وجه الأرض.

وسقط تاجُ فضّة كان معلقاً بين يدي مائدة المذبح، وكان من وراء المائدة في غربيِّها ثلاثُ كراسٍ خشبية مربّعة مرتفعة يُنْصَب عليها ثلاثة صُلبان كبار فضة مذهَّبة مرصَّعة، وقُلع قبل تلكَ الليلة الصليبانَ الطرَفيان، ورُفعا إلى خزانة الكنيسة، وتُرك الوسطاني على حاله، فانكسَرَ الكرسيان الطرفيان، وتَشظيا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح وخارجه من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر في السلسلة، و لم ينل الكرسي الوسطاني ولا الصليب الذي عليه شيء.

---

(1) كسر أي وقليل من السنة، وما زال التعبير شائعاً في عامية العراق.

(2) هنا يورد ياقوت الحموي لوحده واقعة الصاعقة المثيرة التي ينقلها عن ابن بطلان كما سيشير في النهاية.

(3) وهو الموافق لسنة 1051 الميلادية.

(4) والصَّدَفُ: المَحارُ، واحدته صَدَفَةٌ. غِشاء خَلْقٍ في البحر تضمّه صَدَفَتانِ مَفْرُوجَتانِ عن لحم فيه روح يسمى المَحارَةَ، وفي مثله يكون اللؤلؤ. وهو غِلافُ اللُّؤلؤِ وهو من حيوان البحر (اللسان). علي أنني أظن أنه يتحدث عن مرمر أو رخام أو ما شابه.

(5) النسرانية: أحسب أنه يتحدث عن رسم أو منحوتة بارزة أو شعار كبير للنسر في الكنيسة. كان النسر شعار الدولة في العهد البيزنطي. ويعني اسم ألبانيا بلغة أهلها (أرض النسر)، وقد أضيف النسر لعلم ألبانيا الوطني بعد استقلالها عن الدولة العثمانية.

(6) الثميوطون: لم يشرح محققو (معجم البلدان) هذه المفردة، وفي يقيني أنها نوع من المصابيح الكنسية. يذكر عبد الله بن يحيى السريحي محقق (معجم البلدان)، طبعة المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ص496 أن المخطوطة (ب) من المعجم تكتبه (الشميوطون) بالشين.

وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التي تحمل القبة الفضة التي تغَطي مائدة المذبح ثوب ديباج ملفوف على كل عمود فتقطع كل واحد منها قطعاً كباراً وصغاراً، وكانت هذه القطع بمزلة[1] ما قد عَفنَ وتَهَرأ، ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يَلحق المائدة ولا شيئاً من هذه الملابس التي عليها ضررٌ ولا بان فيها أثرٌ، وانقطع بعض الرخام الذي بين يدي مائدة المذبح مع ما تحته من الكَلس والنورة كقطع الفاس، ومن جملته لوح رخام كبير طَفَرَ من موضعه، فتكسر إلى علو تربيع القبة الفضة التي تغطي المائدة، وبقيت هناك على حالها، وتطاير بقيّة الرخام إلى ما قَرُبَ من المواضع وبَعُد. وكان في المُجَنَّبة[2] التي للمذبح بكرة خشب فيها حبلُ قُنَّب[3] مجاورٌ للسلسلة الفضة التي تقطعتْ وانسبك بعضها معلق فيها طبق فضة كبير عليه فراخ قناديل زجاج بقي على حاله، ولم ينطفئ شيء من قناديله ولا غيرها ولا شمعة كانت قريبة من الكرسيين الخشب ولا زال منها شيء.

وكان جملة هذا الحادث مما يُعجَب منه، وشاهدَ غيرُ واحد في داخل أنطاكية وخارجها في ليلة الاثنين الخامس من شهر آب من السنة المقدَّم ذكرها في السماء شبه كوة، ينوِّر منها نورٌ ساطعٌ لامعٌ ثم انطفأ، وأصبح الناس يتحدثون بذلك، وتوَالت الأخبار بعد ذلك بأنه كان في أول نهار يوم الاثنين في مدينة غُنجُرة[4] وهي داخل بلاد الروم على تسعة عشر يوماً من أنطاكية زلزلة مهولة تتابعت في ذلك اليوم، وسَقَط منها أبنية كثيرة، وخُسِف موضع في ظاهرها.

وكان هناك كنيسة كبيرة وحصن لطيف غابا حتى لم يبق لهما أثر، ونَبَعَ من ذلك الخسف ماء حار شديد الحرارة كثير المنبع المتدفْق، وغرق منه سبعون ضيعة، وتهارب[5] خلق كثير من تلك الضياع إلى رؤوس الجبال والمواضع المرتفعة العالية،

(1) مزلة: كذا وردتْ في نص المعجم المطبوع. وأحسبها (مَنْزِلة)، لأن المَزَلَّة والمَزِلَّة، بكسر الزاي وفتحها: هو موضع الزَّلَل.
والمَزَلَّة: الزَّلَل، المَزَلَّة مَفْعَلة من زَلَّ يَزِلُّ إذا زَلِق.

(2) المُجَنَّبةُ، بالفتح: المُقَدَّمةُ.

(3) قُنَّب: نبات حولي زراعي من الفصيلة القنبيّة، تُفتل لحاؤه حبالاً، والقنَّب الهندي نوع منه يُستخرج منه المخدّر المعروف بالحشيشة.

(4) القزويني (آثار البلد):" غُنْجُرة: مدينة في داخل الروم. بها نهر يسمى المقلوب لأنه آخذ من الجنوب إلى الشمال بخلاف سائر الأنهار. حكي عنها انه وقعت بها في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ليلة الاثنين الخامس من آب زلزلة هائلة، وتتابعت إلى اليوم. سقط منها أبنية كثيرة، وخسف هناك حصن وكنيسة حتى لم يبق لهما أثر، وتبع من ذلك الخسف ماء حار كثير شديد الحرارة، حتى غرق منه سبعون ضيعة، وهرب خلق كثير من أهل تلك الضياع إلى رؤوس الجبال، وبقي ذلك الماء على وجه الأرض تسعة أيام ثم نضب". تبدو صياغات القزويني وكأنها مستلة من هذا المقطع من رحلتنا.

(5) تهارب: هرب.

فسَلمُوا، وبقيَ ذلك الماء على وجه الأرضِ سبعة أيام، وانبَسطَ حول هذه المدينة مسافة يومين ثم نَضَبَ، وصار موضَعه وَحَلاً. وحضر جماعة ممنْ شاهَدَ هذه الحال فحدّثوا بها أهل أنطاكية على ما سَطّرتَه، وحكوا أن الناس كانوا يُصعدون أمتعتهم إلى رأس الجبل فيضطرب من عظم الزلزلة فيتَدَحرَج المتاع إلى الأرض.

وفي ظاهر البلد نهر يُعرف بالمقلوب[1] يأخذ من الجنوب إلى الشمال وهو مثل نهر عيسى وعليه رحى ويسقي البساتين والأراضي. آخر ما كتبناه من كتاب ابن بُطلان.

وصف دير سمعان في أنطاكية

ياقوت الحموي (معجم البلدان)[2]: "وقال ابن بُطلان في رسالته:

وبظاهر أنطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد، يُضاف[3] به المجتازون، وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة. وقيل إن دخله في السنة أربعمائة ألف دينار، ومنه يُصْعَدُ إلى جبل اللُّكام، وقال يزيد بن معاوية:

(شطر من البسيط)

بـــــدَير سمعــــــانَ عنــــــدي أمُ كلثــــــومِ

هذه رواية قوم والصحيح إن يزيد إنما قال بدير مرَان، وقد ذُكر في موضعه[4]،

---

(1) المقلوب هو نهر العاصي.

(2) المعجم، طبعة دار إحياء التراث العربي؟، حرف الدال ص517.

(3) يُضاف أي يُستضاف.

(4) في موضعه من كتاب ياقوت (معجم البلدان). ولا أدري فيما إذا كان ابن أبي أصيبعة ينقل الجملة الأخيرة عن ابن بطلان.

ياقوت الحموي (معجم البلدان)[1]: "وذكرها ابن بُطلان الطبيب في رسالته إلى هلال بن المحسِّن فقال:

وبين الرُصافة[2] والرحبة مسيرة أربعة أيام. قال [أي ابن بطلان]: وهذا القصر، يعني قصر الرصافة[3]، حصنٌ دونَ دار الخلافة[4] ببغداد، مبنٌّ بالحجارة، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفصّ المذهَّب[5] أنشَأه قسطنطين بن هيلانة[6]. وجدّدَ الرصافةَ وسَكَنَها هشام بن عبد الملك[7]، وكان يفزعُ إليها من البقِّ في شاطئ الفرات. وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة معقودٌ على أساطين الرُخام، مبلَّطٌ بالمرمر، مملوءٌ من ماء المطر.

وسُكان هذا الحصن بادية أكثرهم نصارى، معاشهم تخفير[8] القوافل، وجَلْب المتاع والصعاليك مع اللصوص. وهذا القصر في وسط برية مستوية السطح لا يرد

(1) المعجم، ط دار أحياء التراث، حرف الراء، ص47-48.

(2) المقصود رصافة هشام في الشام وليس الجانب الشرقي من دجلة في مدينة بغداد.

(3) هو قصر الرصافة التي أحدثها هشام بن عبد الملك.

(4) دارِ الخلافة العباسية في بغداد يصفها الصابئ بأنها كانت داراً عظيمة السعة، وأضعاف ما كانت على زمانه وإنها كانت متّصلة بقصري الحَيْر والثريا، اللذين انفصلا عنها بسبب الحرائق والهدم من الدور والمنازل والبنيان عند خلع المقتدر والقبض على القاهر بالله وقتل أبو الهيجاء بن حمدان وغيرها من الحوادث. وكان فيها مزارع وبستانيون وحيوانات تُستخدم للزرع وأربعمائة حمّام. وفي أيام المكتفي بالله اشتملت دار الخلافة على عشرين ألف غلام دارية وعشرة آلاف خادم أسود وصقالبة..الخ. انظر (رسوم دار الخلافة) ص7-8.

(5) أظنه يقصد الفسيفساء.

(6) قسطنطين الأكبر (280 – 337م): إمبراطور روماني وأول إمبراطور روماني مسيحي، وبسبب اعتناقه للمسيحية وتشجيعه لها انتشرت فكان صاحب أعظم دور في تحويل المسيحية من مجرد عقيدة تلقى الاضطهاد إلى دين رسمي مسيطر على الملايين، ولد قسطنطين في قرية نييسى في البلاد المسماة الآن يوغوسلافيا، وأمضى قسطنطين جل شبابه يحارب لنيل التاج الإمبراطوري الروماني، وانتهت هذه الحروب في سنة 313 وذلك عندما هزم قسطنطين آخر منافسيه ماكسنيتوس في معركة شهيرة بالقرب من روما، ومن العجيب أن يقال بأن هذا الإمبراطور في ليلة معركته مع خصمه الأخير بالقرب من روما رأى في السماء صليبا مضيئا ومعه هذه العبارة: باسم الصليب سوف تنتصر، وفيما بعد ودون إدراك واضح انتصر، وأصبح الإمبراطور قسطنطين من أشد الناس إيمانا بالمسيحية ودعوة لها، وإصدار قراره الشهير في مدينة ميلانو، وبذلك أصبحت المسيحية دينا معترفاً به، وأعاد للمسيحيين كل حقوقهم و ممتلكاتهم، وفي عصره بنيت أشهر كنائس العالم: كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس وقام بإعادة بناء وتوسيع مدينة بيزنطة القديمة، والتي أطلق عليها اسم القسطنطينية نسبة إلى اسمه وجعلها عاصمة له وهي الآن مدينة اسطنبول عاصمة تركيا سابقا. كان أمر المسيحيين ضعيفا حتى اعتنق الإمبراطور "قسطنطين" المسيحية، وجعلها الدين الرسمي للحكومة، حينها زارت أمه الملكة "هيلانة" مدينة إيلياء (القدس) في سنة 326م، وأخذت تفتش عن المكان الذي صُلب فيه المسيح، والمكان الذي قُبر فيه– حسب العقيدة المسيحية– فأمر ابنها ببناء كنيسته بعد أن هدم هيكل فينوس. انظر إضافة أخرى لترجمته في هذا الكتاب.

(7) هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة 92 من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير، وأمه عائشة بنت هشام بن المخزومية. وكان حين مات أخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول سنة 125 أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بني أمية.

(8) تخفير القوافل أي حراستها خفيراً عليها.

البصر من جوانبها إلا الأفق. ورحلنا منها إلى حلب في أربع رحلات. وكان ابن بُطلان كتب هذه الرسالة في سنة 440[1]".

صداقات في أنطاكية

ابن أبي أصيبعة[2] (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): ""نقلت من خط ابن بطلان في مقالته في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها، ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء، قال:

حدثني الشيخ الفاضل أبو الفرج يحيى بن سعيد بن يحيى الطبيب بأنطاكية قال: وهذا السيّدُ في زماننا عَلَمٌ في العِلْمِ، مقدَّم في الديانة والمروءة، وله تصانيف جليلة".

كتابة مقالة في أنطاكية سنة 455 هـ

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) يذكر أن ابن بطلان كتب: "مقالة في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج واللقوة والاسترخاء[3] وغيرها، ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء في الكُنَّانيش[4] والاقراباذينات[1]، وتدرجهم في ذلك بالعراق

(1) يخيّل لي أن كلام ياقوت يختلط، قليلاً، بكلام ابن بطلان في مجمل الاستشهاد الذي يقوم به ياقوت.

(2) ابن أبي أصيبعة (1203–1270): طبيب دمشقي. هو يوسف بن أبي قاسم بن خليفة الخزرجي. ولد في دمشق أيام الملك العادل ودرس في دمشق والقاهرة. انتقل سنة 1236 إلى صلخد، جنوب سورية، وانخرط في خدمة صاحبها الأمير عز الدين أيبك. اشتهر بكتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وهو من أهم مراجع تاريخ الطب العربي، فيه ترجمة لما يزيد عن خمسمائة طبيب، معظمهم من العرب.

(3) المصطلحات الثلاثة مشروحة آنفاً.

(4) والكُنَاشَاتُ: الأُصُولُ التي منها يَنْشَعِبُ الفُرُوْعُ. الكُنَاشَة: هي الأوراق تُجعل كالدفتر تقيّد فيه الفوائد والشوارد.

> وما والاها على استقبال سنة سبع وسبعين وثلثمائة وإلى سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وصنَّف ابن بطلان هذه المقالة بانطاكية في سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وكان في ذلك الوقت قد أهل لبناء بيمارستان أنطاكية".

القزويني ينقل عن ابن بطلان من دون تسميته

> القزويني[2] (آثار البلاد وأخبار العباد)[3]: "أنطاكية مدينة عظيمة من أعيان المدن على طرف بحر الروم بالشام. موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وفي داخلها مزارع وبساتين. وأنها بنتها أنطاكية بنت الروم بن اليقن بن سام بن نوح عليه السلام

ذات سور وفصيل. ولسورها ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها أربعة آلاف حارس من عند صاحب القسطنطينية يضمنون حراستها سنةً ويستبدل بهم في السنة الثانية، وسورها مبني على السهل والجبل من عجائب الدنيا. دورتها اثنا عشر ميلاً، وكل برج من أبراجها منزل بطريق، فسكنه بخدمه وخوله، وجعل كل برج طبقات: أسفله مرابط الخيل وأوسطه منزل الرجال وأعلاه موضع البطريق. وكل برج كحصن عليه أبواب حديد، وفيها ما لا سبيل إلى قطعه من الخارج. والمدينة دائرة نصفها سهليٍ ونصفها جبلي وقطر الدائرة فاصلة بين السهلي والجبلي. ولها قلعة عالية جداً تتبين من بعد بعيد تستر الشمس عن المدينة، فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية. وبها بيعة القُسيان وهو الملك الذي أحيا ولده رئيس الحواريين فطرس كما جاء في القصة في قوله تعالى: "واضرب لهم مثلاً

---

(1) الكلمة اليونانية أقراباذين أو أقربازين معناها التركيب، أي تركيب الأدوية المفردة وقوانينها. من بين أقدم طرق التأليف في كتب التراكيب العربية، يوجد الكتاب الطبي الصيدلي المسمى أقراباذين. في هذا النوع من التأليف يوجد عادة مجموعة من التراكيب المستعملة لأمراض مختلفة. على الرغم من أن أبرز خواصها هو أن استعمالها العلاجي يكون جزئيا، ويقتصر على عرض تركيب الوصفات المختلفة، وطريقة إعدادها

(2) هو أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني. ولد بقزوين في حدود سنة 605 للهجرة، وتوفي سنة 682 هـ، اشتغل بالقضاء مدة، ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في الحقول العلمية. ففقد شغف بالفلك، والطبيعة، وعلوم الحياة، ولكن أعظم أعماله شأناً هي نظرياته في علم الرصد الجوي. أشهر مؤلفات القزويني مصنَّفُهُ (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) ثم كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) المُسْتَشْهَد به هنا.

(3) ينقل القزويني حرفياً عن ابن بطلان أو عن مَنْ نقل عنه، ويخلط نصه بنص ابن بطلان مُضيفاً أو حاذِفاً منه. مرات يكون المعنى لابن بطلان والكلام للقزويني.

أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون"، وعلى باب بيعة القسيان صحنان[1] لساعات الليل والنهار يعمل كل واحد اثنتي عشرة ساعة. وفي بيعة القسيان من الخدم والمُسترزقة ما لا يحصى، ولها ديوان فيه بضعة عشر كاتباً. والمدينة خمس طبقات على الطَبقة الخامسة الحمامات والبساتين ومناظر حسنة وسبب ذلك أن الماء يترل من الجبل المطل عليها، وقد عملوا على الماء الحمامات والبساتين. وفيها من الكنائس ما لا يُعدّ كلها معمولة بالفصّ المذهّب والزجاج الملوّن والبلاط المجزَّع. وحماماتها أطيب الحمامات لان ماءها العذب السيح ووقودها الآس".

القزويني (آثار البلاد وأخبار العباد): "اللاذقية: مدينة من سواحل بحر الشام عتيقة، سميت باسم بانيها رومية، وفيها أبنية قديمة، ولها مرقاة جيدة وقلعتان متصلتان على تل مشرف على ربضها، ملكها الفرنج فيما ملكوه من بلاد الساحل في حدود سنة خمسمائة.

وللمسلمين بها جامع وقاض وخطيب،

فإذا أذن المسلمون ضرب الفرنج بالناقوس غيظاً، قال المعري:

(مجزوء الكامل)

باللاّذقيّـــــــة فتنـــــــــةٌ ما بـــين أحمـــد والمـــسيحْ

هـــــذا يعـــــالج دلبَـــــهُ والشّيخُ من حنقٍ يـــصيحْ!

أراد بالدلب الناقوس وبالصياح الأذان.

قال ابن رطلين[2] [يقصد ابن بطلان]: رأيت باللاذقية أعجوبة، وذلك أن المُحْتَسِب يجمع الفواجر والغرباء المؤثرين للفجور في حلقته، وينادي على واحدة

(1) وهذا تصحيف آخر إما لفنجان أو منجان (ساعة رملية)، وهو ما سبق وأن شرحناه في الصفحات السابقة.

(2) رطلين هو، من دون شك، تصحيف لابن بطلان، بسبب خط النسخ الذي يبدو أن مخطوطات القزويني قد كُتبت به.

ويتزايدون، حتى إذا وقف سلمها إلى صاحبها مع ختم المطران. وهو يأخذها إلى الفنادق، فإذا وجد البطريق إنساناً لم يكن معه ختم المطران ألزمه جناية،

فلما كانت سنة أربع وثمانين وخمسمائة استرجعها صلاح الدين يوسف، وهي إلى الآن في يد المسلمين".

ابن بطلان في مصر وخلافاته مع بن رضوان

حوادث في القسطنطينية ونبوءات عن مصر والشام والعراق

ابن خلكان (وفيات الأعيان): "علي بن رضوان بن علي بن جعفر أبو الحسن المصري رئيس الأطباء للحاكم صاحب مصر. لم يكن له معلم في صناعة الطب ينسب إليه، وله مصنف في أن التعلم من الكتب أوفق من المعلّمين. ورد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد.

علي بن رضوان [كتب] مقالة في أن ابن بطلان لا يعرف كلام نفسه فضلاً عن كلام غيره. [و] رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بطلان والردّ عليه.

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "وكان ابن بطلان معاصراً لعلي بن رضوان الطبيب المصري، وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغربية، و لم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه، ويسفه رأيه فيه، وقد رأيت أشياء من المراسلات التي كانت فيما بينهم، ووقائع بعضهم في بعض.

وسافر ابن بطلان من بغداد إلى ديار مصر قصداً منه إلى مشاهدة علي بن رضوان والاجتماع به، وكان سفره من بغداد في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، ولما وصل في طريقه إلى حلب أقام بها مدة وأحسن إليه معز الدولة ثمال بن صالح[1] بها وأكرمه إكراماً كثيراً، وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وأقام بها ثلاث سنين، وذلك في دولة المستنصر باللّه[2] من الخلفاء المصريين. وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت، ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة، وقد تضمّنَ كثيراً من هذه الأشياء كتابٌ ألّفَهُ ابن بطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعه بابن رضوان. ولابن رضوان كتاب في الرد عليه، وكان ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به، ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي وسمها (دعوة الأطباء). وكان ابن رضوان أطبّ، وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها.

وكان ابن رضوان أسود اللون و لم يكن بالجميل الصورة، وله مقالة في ذلك يرد فيها على غيره بقبح الخلقة، وقد بيَّن فيها، بزعمه، أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون وجهه جميلاً، وكان ابن بطلان أكثر ما يقع في علي بن رضوان من هذا القبيل وأشباهه، ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها دعوة الأطباء:

(الطويل)

فلما تبدى للقوابـــــل وجـــهـــــه نكصن على أعقــابهن مـــن النَـــدَمْ

(1) وردت ترجمته آنفاً.

(2) المستنصر: هو الخليفة الفاطمي الثامن، ملك 85 سنة.

وقلن وأخفـين الكـلام تـستّراً: ألا ليتنا كنا تركنـاه في الـرَحِمْ[1]

وكان يلقبه بتمساح الجن.

وسافر ابن بطلان من ديار مصر إلى القسطنطينية، وأقام بها سنة، وعرضت في زمنه أوباء كثيرة. ونقلت من خطه فيما ذكره من ذلك ما هذا مثاله، قال:

ومن مشاهير الأوباء[2] في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الأثاري في الجوزاء من سنة ست وأربعين وأربعمائة[3]، فإن في تلك السنة دفن في كنيسة لوقا[4] بعد أن امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية[5] أربعة عشر ألف نسمة في الخريف، فلما توسط الصيف في سنة سبع وأربعين[6] لم يوف النيل، فمات في الفسطاط والشام أكثر أهلها، وجميع الغرباء إلا من شاء اللّه، وانتقل الوباء إلى العراق فأتى عل أكثر أهله، واستولى عليه الخراب بطروق[7] العساكر المتعادية، واتصل ذلك بها سنة أربع وخمسين وأربعمائة[8]، وعرض للناس في أكثر البلاد

(1) البيتان هما دليل آخر على أن (دعوة الأطباء) تستهدف ابن رضوان مباشرة.

(2) الأوباء: الأوبئة.

(3) سنة 446 الهجرية توافق سنة 1055 الميلادية.

(4) كان لوقا أحد الأربعة الذين كتبوا "الإنجيل". وكان لوقا طبيباً من أصل يوناني، درس ومارس الطب. وكان رجل علم وذا ثقافة عالية ومقدرة أدبية كبيرة. و لقد كتب أنجيله نحو سنة 60 ميلادية.

(5) كانت القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، تحتل موقعاً استراتيجياً منيعاً، بين أوروبا وآسيا، على سلسلة المضائق التي تصل بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، تحدّها من الشرق مياه البوسفور، ومن الغرب مياه بحر مرمرة، ويحيطها سورٌ واحد من تلك الجهات. أما الجانب الغربي، وهو الذي يتصل بالقارة الأوروبية، فيحميه سوران طولهما نحو ستة كيلو مترات. ونظراً لهذه الميزات فقد راود حلم فتح تلك المدينة عدداً من الحكّام المسلمين الذين قاموا بعدة حملات لتحقيق تلك المهمة، ابتداءً من عهد حكّام بني أمية. ثم تجدد الحلم في مطلع عهد العثمانيين، وملك على سلاطينهم ذلك الأمر، فحاصرها كل من بايزيد الأول ومراد الثاني، ولم يتحقق ذلك إلا على يد محمد الثاني الذي لُقّب بمحمّد الفاتح. ولد محمد الثاني عام 835هـ/1432م، ونشأ في كنف أبيه السلطان مراد الثاني سابع سلاطين الدولة العثمانية.وبعد وفاة أبيه عام 855هـ/1451م، تولى السلطنة وهو شاب في أوائل العقد الثالث من عمره. منذ تولّيه السلطة باشر محمد الثاني استعداداته لفتح القسطنطينية فجهز الفرق العسكرية، وزوّدها بالأسلحة، وبنى المدافع الثقيلة، وعندما انتهى من تجهيز جيشه سار إلى تلك المدينة. وصل السلطان العثماني إلى الجهة الغربية للقسطنطينية يوم الجمعة 12 رمضان 855هـ/5 نيسان ـ أبريل 1453م، وبدأ حصارها الفعلي في اليوم التالي. استمرّ الحصار بطيئاً ومرهقاً للجيشين حتى فجر يوم الثلاثاء 20 جمادى الثانية 855هـ/29 أيار ـ مايو 1453م، حين شنّ الجيش العثماني هجوماً كبيراً استمرّ عدة ساعات ليسيطر على المدينة في اليوم التالي. قرّر محمد الثاني اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية، وأطلق عليها اسم "إسلام بول" أي "دار الإسلام"، ثم حُرّف هذه الاسم واشتهرت المدينة باسم "إستانبول". وبالطبع كانت القسطنطينية في زمن ابن بطلان عاصمة للدولة البيزنطية بعد.

(6) وهي توافق سنة 1056 الميلادية.

(7) طروق: من طرق ومرّ، أي مرور العساكر في الطرق.

(8) وهي توافق سنة 1063 الميلادية.

قروح[1] سوداوية وأورام الطحال، وتغير ترتيب نوائب الحميات[2]، واضطرب نظام البحّارين[3]، فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة.

وقال أيضاً بعد ذلك:

ولأن هذا الكوكب الأثاري طلع في برج الجوزاء- وهو طالع مصر- أوقع الوباء في الفسطاط بنقصان النيل في وقت ظهوره في سنة خمس وأربعين وأربعمائة[4]، وصح إنذار بطليموس[5] القائل "الويل لأهل مصر إذا طلع أحد ذوات الذوائب، وانجهم[6] في الجوزاء". ولما نزل زُحَل[7] برج السرطان[8] تكامل خراب العراق والموصل[9] والجزيرة[10]، واختلت ديار بكر وربيعة ومضر وفارس وكرمان[11] وبلاد المغرب واليمن والفسطاط والشام، واضطربت أحوال ملوك الأرض، وكثرت الحروب والغلاء والوباء، وصحّ حكم بطليموس في قوله: "إن زحل والمريخ متى اقترنا في السرطان زلزل العالم".

ونقلتُ أيضاً[12] من خط بن بطلان، فيما ذكره من الأوباء العظيمة العارضة للعلم بفقد العلماء في زمانه قال:

---

(1) قَرِحَ الرجلُ يَقْرَحُ قَرْحاً، وقيل: سمِّيت الجراحات قَرْحاً بالمصدر، والصحيح أن القَرْحةَ الجِراحةُ، والجمع قَرْحٌ وقُروح. ورجل مَقْروح: به قُرُوح. والقَرْحة: واحدة القَرْحِ والقُروح (اللسان). والقروح هي الالتهابات.

(2) الحميات الإصابات الخمجية الحادة (الحميات)، أمراض الحمّى.

(3) البحاّرون هم البحّارة بالطبع.

(4) وهو يوافق سنة 1054 الميلادية.

(5) بطليموس (100-170 م). العالِم الفلكي والرياضي اليوناني، الذي سيطرت نظرياته وتفسيراته الفلكية على الفكر العلمي حتى القرن السادس عشر، عرف بطليموس في مساهماته في حقل الرياضيات والبصريات والجغرافيا. من المحتمل أن بطليموس وُلِد في اليونان، ولكن اسمه الحقيقي "كلوديوس بطوليمايوس" يعكس حقيقتين: "بطوليمايوس" يشير بأنه كان مقيماً في مصر، و "كلوديوس" يُبيّن مواطنيته الرومانية. وهناك مصادر قديمة تخبر بأنه عاش وعمل في الإسكندرية، في مصر غالب حياته.

(6) انجهم: أصبح جهماً، وهو الكالح من الوجوه.

(7) كوكب تحيط به منطقة نيّرة..

(8) السرطان هو البرج الرابع من أبراج السماء.

(9) الموصل: مدينة في العراق لُقِّبتْ بالحدباء، تقع على نهر دجلة قريباً من أنقاض نينوى الآشورية.

(10) الجزيرة: بلاد بين نهري دجلة والفرات وتعرف ببلاد ما بين النهرين. القسم الشمالي الغربي منها يسمّى الجزيرة، والجنوبي الشرقي العراق.

(11) كرمان: قاعدة إقليم كرمان في إيران.

(12) ونقلتُ: أي أن الكلام ما زال متَّصلاً لابن أبي أصيبعة.

ما عرض في مدة بضع عشرة سنة بوفاة الأجلّ المرتضى[1] والشيخ أبي الحسن البصري[2]، والفقيه أبي الحسن القدوري[3]، وأقضى القضاة الماوردي[4]، وابن الطيب الطبري[5]، على جماعتهم رضوان اللّه؛ ومن أصحاب علوم القدماء أبو علي بن الهيثم[6] وأبو سعيد اليمامي[7]، وأبو علي بن السمح[8]، وصاعد الطبيب[9] وأبو الفرج عبد اللّه بن الطيب[10]؛ ومن متقدمي علوم الأدب والكتابة علي بن عيسى الربعي[11]، وأبو الفتح النيسابوري[12]، ومهيار الشاعر[13]، وأبو العلاء بن نزيك[14]، وأبو علي بن موصلايا[1]، والرئيس أبو الحسن الصابئ[2]، وأبو العلاء المعري[3]، فانطفأت سرج العلم وبقيت العقول بعدهم في الظلمة.

---

(1) وردت ترجمته آنفاً.

(2) في النص المطبوع الحسن لكنني أظنه يقصد أبو الحسين البصري وهو محمد بن علي بن الطيب البصري. أبو الحسين. أحد أئمة المعتزلة المشار إليهم في فن الاعتزال كان جيد الكلام، مليح العبارة، إمام وقته. له تصانيف فائقة في أصول الفقه منها: المعتمد، ومنه أخذ الفخر الرازي كتاب (المحصول في علم الأصول) وله أيضا كتاب (تصفح الأدلة) وشرح الأصول الخمسة وغرر الأدلة، وكتاب في (الإمامة) وغير ذلك. توفي 436 للهجرة.

(3) الشيخ أبي الحسن أحمد بن حمدان البغدادي الحنفي القدوري إمام الحنفية في وقته (972م–1037م). نُسِب إلى صناعة القدور. توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة للهجرة.

(4) علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن البصري ثم البغدادي، الماوَرْدي، المُلَقّب بـــ (أقضى القضاة) (991م– 1031م). فقيه شافعي وُلد سنة أربعٍ وستين وثلاثمائة، وتفقّه على أبي القاسم الصيمري بالبصرة وعلى أبي حامد الاسفراييني ببغداد. وحدّث عن: الحسن بن علي الجَبَلي، ومحمد بن عدي المنْقري، ومحمد بن المعلّى الأَزدي، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي. ولي القضاء ببلدان شتّى، ثم سكن بغداد. وكان من وجوه فقهاء الشافعية، حافظاً للمذهب، ذا منزلة عند ملوك بني بُويْه. درّس بالبصرة وبغداد سنين، فروى عنه الخطيب، وأبو العزّ بن كادش، وابن بدران الحُلواني.

(5) أبو الطيب الطبري (959م– وتوفي بعد سنة 408 الهجرية أي بعد 1018م): هو طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمري الطبري. أبو الطيب. ولد بآمل. وهو قاض فقيه شافعي، سمع الحديث في بلده ودرس الفقه على فقهاء نيسابور ثم رحل إلى بغداد فدرس على أبي حيان الإسفراييني وسمع الحديث من الدارقطني وغيره، وكان له مساجلة مع أبي العلاء المعري حين وافي بغداد أوردها ابن الوردي في كتابه (تتمة المختصر في تاريخ البشر). ولي القضاء في الكرخ بعد أبي عبد الله الصيمري، وكان ثقة ورعا، عالما بأصول الفقه وفروعه. كان فقيراً. تجاوز المائة عند وفاته.

(6) هو محمد بن الحسن بن الهيثم البصري. أبو علي. من أعاظم علماء العرب في الهندسة والعلوم الطبيعية. كان يلقب ببطليموس الثاني، ويعرف عند الأوروبيين باسم al hazem. مات فقيرا معدما لم يترك وراءه مالا. في تاريخ وفاته خلاف، فالبعض يجعله سنة 431 هـــ والبعض يجعله سنة 329 هـــ.

(7) كان مشهوراً بالفضل والمعرفة متقناً لصناعة الطب جيداً في أصولها وفروعها حسن التصنيف، ولأبي سعيد اليمامي من الكتب شرح مسائل حنين مقالة في امتحان الأطباء وكيفية التمييز بين طبقاتهم.

(8) أبو علي بن السمح، كان له دكان (إذ كان وراقا) في باب الطاق في بغداد. وهو الذي دوّن تعليم يحيى في "السماع الطبيعي" لأرسطو. توفي سنة 418هـ/1027م

(9) وردت له ترجمة آنفاً في هذا الكتاب.

(10) وردت له ترجمة آنفاً في هذا الكتاب.

(11) أبو الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي البغدادي المتوفى سنة 420 هـــ عن نيف وتسعين سنة.

(12) عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن أبي صادق النيسابوري. أبو القاسم. حكيم من الأطباء، يلقب بسقراط الثاني. فسَّر كتب جالينوس بكثير من الجودة والإتقان. اجتمع بالشيخ الرئيس ابن سينا وقرأ عليه وكان من جملة تلاميذه والآخذين عنه. وهو ليس أبو الفتح النيسابوري، من معاصري أبي حامد الغزالي، لأن هذا توفي سنة 517 هجرية.

(13) هو مهيار بن مرزويه الديلمي. أبو الحسن، ت 1036م، من أهل بغداد. جمع بين فصاحة العرب ومعاني العجم. فارسي الأصل، مجوسي الديانة. تتلمذ على الشريف الرضي سنة 394 فأسلم على يديه، وعليه تخرج وبه كان يقتدي. تشيع وغلا في تشيعه.

(14) لم أقع له على ترجمة.

أقول: ولابن بطلان أشعار كثيرة، ونوادر ظريفة، وقد ضمن منها أشياء في رسالته التي وسمها (دعوة الأطباء)، وفي غيرها من كتبه. وتوفي ابن بطلان و لم يتخذ امرأة، ولا خلَّفَ ولداً، ولذلك يقول من أبيات:

(الطويل)

ولا أحـــدٌ إن مـــتُّ يبكـــــي سوى مجلسي في الطـــبّ والكُتْـــبِ

شمس الدين الذهبي[5] (تاريخ الإسلام): "في سنة ثلاث وخمسين (..) نقصان النيل وتزايد الغلاء والوباء، وقال المختار بن بطلان:

نقص النيل في هذه السنة وتزايد الغلاء، وتبعه وباء شديد. وعظم الوباء في سنة سبع وأربعين، ثم ذكر [أي ابن بطلان]: أن السلطان كفن من ماله ثمانين ألف نفس، وأنه هلك ثمانمائة قائد. وحصل للسلطان من المواريث مالٌ جليل"[6].

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "ونقلتُ من خطّ المختار بن الحسن بن بطلان:

أن الغلاء عَرَض بمصر في سنة خمس وأربعين وأربعمائة. قال [أي ابن بطلان]: ونقص النيل في السنة التي تليها، وتزايد الغلاء، وتبعه وباء عظيم، واشتد وعظم في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وحكي أن السلطان كفن من ماله ثمانين ألف نفس، وأنه فقد ثمانمائة قائد، وحصل للسلطان من المواريث مال جزيل".

(1) كان أبو علي ابن موصلايا، كاتباً للوزير المغربي (370 ـــ 418 هـــ) وهو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف، العالم الإمامي الأديب، المعروف بالوزير المغربي.

(2) وردت له ترجمة آنفاً في هذا الكتاب.

(3) وردت له ترجمة آنفاً في هذا الكتاب.

(4) ابن ألأبي أصيبعة، الصفحات 325-328.

(5) هو الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى عام 748 هـــ (1345 م).

(6) هذه الفقرة تدلّ بما لا يدع مجالاً للشك أن ابن بطلان قد دون مشاهداته في مصر ولم يقتصر على بلاد الشام.

ابن بطلان يؤلف بحثاً طبياً في القاهرة

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) يذكر أن ابن بطلان كتب "مقالة في الاعتراض على من قال أن الفرخ أحرّ من الفروج بطريق منطقية، ألّفها بالقاهرة في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة".

سجالات ابن بطلان في مصر

ابن العبري[1] (مختصر تاريخ الدول): " وابن بطلان هذا فهو طبيب نصراني بغدادي، وكان مشوه الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه، وفَضُلَ في علم الأوائل. وكان يرتزق بصناعة الطب. وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر، ودخل حلب وأقام بها مدةً وما حمدها، وخرج عنها إلى مصر، فأقام بها مدّة قريبة، واجتمع بابن رضوان المصري الفيلسوف في وقته، وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة. وخرج ابن بطلان عن مصر مُغْضبَاً على ابن رضوان، وورد إنطاكية، وأقام بها، وقد سَئمَ كثرة الأسفار، وضاق عطنه[2] عن معاشرة الأغمار، فغلب على خاطره الانقطاع، فنزل بعض الأديرة بإنطاكية، وترهّب وانقطع إلى العبادة إلى أن توفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة. ومن مشاهير تصانيف ابن بطلان كتاب (تقويم الصحة) مجدول وكتاب (دعوة الأطباء) مقامة ظريفة، ورسالة (شراء الرقيق).

---

(1) ابن العبري هو غريغوريوس أبو الفرج بن هارون. مؤرخ مسيحي توفي عام 685 هـ،1286م.

(2) كل مَبْرَكٍ يكون مَألَفاً للإبل فهو عَطَنٌ له بمنزلة الوَطَن للغنم والبقر، وتقول هذا عَطَنُ الغَنم ومَعطِنُها لمَرابضها حولَ الماء. والعَطَنُ: العِرْض، ويقال: منزله وناحيته (اللسان). والمعنى هنا ضاق مقامه.

ولما جَرَى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان ما جَرَى، كتب إليه ابن بطلان رسالةً يقطعه فيها، ويذكر معايبه، ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم الأوائل. ورتبها على سبعة فصول، الأول: فضل من لقي الرجال على من درس في الكتب. الثاني: في أن الذي علم المطالب من الكتب علماً رديئاً شكوكه بحسب علمه يعسر حلها. الثالث: في أن إثبات الحق في عقلٍ لم يثبت فيه المحال أسهل من إثباته عند من ثبت في عقّله المحال. الرابع: في أن من عادات الفضلاء عند قراءاتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا في مصنفها بطعنٍ إذا رأوا في المطالب تبايناً وتناقضاً لكن يخلدوا إلى البحث والتطلّب. الخامس: في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة يلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية. السادس: في تصفح مقالته في المباهلة[1] التي ضمن فيها:

"إنني أسأله ألف مسألةٍ ويسألني مسألةً واحدة".

السابع في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة في هذه التسمية. وختم الرسالة بقوله:

وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب. فإن لنا موقف حساب. ومجمع ثواب وعقاب. يتظلم فيه المرضى إلى خالقهم. ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية في هلاكهم. وانهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسبي، ولا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي. فليكن من لقائهم على يقين. ويتحقق أنهم لا يرضون منه إلا بالحق المبين. والله يوفقنا وإياه للعمل بطاعته والتقرب إليه بابتغاء مرضاته وهو حسبي و نعم الوكيل.

وذكر ابن بطلان في الفصل الرابع من رسالته إلى ابن رضوان حكايةً ظريفةً وجب إيرادها ههنا قال:

---

(1) المباهلة: باهل القوم بعضهم أي اجتمعوا فتداعوا فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم ومنها المباهلة.

إنني حضرت مع تلميذ من تلامذة الشيخ، يعني الشيخ ابن رضوان، ظاهر التجمل بادي الذكاء، إنْ صدًقت الفراسة فيه، بحضرة الأمير أبي علي ابن جلالة الدولة بن عضد الدولة فناخسرو[1] في حمى نائبة[2]، أخذت أربعة أيام ولا تبدو ببرد، وتقشع[3] بنداوة، وقد سقاه ذلك الطبيب دواءً مسهلاً، وهو عازمٌ على فصدًه من بعد على عادة المصريين في تأخير الفصد بعد الدواء وإطعام المريض القطائف[4] بجلاب[5] في نُوَب[6] الحمّى. فسألت الطبيب مُسْتَخْبِراً عن الحمّى. فقال بلفظة المصريين:

نعم سيدي حمّى يوم مركبة من دم و صفراء[7] نائبة[8] أربعة أيام، فلما سقيناه الدواء، تحلّل الدم وبقيت الصفراء و نحن على فصده لنأمن الصفراء بمشيئة الله.

فذهبتُ لا أعلم مما أعجب أمن كون حمى يوم تنوب في أربعة أيام بعلامات الموظبة أم من كونها من أخلاط مركبة أم من الدواء الذي حلل الدم الغليظ و ترك الصفراء اللطيفة".

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "أقول: وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه، وكانت عنده سفاهة في بحثه، وتشنيع على من يريد مناقشته، وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن إسحاق، وعلى أبي الفرج بن الطيب، وكذلك أيضاً على

(1) عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة المتوفى سنة 372 هجرية.

(2) حمى نائبة: راجعة تأتي كل يوم.

(3) قشع: ذهب وزال. أي أنها تزول مع تعرّق.

(4) القطائف: رقائق من عجين البر مقوّسة كالأهلّة الصغيرة، تُحشى بالبندق وأشباهه وتُقلى في السمن أو الزيت وتحلّى بالسكر. ويقول الفيروزآبادي أن القَطائِفُ المأكولَةُ لا تَعْرِفُها العَرَبُ القدماء.

(5) الجلاب: هو ماء الورد.

(6) نُوَب ونوبات: جمع نوبة.

(7) الصفراء: مزاج من أمزجة البدن. ولعله يقصد بها هنا مادة الصفراء فإن المرارة Gall-bladder أو الكيس المراري هو عبارة عن كيس يشبه الكمثرى يقع أسفل الكبد. يفرز الكبد مادة الصفراء bile التي تتركز 12 مرة وتحزن في المرارة وتصل الصفراء أو العصارة المرارية بعد انقباض الكيس المراري إلى الاثني عشر عند الحاجة أي بعد تناول الطعام. ووظيفة الصفراء هي المساعدة على هضم المواد الدهنية. وعند إصابة جدار المرارة بالتهابات، فإنها تعجز عن الانقباض لتفريغ محتوياتها، كما تعجز عن تركيب الصفراء. وعندئذ يتعطل هضم المواد الدهنية.

(8) نائبة أي تتكرر وتعاود.

أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، و لم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلّم ينسب إليه، وله كتابٌ في ذلك يتضمن أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين، وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد (..) ولعلي بن رضوان من الكتب (..) مقالة في نقض مقالة ابن بطلان في الفرخ والفروج، مقالة في الفأر، مقالة فيما أورده ابن بطلان من التحييرات، مقالة في أن ما جهله يقين وحكمة، وما علمه ابن بطلان غلط وسفسطة، مقالة في أن ابن بطلان لا يعلم كلام نفسه فضلاً عن كلام غيره، رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة في خبر ابن بطلان[1]، قول له في جملة الرد عليه،(..) مقالة في التنبيه على ما في كلام ابن بطلان من الهذيان...".

مداخلةُ ابن بطلان حول ضرورة وجود معلِّم للمُتعلِّم

ابن أبي أصيبعة (طبقات الأطباء)[2]: "و لم يكن لابن رضوان في صناعة الطب مُعلِّمٌ يُنْسبُ إليه، وله كتاب في ذلك يتضمن أن تحصيل الصناعةَ من الكتب أوفق من المعلمين، وقد ردَّ عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد. وذكر [أي ابن بطلان] فصلاً في العلل التي من أجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلّم من الصحف إذا كان القول واحداً، وأوردَ عدّة علل:

الأولى منها تجري هكذا: وصول المعاني من النسيب إلى النسيب، خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب. والنسيب الناطق أفهم للتعليم بالنطق وهو المعلم، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب، وبُعْد الجماد من الناطق مطيلٌ طريقَ

(1) هذه الرسالة تعني أن ابن رضوان كان يحرّض أطباء مصر والقاهرة على رحّالتنا.

(2) والنص نفسه موجود لدى الصفدي في (الوافي بالوفيات) مع تغيير بالألفاظ.

الفهم وقُرب الناطق من الناطق مقرّبٌ للفهم. فالفهم من النسيب وهو المعلّم تفهيمه أقرب وأسهل من غير النسيب، وهو الكتاب.

الثانية هكذا: النفس العلامة علامة بالفعل، وصدور الفعل عنها يقال له تعليمُ، والتعلّم من المضاف. وكل ما هو للشيء بالطبع أخص به مما ليس هو بالطبع. والنفس المتعلمة علامة بالقوة، وقبول العلم فيها يقال له تعلم والمضافان معاً بالطبع. فالتعليم من المعلم أخص بالمتعلم من الكتاب.

الثالثة على هذه الصورة: المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من لفظه، نقله إلى لفظ آخر. الكتاب لا ينقل من لفظ إلى لفظ، فالفهم من المعلم أصلح للمتعلّم من الكتاب، وكل ما هو بهذه الصفة فهو في إيصًال العلم أصلُ للمتعلّم.

الرابعة: العلم موضوعة اللفظ، واللفظ على ثلاثة أضرب: قريب من العقل، وهو الذي صاغه العقل مثالاً لما عدّه من المعاني. ومتوسط، وهو المتلفظ به بالصوت، وهو مثال لما صاغه العقل، وبعيد وهو المثبت في الكتاب، وهو مثال ما خرج باللفظ. فالكتاب مثال مثال المعاني التي في العقل. والمثال الأول لا يقوم مقام الممثل لعوز المثل، فماظنك بمثال مثال الممثل، فالمثال الأول لما عند العقل أقرب في الفهم من مثال المثال. والمثال الأول هو اللفظ، والثاني هو الكتاب. وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من لفظ المعلم أسهل وأقرب من لفظ الكتاب.

الخامسة: وصول اللفظ الدال على المعنى إلى العقل يكون من جهة حاسة غريبة من اللفظ، وهو البصر. لأن الحاسة النسبية للفظ هي السمع، لأنه تصويت، والشيء الواصل من النسيب، وهو اللفظ، أقرب من وصوله من الغريب وهو الكتابة. فالفهم من المعلم باللفظ أسهل من الكتاب بالخط.

السادسة هكذا: يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم قد عدمتْ في تعليم المعلم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو عدم وجوده مع الخبرة به، أو فساد الموجود منه، وإصطلاح الكُتّاب ما لا يُقرأ، وقراءة ما لا يُكتب، ونحو التعليم ونمط الكلام، ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ، ورداءة النقل، وإدماج

القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مُصْطَلَح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروًس، وهذه كلها معوقة عن العلم. وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم. وإذا كان الأمر على هذا، فالقراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه.

وأنا آتيك ببيان سائغ أظنه مُصدَّقاً عندك، وهو ما قاله المفسّرون في الاعتياض[1] عن السالبة البسيطة بالموجبة المعدولة[2]، فإنهم مجمعون على أن هذا الفصل لو لم يسمعه من أرسطوطاليس تلميذاه ثامسطيوس[3] وأوذيموس[4] لما فُهِمَ

(1) الاعتياض: الاستعاضة.

(2) هنا يستخدم المؤلف مصطلحات المنطق التي لا يمكن اختصارها بجملتين. يقول ابن سينا في (المنطق): "إن حقيقة الإيجاب هو الحكم بوجود المحمول للموضوع، ومستحيل أن يحكم على غير الموجود بأن شيئاً موجوداً له، فكل موضوع للإيجاب فهو موجود إما في الأعيان وإما في الذهن. فإنه إذا قال قائل: إن كل ذي عشرين قاعدة كذا، فإنه يعنى بذلك أن كل ذي عشرين قاعدة يوجد كيف كان، فهو كذا؛ ليس معنى ذلك أن كل ذي عشرين قاعدة من المعدوم يوجد له في حال عدمه أنه كذا فإنه إذا كان معدوماً فصفاته معدومة، إذ ليس يجوز أن يكون معدوماً وصفاته موجودة، وإذا كان معدوماً فكيف يحكم بأنه يوجد إلا عند قوم يهوشون أنفسهم فيجوزون أن يكون للمعدوم صفات حاصلة ولا تكون موجودة ويكون الحاصل عندهم غير الموجود. وكلامنا في المفهوم من الحاصل ولا نريد بالمفهوم من الموجود غيره، ولهم أن يريدوا بالموجود ما شاؤوا، بل الذهن يحكم على الأشياء بالإيجاب على أنها في أنفسها ووجودها يوجد لها المحمول أو أنها تعقل في الذهن موجوداً لها المحمول، لا من حيث هي في الذهن فقط بل على أنها إذا وجدت وجد لها هذا المحمول. فإن كان لا وجود للشيء وقت الحكم إلا في الذهن، فحينئذ من المحال أن نقول إن ب منه مثلا موجوداً له أنه آ ليس في الذهن، بل في نفس الأمر، وليس هو في نفس الأمر موجوداً، فكيف يوجد له شئ. ومفهوم الإيجاب والإثبات ثبوت حكم لشيء وهذا هو وجوده له، كما أن مفهوم السلب هو لا ثبوت حكم لشيء، وهذا هو عدمه لا محالة. فبيِّن من هذا أنه لا إيجاب البتة إلا على موضوع حاله ما ذكرنا. فأما الأشياء التي لا وجود لها بوجه، فإن الإثبات الذي ربما استعمل عليها حين يرى أن الذهن يحكم عليها بأنها كذا، معناه أنها لو كانت موجودة وجودها في الذهن لكان كذا؛ وهذا كما يقال إن الخلاء أبعاد. فأما السلب فقد يحق على الموجود والمعدوم، فالفرق المقدم بين السالبة البسيطة والموجبة المعدولية أن موضوع السالبة البسيطة قد يكون موجوداً وقد يكون معدوماً ويصح السلب عنه من حيث هو معدوم، وأما موضوع الموجبة المعدولية فلا يصح أن يوجب عليه وهو معدوم. ثم إن قوماً حاولوا بعد هذا أن يفرقوا بين الموجبة المعدولية وبين السالبة البسيطة، بأن جعلوا المعدولية تدل على عدم أمر من شأنه أن يكون موجوداً في الجنس القريب أو البعيد أو في النوع، حتى قالوا: إن قولنا: لا عادل، إنما يصح على عادم العدل وفي طبيعته أن يكون عادلا أو في طبيعة جنسه كقولهم للبهيمة إنها غير ناطقة أو للنفس الناطقة إنها غير جسم، والمعنيان موجودان في جنسهما. وقوم قالوا: إن غير العادل هو بإزاء الجائر والمتوسط، وإن غير البصير إنما هو بإزاء الأعمى، فسواء قلت غير بصير أو قلت أعمى، حتى لا يصح أن يقال للخَلْدْ عندهم إنه غير بصير؛ فهذا ما يقولونه. فأما القول الحق فبين من مثال نمثله. فنقول: إنا إذا قلنا كل جسم فإنه غير موجود في موضوع، وكل ما هو غير موجود في موضوع فهو جوهر، فكل جسم جوهر؛ كان ما أنتجناه لازما. ومعلوم أن القضيتين موجبتان، ولفظ غير مأخوذة جزءا من المحمول، ولذلك تكررت جزءا للموضوع، ونتج ما نتج. ومع ذلك فإن غير الموجود في موضوع ليس يشير إلى عدم شئ موجود في جنس الجوهر بوجه من الوجوه إذ لا جنس للجوهر اللهم إلا أن يوجد الموجود كالجنس. فإن فعل هذا وجعل دلالة المعدول على عدم مّا من شأنه أن يوجد في جملة الوجود كان هذا أقرب إلى الحق بل المعدول هو الذى حرف السلب جزء من محموله كيف كان. فإذا أخذنا حرف السلب مع الذي لو انفرد كان محمولا وحده أخذا كشيء واحد، ثم أثبتناه على الموضوع برابطة الإثبات، كانت القضية موجبة من حيث تأليفها؛ فأما المادة وكيفيتها فهو أمر آخر".

(3) ثامسطيوس: (Themistii= Themistius= Thémistios): كان معلماً وسيناتوراً وهو فيلسوف دَرَّسَ في مدينة الإسكندرية، ومن مفسري وشُرّاح أرسطو. عاش بين السنوات 317-388م. بدأ شارحاً وملخصاً ومبسطاً لأعمال أرسطو وأفلاطون لكي تكون في متناول الجميع. البعض من أعماله حُفظت باللغات اليونانية والعبرية والعربية. كان له نشاط سياسي كذلك فقد عين سنة 355م سيناتورا بينما عيّنه الإمبراطور فالينس Valens مدرِّساً لابنه.

(4) في يقيني فأن (أوذيموس) تصحيف لـــ (أمّونيوس Ammonius) :500-460) م. وهو ابن هيرمياس Hermias. فيلسوف ورياضي وفلكي، ورأس المدرسة الافلاطونية في الإسكندرية لعام 485م. سعى لمواءمة أفكار أفلاطون مع فكر أرسطو. كان من تلاميذه فيلوبونوس Philoponus، سيمبليسيوس Simplicius، أوليمبيودوروس Olympiodoros، وربما بويثيوس Boethius. توصّل هو ومدرسته إلى اتفاق مع السلطات المسيحية. وكان من شرّاح أرسطو كما يقول ابن بطلان، وما ينص عليه ابن النديم في الفهرست. ولعل الرحالة كان يعتقد أن أمونيوس كان معاصراً لأرسطو.

قطّ من كتاب، وإذا كان الأمر على هذا فالفهم من المعلم أفضل من الفهم من الكتاب وبحسب هذا يجب على كل محبٍّ للعلم أن لا يقطع بظنٍّ، فربما خَفيَ الصواب، وإذا خفي الصواب عَلم الأشياء علماً ردّياً فثار عليه بحسب اعتقاده في الحق أنه مَحال شكوك يعسر حلّها"[1].

الصفدي (الوافي بالوفيات) بعد أن ينقل الردّ أعلاه كاملاً، يضيف: "انتهى كلام ابن بطلان".

رسالة موسَّعة في الرد على أفكار ابن رضوان

القفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): "ولما جرى لابن بطلان بمصر مع ابن رضوان مَا جرى كتب إِلَيْه ابن بطلان رسالة يفظعه[2] فيهَا، ويذكر معائبه ويشير إِلَى جهله بما يدعيه من علمَ علوم الأوائل، وصدَّرها بهَذه الديباجة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الانتساب إِلَى الصنائع والاشتراك في البضائع مواخاة[3] وذممٌ وحرماتٌ وعصَمٌ[4]، أدنى حقوقها[5] بذلُ الإنصاف، وأحدُ فروضها اجتنابُ الحيف والإَسراف. ويتصل بي[6] عن الشيخ أدام الله توفيقَه، وأوضَح إلى الحقِّ طريقَه، بلاغاتٌ إِذَا قايستها[7] بنَا ألفيته من حدّة طباعه كدتُ أصدّق بها، وأنْ عزوته إِلَى

(1) الرسالة التي يوردها الصفدي هذه منقولة عن ابن أبي أصيبعة في (طبقات الأطباء) كما يبدو.

(2) يفظِّعُه: أي ينتقده بشدة.

(3) الإخوان: معروف، جمع أخ. والإخاء: مصدر واخَيْتُه وآخَيْتُه مواخاةً وإخاءً. والأخ اسم ناقص، وهو أخٌ لك كما قالوا: هو أبٌ لك (جمهرة اللغة– ابن دريد). وفي النص المطبوع من القفطي (موخاة) بدون ألف.

(4) عصم: جمع عصمة وهو ما يُعتصم به عن الزلل.

(5) أي أدنى حقوق المواخاة.

(6) يتصل بي أي يصلني.

(7) قايستها أي قستها.

مَا خصَّه الله به من العلم، قطعت بكذبها. وفي كلا الحالين فإنني أرى الإغضاء عما أمضّ من كلاَمه، وأرمض[1] من فعاله، من الفعال الواجب والمفروض اللازب[2]، إذ كنت أثق برجوعه إلى الحقّ وإنْ مالَ فِي شعب الباطل، لا سيما أني لَمْ أوجده سبيلاً إِلَى المباينة[3]، ولا سعيت إلاَّ فيما أَكَّدَ أسباب المودة والمحافظة، وَلَمْ أتخذه بمسألة سهلة ولا صعبة. وهو أدام الله توفيقه جُهينتي[4] فِي هَذِه الدعوى.

وَقَدْ كَانَتْ وردت منه إليّ مسائل، وأجبتُ فِي الحال عنها، وتراخيتُ إِلَى هَذه الغاية عن إنفاذها إبقاءً عَلَى هَذه المودة. وبلغني بعد ذلكَ أنه قال على سبيل المُبَاهَلة يسألني عن ألف مسألة، وأَسَألة واحدة، ولو شئتُ أن أفصحَ وأوضحَ لفعلتُ ولكنْ:

(الكامل)

قومي هــمُ قتلــوا أمــيمَ أخــــي   فإذا رميــتُ يــصيبني[5] ســهمي

لأني أعتقده والجماعة يجرون مني مجرى الأعضاء، تمرض تارةً، وتصحّ أخرى، وَلَمْ أزَلْ عَلَى هَذه المشاكلة[6] إِلَى أن أُوْعزَ إليّ من بعض الجهات الجليلة بما لَمْ يسعني خلافه، ولا أَمكنني الاجتناب عنه فِي عمل هَذِه المقالة وهي سبعة فصول:

الأول: فِي فضل من لقي الرجال على مَنْ درس فِي الكتاب.

الثاني: فِي أن الَّذي علم المطالب من الكتب علماً ردياً[7] شكوكه بحسب علمه يعسر حلها.

---

(1) أرمضه الحر: أهلكه، وأرمض الشيء فلاناً: أوجعه.

(2) اللازب: اللازم.

(3) المباينة: الاختلاف.

(4) جُهينتي: مستعار من المثل الشهير (عند جُهَينة الخبرُ اليقين) وهي قبيلة.

(5) وفي رواية أخرى: أصابني

(6) المشاكلة أي الشاكلة.

(7) ردياً: رديئاً.

الثالث: فِي أن إثبات الحق فِي عقل لَمْ يثبت فِيهِ المحال، أسهل من إثباته عند من ثبت فِي عقله المحال.

الرابع: فِي أن من عادات الفضلاء عند قراءتهم كتب القدماء أن لا تعلموا فِي علمائها بظَن إذَا رأوا فِي المطلب تباينها وتناقضاً لكن يخلدون إلَى البحث والتطلب.

الخامس: فِي مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة فِي المقدمات صادقة تلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية.

السادس: فِي تصفح مقالته فِي المباهلة الَّتِي ضمن فِيهَا أنِي أسأله ألف مسألة ويسألنِي مسألة واحدة.

السابع: فِي تتبع مقالته فِي النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة فِي هَذِه التسمية.

فامتثلت المرسوم معتذراً إلَيْه، غير أنِي أسأله بإله السماء وتوحيد الفلاسفة إذَا هو طلق عنان القلم، واستخدم فِي بيانه برهان الهمم، وأبرز النتيجة كالبدر من حُنْدس الظُلَم، أعفى عبده من السفه الَّذِي حظه فِي سماعه أكثر من حظ الشيخ فِي مقاله، وعدل به إلَى الجواب عن نفس السؤال بما يبين به الصواب بقلب طاهر تقيّ خال من دَرَنِ الغضب، فثامسطيوس[1] يقول: قلوب الحكماء هياكل الرب فيجب أنَّ تنظّف بيوت عبادته. وفيثاغورس[2] يقول: أن العوام تظن أن الباري

(1) ثامسطيوس (317–388م): وهو الشارح لكلام أرسطوطاليس. ويوافق الفارابي مذهب ثامسطيوس القائل أن الفاعلَ للكون نوعان: منه مَن يفارِق الهيولى، ومنه مَن لايفارِقها.

(2) فيثاغورس: ولد نحو عام 580 ق.م في جزيرة ساموس في بحر إيجه، باليونان عن عائلة ميسورة، وحين بلغ السادسة عشرة من عمره بدأ يظهر نبوغه حتى عجز أساتذته عن الإجابة على أسئلته. لذا انتقل للتتلمذ على يد طالس الملطي، أول إغريقي أجرى دراسة عملية للأعداد. أسس فيثاغورس مدرسته حوالي 529 ق.م في كروتونا، وهي ميناء إغريقي جنوب إيطاليا كان مزدهراً في تلك الحقبة، فالتحق بها عدد كبير من الطلاب. وكانت مدرسته أقرب لأن تكون فرقة دينية من أن تكون مدرسة بالمفهوم الصحيح للكلمة. كان أعضاؤها يتعارفون بإشارة سرية، ويتشاركون في تملك جميع الأشياء، كما تعاهدوا على أن يعاون بعضهم بعضاً. ويعتقد بعضهم أنه هو الذي فكر في جدول الضرب المعروف، بالرغم من عدم وجود ما يثبت ذلك. لم يكن فيثاغورس مولعاً بالأعداد والهندسة فحسب وإنما بالعلوم الأخرى المعروفة، فضلاً عن شغفه بعلوم الدين لم تكن هناك كتب آنذاك منتشرة، فقد كانت الطريقة المفضلة لمواصلة الدراسة هي الارتحال ولقاء العلماء. قضى فيثاغورس عدة أعوام في مصر. وفي الخمسين من عمره كان قد تعلم الكثير فأراد إنشاء مدرسة ليعلم الآخرين. كانت دروس فيثاغورس تتناول درجات الحكمة الأربع: الحساب، الهندسة، الموسيقى، الفلك، وواجبات الإنسان نحو الآخرين، والدين. وكان يفرض على طلابه ممارسة فضائل المروءة والتقوى والطاعة والإخلاص، أي كل ما كان ينادي به المجتمع الإغريقي المثالي. كان تدريس فيثاغورس خليطاً من التصوف والتحليل العقلي. وانغمس الفيثاغورسيون في السياسة، وكانوا كلما اكتسبوا مرتبة أو سلطاناً أظهروا الاحتقار للجماعات الجاهلة التي لا تستطيع أن تحيا حياة التأمل الرفيعة. وأدى ذلك إلى سقوطهم بعدما ثار الناس

تعالى في الهياكل فقط فتحسن سيرتها فيهَا. كذلك يجب عَلَى من علم الله في كل مكان أن تكون سيرته في كل مكان كسيرة العامة في الهياكل، والله يعينه عَلَى كسر العصبية، ويرشدنا إِلَى المضي بموجب الناطقة[1]، ويعينه عَلَى المُلْتَمَس[2].

ومن هَذه الرسالة المذكورة الفصل الثاني في أن الَّذي علم المطالب من الكتب علماً رَدَيّاً شكوكه بحسب علمه يعسر حلها.

العلة في أن العالم بالمطالب علماً ردياً شكوكه لا تنحل أن الشك أتى من تقصيره بالعلم، وكلما فسد العلم قوي الشك، وكلما قوي الشك فسد العلم، فضُعْف العلم يؤدي إلى قوة الشك، وقوة الشك تؤدي إِلَى ضعف العلم، وهما شيئان كلّ واحد منهما علة لصاحبه، كالسوداء[3] الَّتي هي سبب لرداءة الفكر، ورداءة الفكر سبب لاحتراق الأخلاط وانقلابها إِلَى السوداء، والسوداء كلما قويت أفسدت الفكر، والفكر كلما فسد قويت السوداء، ولأن الفاسد الفكر لا يتصور فساد فكره، فلا يسرع في زوال مرضه كالذي به عضة كَلْب كَلب يعتقد أن الماء يقتله وفيه حياته، وكلما امتنع منه أدى إِلَى هلاكه. وهذا هُوَ الدَاءُ العياء الَّذي يعجز عن طبه وبرئه الأطباء. كذلك المعتقد في الآراء الماحلة[4] أنها صحيحة لا يشعر برداءتها، فيلتمس علتها عَلَى الحقيقة، ولعدم علمه بالتقصير لا يزيل شكه العالمون، ولا يرجي لنفسه برء منه إلاَّ بلطف من رب العالمين. ومن ههنا تتولد الآراء الفاسدة السقيمة، ويتقبلها الضعيف الطباع عن مطلب الحقائق، ويتقلدها محبو الكسل والرفاهة، فتتخيل لهم كأنها طباع وغريزة، فيألفونها وينشئون عَلَيْهَا، ويكرهون مفارقتها للعادة، ويسابقون عَلَيْهَا، ويتعصبون لها أنها العلوم الصحيحة، فيحدث في العقول وباء عن ميل النفس مع الهوى، فتموت القرائح الذكية عَلَى مثال مَا تموت الأجسام عن فساد جوهر الهواء. ولهذا قال أرسطوطاليس[5]:

عليهم. توفي فيثاغورس في الثمانين من عمره. بعد مائتي عام أقام مجلس الشعب (البرلمان) تمثالاً لفيثاغورس في روما تكريماً وتقديراً وعرفاناً بوصفه حكيماً إغريقيا كبيراً.

(1) الناطقة: الناطق البيِّن، وشيء ناطق أي واضح، والإنسان حيوان ناطق: مفكِّر. والمعنى هنا العقل.

(2) المُلْتَمَس هو الهدف والغرض.

(3) السوداء: أحد الطبائع الأربع. وهو مرض الكآبة كما نقول اليوم.

(4) الماحلة: من مَحِلَ المكانُ أي أجدب، والماحل هو الخصم المجادل. والآراء الماحلة هي الفقيرة المُجدبة.

(5) أرسطوطاليس (384 _ 322 ق.م) فيلسوف يوناني مقدوني وليس أثينياً، تكاملت على يديه الفلسفة اليونانية فبلغت الذروة في نضجها. يعده مؤرخ الفلسفة المعروف الدكتور عبد الرحمن بدوي هو وأستاذه أفلاطون وعمانوئيل كنت (أعظم فلاسفة العالم على طول تاريخ الفكر الإنساني)، وأشار في موضع آخر إلى أنه (اعظم فيلسوف جامع لكل فروع المعرفة الإنسانية في تاريخ البشرية كلها، ويمتاز على أستاذه أفلاطون بدقة المنهج، واستقامة البراهين، والاستناد إلى التجربة

الإنسان الجاهل ميت، ووالمتجهِّل[1] عليل، والعالمُ حيٌّ صحيحٌ. فهذا مقنع لمن حاد عن طباع العقل، وفيه كفاية لمحبي الحق. وبيان الدعوى أن الَّذي علم من الكتب علماً ردياً شكوكه بحسب علمه يعسر حلها وهو مَا أردنا أن نبين.

ومنه الفصل الرابع: أن من عادات الفضلاء إذَا قرؤوا كتب القدماء أَن لا يقطعوا في علمائها بظنٍّ دون معرفة الأمر عَلَى الحقيقة. إذ من عادات القدماء إذَا وقفت عليهم المطالب، ولاح فيهَا تباين وتناقض أنْ يعودوا إلَى التطلب، ولا يتسرعوا إلى إفساد المطالب. فإن أرسطوطاليس بقي يرصد القوس الكائن عن القمر أكثر عمره فما رآه إلاَّ دفعتين، وجالينوس واظب عَلَى السكون الَّذي بعد الانقباض في النبض سنين كثيرة حَتَّى أدركه، وأبو الخير بن الخمار[2] وأبو علي بن زرعة[3] ماتا بحسرة مقالة يحيى بن عدي[4] في المُخْرسَات[5] المُبْطلَة لكتاب القياس، وشيخنا أبو الفرج عبد الله بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير مَا بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيهَا. وَمَا فيهم – رحمهم الله– إلاَّ من أنفق عمره في العَلم طلباً لدرك الحق، هَذَا والذي في عقولهم مما بالفعل أكثر مما بالقوة، ونحن وَمَا بالقوة فينا أكثر مما بالفعل، أخلدنا إلى الطعن عليهم، ضحك الحق منا، وخسرنا أشرف مَا فينا. ولهذا يجب عَلَى كل نسمة عالمة دونهم في الرتبة إذَا رأت أقاويلهم متباينة أن لا تقطع بقول فيهم إلاَّ بعد الثقة، ولا تَرْتَبْ إذَا رأيت أرسطوطاليس ليس يعتقد أن القلب منشأ الأعصاب والعروق والشرايين والعظام وجميع القوى، ثُمَّ رأيت جالينوس ينسب مبدأ كل واحد من القوى إلَى واحد واحدٍ من الأعضاء الثلاثة – أعني الدماغ والقلب والكبد– ويقول: كَل واحدً

الواقعية، وهو واضع علم المنطق كله تقريباً. ومن هنا لُقِّب بـــ (المعلم الأول) و(صاحب المنطق). ترك عدداً كبيراً من المؤلفات ذكر بطليموس الغريب 82 عنواناً منها، تتألف من 550 مقالة. لكن قسماً كبيراً منها ضاع ولم يصل إلينا. لكن لحسن الحظ إن الذي بقي هو الجانب الأهم). يمثل أرسطوطاليس الحلقة الأهم في تاريخ الفلسفة اليونانية، فقد ظلت آراؤه الفلسفية وأفكاره الأخرى في كافة حقول المعرفة تحتل موقع الصدارة إلى عهد قريب في أوروبا. كذلك نفذ المنطق الذي وضعه في مساحة واسعة من التراث الإسلامي، ومثل مرجعية للعلوم العقلية في هذا التراث، واستعان به العلماء المسلمون كأداة في صياغة غير واحد من العلوم الإسلامية لا سيما علوم المعقول، من هنا اصطبغت الحياة العقلية لدى المسلمين بهذا المنطق ولم تفلت من أسره إلى اليوم.

(1) المتجهِّل: هو الذي جُهِّل.

(2) الأستاذ الفيلسوف والطبيب أبو الخير بن الخمار وهو أستاذ أبي الفرج بن هندو.

(3) وردت ترجمته آنفاً.

(4) هو يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا. أبو زكريا. نصراني من أهل تكريت. فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره. ولد بتكريت وانتقل إلى بغداد وتلقى فيها المنطق على أبي بشر بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي. ترجم إلى العربية كثيرا من كتب العلوم والرياضيات. توفي في بغداد عن 84هـــ عاما. من كتبه: تهذيب الأخلاق، شرح مقالة الإسكندر، نقل إلى العربية كتاب أرسطو في علم ما بعد الطبيعة وغيرها.

(5) المخرسات: هي الحجج التي تُخرس الخصم.

منها ينشأ بنظر خوادمها. ولا تقطع بصواب أحدهما لأن أرسطوطاليس ينظر في القوى من جهة طباعها، وجالينوس ينظر فِيهَا من جهة استقراء الفعل المحسوس فِي العضو الخاص لَهَا.

وإذا رأينا جالينوس يقسم الأعضاء إِلَى المتشابهة والآلية، وليست هَذه الطريقة تعديداً ولا قسمة صحيحة، لأن المتشابهة أيضاً آلية إِذَا كَانَ العصب آلَةَ لجريان الروح النفساني والحركة الإرادية، والشرايين آلة لجَريان الروح والقوى الحيوانية، والأوردة آلة لجريان الدم والقوى الطبيعية. والتعديد والقسمة الصحيحة هي الَّتي قسمها أرسطوطاليس إِلَى البسيطة والمركّبة والمتشابهة وغير المتشابهة، لَمْ يجز لَنَا أن نتسرع إِلَى الرد عَلَيْه، لأنا إِذَا نظرنا أدّانا[1] النظر إِلَى أنه فعل ذَلكَ لأن شأنه أن يشتق للأمراض أسماء منها، لأن الأعضاء المتشابهة تمرض أمراضاً بسيطة ومركّبة، والدليل عَلَى أنه لَمْ يخف عَلَيْه أن العرق آلة لجريان الدم عدد الستة في الأمراض الآلية. وإذا رأينا أرسطَوطالَيس يبين في (كتاب السماء) أن طبيعة الكواكب خامسة، وأنها غير كائنة ولا فاسدة، ورأيناه في (كتاب الحيوان) يظهر من قوله أن طبيعة القمر من الاسطقسات[2] الأربعة، لَمْ يَجزْ أن نتسرع ونقول: أنه ناقض نفسه أَو نسي رأيه ومذهبه. وكذلك إذا رأيناه يتكلم في بقاء العقل الهيولاني[3] كلاماً يناقض كلامه فيما بعد الطبيعة، وجب علينا أنَ نعلم أن فعله بوجهين اثنين لا بنظر واحد، لأنه هو الَّذي علمنا شروط النقيض. وإذا رأينا أرسطوطاليس يعتقد فِي الريح أنها حارة يابَسة، ثُمَّ يأخذ في قسمتها إِلَى الحارة والباردة، وجب علينا أن نعلم أن قسمته بحسب الجهات والنواحي، وإِن كَانَتْ

(1) أدّانا: قادنا.

(2) الاسطقسات هو لفظ يوناني بمعنى الأصل وتسمى العناصر الأربع التي هي الماء والأرض والهواء والنار اسطقسات لأنها أصول المركبات التي هي الحيوان والنباتات والمعادن.

(3) العقل الهيولاني هو القوة في الإنسان وهي في النفس بمنزلة القوة الناظرة في العين. والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر فإذا خرجت هذه القوة التي هي العقل الهيولاني إلى الفعل تسمى العقل المستفاد (مفاتيح العلوم). وعن محمد عابد الجابري إن: "الجزء من النفس البشرية الذي سماه أرسطو بـــ "العقل بالقوة" intellect en puissance وعُرف عند شراحه بـــ"العقل الهيولاني" أو "المادي" intellect materiel، هو ذلك الجزء من العقل البشري الذي هو عبارة عن الاستعداد لتقبل المعقولات intelligibles، أي المفاهيم والتصورات والأحكام التي ليس لها وجود حسي. وبما أن كل "ما هو بالقوة" en puissance (أي ما وجوده ممكن فقط وليس قائما بالفعل) لابد له من ذات أخرى تنقله إلى الفعل en acte، حسب المنظومة الأرسطية، فإن تحول هذا "الاستعداد العقلي" في الإنسان إلى "عقل بالفعل" يمارس فعالياته العقلية يحتاج إلى عقل من مرتبة أعلى يقوم بهذه المهمة، سمي بـــ "العقل الفاعل"" intellect agent. وقد قطع أرسطو في أمر هذا العقل الأخير، فقال عنه إنه "مفارق séparé، ليس مختلطا بالمحسوسات أصلا، وبالتالي فهو لا يفنى بفناء المحسوسات، بل من طبيعته أنه خالد أزلي، لا يفسد ولا يفنى بفناء أشخاص النوع الإنساني. وقد جعل منه بعض شُرّاح أرسطو الإله نفسه، بينما جعل منه آخرون كائنا إلهيا في مرتبة أدنى من الله. أما "العقل الهيولاني"، أي الذي حاله حال "القوة" والاستعداد، فقد جاءت عبارة أرسطو عنه غامضة تحتمل القول بفساده corruption وعدم أزليته وتحتمل العكس –على الأقل في الترجمة العربية التي اشتغل عليها ابن رشد".

مادها حارة يابسة إلاَّ أنها إذَا هبت من الطريقة المحترقة، وأوردتُ هَذَا لأنه بلغني أن فِي نفسه من هَذه المسألة شبهة فآثرت زوالها، وَمَا يجب لَنَا، ولا يبلغ قدرتنا إذَا رَأينا أرسطوطاليسَ يعطينا قانوناً فِي النتيجة ويقول: إنها تتبع فِي الكمّ الصغرى، وفِي الكيف الكبرى، ثُمَّ نراه ينتج الضرب الَّذي من كبرى ضرورية وصغرى ممكنة نتيجة ممكنة، أن نسيء الظن به ونقول: إنهَ نقض قانونه، وخالف رأيه، وجعل النتيجة غير المطلب، وأوردها تَتبع فِي الكيف الصغرى، لكنا نبحث فإنا نعلم حسن هَذَا الفعل منه.

ومن هَذَا الفصل فيما ظن الشيخ بأناس يجرون فِي العالم مجرى الأنجم الزهر، أبصارنا عند بصائرهم تجري مجرى الخفاش عند عيون العقبان فِي ضوء النهار، لا سيما المؤيد حنين بن إسحاق الَّذي منح الله البشر علوم القدماء عَلَى يده، فالعقول فِي ضيافته إلَى اليوم يمتارون[1] من فضله، ويعيشون فِي بره. وبحسب هَذَا لَمْ أوثر للشيخ أن يدفع العيان ويخرق ويكذب بما شهدت به الأذهان، وصدق به البرهان من فضله ونور مطارح شعاعه. ففي فعله هَذَا مخَازٍ كثيرة منها: نقضَ ميثاق بقراط[2] صاحب الصناعة الَّذي عهده إلَى الأطباء، وَوصّى فيه بإكرام العلماء، ومنها: التظاهر بكفر النعمة، وجحود الصنيعة لمن لولاه لما فَهِم أحد ولا فهم الشيخ من الطب لفظة واحدة، ومنها أن المعلم أب روحاني، وما كنت أحب للشيخ التظاهر بعقوق الآباء، بل أن يجريه أقل الأجسام مجرى سيده، عَلَيْه رحمة الله. ومنها أنه قلَّ من تعرَّض[3] لمن قدَّمه الله تعالى إلاَّ وحُرِم التوفيق، ووقع من التعذير[4] فِي بحر عريض عميق. ولهذا قال أفلاطونَ[5]: لا تعادوا الدول المقبلة

---

(1) يمتارون: يغترفون.

(2) بقراط الحكيم HIPPOCRATE: يُقال إنه أول من دون علم الطب، وهو حكيم مشهور، اعتنى ببعض علوم الفلسفة، وسيد الطبيعيين في عصره؛ كان قبل الإسكندر بنحو مائة وسنة، وله في الطب تصانيف كثيرة. كان متألها، ناسكا، يعالج المرضى احتساباً، طوّافاً في البلاد. سكن حمص من مدن الشام، وكان يتوجه إلى دمشق، ويقيم في غياضها للرياضة، والتعلم، والتعليم. وفي بساتينها موضع، يُعرف بصُفَّة بقراط. وكان طبيباً، فيلسوفاً، معلّماً، قوي الصناعة، والقياس. خاف أن يفنى الطب من العالم، علّم الغرباء الطبَّ، وجعلهم بمنزلة أولاده. وظهر بقراط سنة 96 لتاريخ بُخْتَ نَصَّر، وهي سنة 14 من ملك بهمن، وعاش خمسا وتسعين سنة، وله كتب مترجمة إلى العربية.

(3) تعرَّض: وقف بالنقد والمواجهة.

(4) التعذير: التَّقْصِير

(5) أفلاطـــــــــــون (427 – 347 ق.م): فيلسوف إغريقي ومعلم لفيلسوف أرسطو. وكان أفلاطون التلميذ الشهير لفيلسوف سقراط. ولد أفلاطون من أسرة غنية في مدينة أثينا وهو يعتبر أعظم آباء الفكر الغربي كله، وهو شاب صغير عرف الفيلسوف سقراط وظل صديقا له، وكان سقراط في السبعين من عمره، وحكموا عليه بإعدام بتهمة إفساد عقول الشباب، وترك هذا الإعدام أثرا سيئا في نفس أفلاطون وترك أفلاطون مدينة أثينا بعد ذلك لفترة طويلة وعاد إلى أثسنا وأسس مدرسة هناك وأسماها الأكاديمية، وكان أشهر تلامذته فيلسوف العظيم أرسطو، وألف أفلاطون 36 كتابا أكثرها عن السياسة والأخلاق وعن أمور ما بعد الطبيعة وعن الإلهيات، ومات أفلاطون بعمر الثمانين تقريباً.

فتدبروا بإقبالها. وهذا القسم إذَا تفطن الشيخ فيه علم نصحي لَهُ، فلا يثقل عَلَيْه إذَا كَانَ الدواء إذا لُمحَتْ غايَته عَذُبتْ مرارَته. والعرب تقول (مبكياتك وَلا مضحكاتك) و(أخوك من نصحك)، وكثير مَا ينتفع الإنسان بأعدائه. وبحسب هَذه المعددة يجب عَلَى الشيخ الرجوع عما ثلب به أئمة الصناعة، ولا يصرّ عَلَى الفكَر بهذه الطريقة، بل يستغفر الله تعالى مما جنىَ، ويسأله الإقالة[1]، ليلقى الحق مُبيَّض الوجه في القيامة، فلا يكون سبباً لضلال أحداث الأطباء بما يودع نفوسهم من مثالب القدماء، فيثنيهم عن قراءة كتب الصناعة، فيؤدي ذَلكَ إلَى هلاك المرضى.

ومن هذا الفصل:

أنني حضرتُ مع تلميذ من تلامذة الشيخ، ظاهر التجمل، بادي الذكاء إن صدقت الفراسة فيه، بحضرة الأمير الأجلّ أبي علي بن جلال الدولة بن عضد الدولة فناخسرو[2]- أطال الله بقاه ورحم أسلافه وإياه- في خامس مرضة عرضت لَهُ من حمى نائبة، أخذت أربعة أيام ولاء، تبدأ ببرد، وتقشع بنداوة. وَقَدْ سقاه ذَلكَ الطبيب دواء مسهلاً وهو عازم عَلَى فصده من بعد عَلَى عادة المصريين في تأخير الفصد بعد الدواء، وإطعام المريض القطائف بجلاب في نوب الحمى.

فسألتُ الطبيب مستخبراً عن الحمى. فقال بلفظة المصريين:

- نعم سيدي عرضت لَهُ حمى يوم، مركّبة من دم وصفراء نائبة أربعة أيام، فلما سقيناه الدواء، تحلل الدم وبقيت الصفراء ونحن عَلَى فصده لنأمنَ الصفراء بمشيئة الله.

---

(1) الإقالة: الاعتذار وطلب العفو.

(2) هو ابن جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهي. وهذا الأب كان سلطان العراق خلّف فيه أخاه سلطان الدولة سنة 415 هـ. كان سلطانا متواضعا يزور الناس ويلتمس الدعاء منهم، وكان ضعيفا. ثار عليه الجند فأخرجوه من بغداد فذهب إلى (عكبرا) سنة 424 هـ ونهبوا داره ثم أعادوه إلى بغداد. كان مصرّاً على اللهو والشراب، مهملا للرعية، وقد امتدت دولته سبع عشرة سنة، توفي عن 52 عاما وخلفه ابن أخيه عماد الدين أبو كاليجار ابن سلطان الدولة.

فذهبتُ ولا أعلمُ مم أعجب: أمنْ كون حمي يوم تنوب أربعة أيام بعلامات المواظبة، أم من كونها من أخلاط[1] مركبة، أم من الدواء الَّذي حلل الدم الغليظ، وترك الصفراء اللطيفة.

وَمَا أشبه تلْكَ الحكاية إلاَّ بما حدثني به الشيخ أبو النصر بن العطار[2] بأنطاكية. فإنه ذكر أن طبيباً رومياً شارط مريَضاً به غب[3] خالصة عَلَى برئه دراهم معلومة. وأخذ في تدبيره بما غلّظ المادة، فصارتَ شطر غب بعد مَا كَانَتْ خالصة. فأنكرنا ذَلكَ عَلَيْه، ورمنا صرفه. فقال:

إني أستحق عليكم نصف الكراء[4] لأن الحمى قَدْ ذهب نصفها.

وظن من جهة التسمية أن الشطر قَدْ ذهب من الحمى، ولا زال يسألنا عما كَانتْ. فنقول: غباً وعما هي الآن، فنقول شطراً فيظلم، ويقول:

– و لم منعتموني نصف القبالة[5] بإكرام العلماء.

ومن هَذَا الفصل في آخره:

فقد بان مَا رمنا بيانه، وهو أن من الواجب عَلَى كل نسمة يقف بهَا مطلب من كتب القدماء، أن لا يتسرع إِلَى ردّ مذهب، بل يعود إِلَى البحَث

(1) وفق الطب القديم "يتكون جسم الإنسان من أربعة أخلاط هي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وهي التي تحدد صحة المرء ومزاجه وقد وضع هذه النظرية في بادئ الأمر أبقراط على أساس الملاحظة العينية للدم وحلله إلى أربعة ألوان الأحمر والأصفر والأسود ثم طورها العلماء العرب التي أصبحت كافة الأمراض تفسر عندهم من خلال نظرية الخلل في التوازن بين الأخلاط الأربعة. وكل من الأخلاط الأربعة له طبيعتان فالدم ساخن وجاف مثل النار، والبلغم بارد ورطب مثل الماء، والصفراء –حارة ورطبة مثل الهواء، والسوداء باردة وجافة مثل الأرض. هكذا فإن الأخلاط الأربعة مرتبطة بعوامل الطبيعة الأربعة الأساسية. عندما تكون الأخلاط طبيعية في الكمية والجودة يتمتع الإنسان بصحة جيدة ولكن إذا حدث اضطراب يمكن لبعض الأخلاط أن يسقط على البعض الآخر وهنا يحدث المرض. ثم يفرز مثل هذا الاضطراب في البول أو البراز وغيره ويعود ويشفي المريض. ونتيجة لهذا فإن مهمة الطبيب هي توجيه العلاج لمساعدة قوة الشفاء الداخلية على العمل وتجنب ما يمكن أن يثيرها. وسبيله إلى ذلك هو اتباع نظام معين في الغذاء والاستعانة ببعض العقاقير" (عن مقالة على الأنترنيت: الطب الإسلامي وتوافقه مع الطب الحديث للدكتور سيد خور شيد حسين أنور).

(2) لم أعثر على ترجمة له في المراجع التي بين يديَّ كما ذكرنا سابقاً، لكن جاء في هامش (تاريخ الإسلام للذهبي ج 38 ص 135): قال أبو محمد العكبري رأيت رسول الله في المنام فقلت يا رسول الله امسح بيدك عيني فإنها تؤلمني فقال: اذهب إلى نصر بن العطار يمسح عينك... هذا نصر قد صافحته يد الحق".

(3) غب: بعد. غِبُّ الأَمْرِ ومَغَبَّتُه: عاقبتُه وآخِرُه. وغَبَّ الأَمرُ: صارَ إِلى آخره؛ وكذلك غَبَّتِ الأُمورُ إذا صارتْ إِلى أَواخرها.

(4) الكراء: الأجر.

(5) القبالة: بالفتح: الكفالة وهي في الأصل مصدر قبل إذا كفل. وقبل، بالضم، إذا صار قبيلا أي كفيلا. وتقبل به: تكفل كقبل. وقال: قبلت العامل العمل تقبلا، وهذا نادر، والاسم القبالة، وتقبله العامل تقبيلا، نادر أيضا (اللسان). وكلّ من تقبّل بشيء مقاطعةً وكتب عليه بذلك الكتاب فعمله: القبالة، وكتابعه المكتوب عليه هو: القبالة (أساس البلاغة).

والطلب. ولهذا نرى المفسرين الجلة إذَا وردوا هَذه الموارد، ورأوا فيهَا تبايناً لائحاً، وتناقضاً واضحاً، قالوا عن صاحبَ الصناعة أنه َأورده مجازاً عَلَىَ مذهب آخرين كأنابو[1] المصري في مقالته في العناية، واحتجوا إنه من غلط الناسخ، أَوْ سهو الناقل، أَوْ جوازه في اللغة المَنقول عنها دون المنقول إليها كالاسم الَّذي لَيْسَ بمذكر ولا مؤنث في لغة اليونانيين، أَوْ أنه وُجد في الحاشية عَلَى جهةَ التعليق وَلَيْسَ من الكتاب. وربما كَانَ زائداً عَلَى مَا ينبغي قالوا: أورده مبالغة كقول بقراط (فقار الظهر)، وكما يقول الشعراء (لبناً أبيض) و(دهناً رطباً)، أَوْ عَلَى جهة الجدل والخطابة كما فعل يحيى النحوي[2] في نقائضه. وإنْ تكررَ لفظ مَا قالوا أورده للتأكيد احتجوا فيه بعادة اليونانيين في الأسماء كعادتهم في تسمية كل مرض حار فكفموني[3] أَوْ نمط واضح الكتاب، فإن كَانَ في التصنيف مثال لا يطابق الممثل لَهُ كما يوجد في كتاب القياس، قالوا: إن من عادته الاستهانة في الأمثلة، وإن رأوا في قضية تناقضاً جعلوا محمولها اسماً مشتركاً، أَوْ منعوه أحَد شروط النقيض ليبطَل التناقض، وجعلوه بوجهين اثنين لا من جهة واحدة. وإن رأوا المصنِّف تكلّم في أحد الضدّين، كما فعل أرسطوطاليس في الأسماء، قالوا: ترك الآخر ليفهم من ضده. وأن قَسَّمَ شيئاً وَلَمْ يستوف أقسامَهَ قالوا: ذكر منها مَا احتاج إِلَيْه في المكان. وإنْ سمى صاحب الصناعة أسَماء غير دالة عَلَيْهَا، كما سمّى الأطباء فَم المعدة فؤاداً والقولنج في جميع المعاء وإن لَمْ يكن في القولون قولنجا[4]، ومفاصل الورك عرق النسا، قالوا هَذه للقدماء أن يسمّوا بعض الأشياء من أسماء أمور بينها شركة واتصال أَوْ مشابهة. وَإنْ كرَّرَ المصنّفُ كلاماً في أول

(1) أنابو: طبيب وحكيم، ظريف. يروي القفطي أن "هوميروس كان من رجال يونان الذين عانوا الصناعة الشعرية من أنواع المنطق وأجادها. وجاءه أنابو الماجن فقال: اهجني لأفتخر بهجائك إذ لم أكن أهلا لمديحك. فقال له: لست فاعلا ذلك أبداً...". ويرد أن للرازي كتاب في نقض كتاب أنابو إلى فرفوريوس في شرح مذاهب أرسطوطاليس في العلم الإلهي.

(2) منذ آخر القرن الرابع الميلادي إلى منتصف القرن السابع نشطت حركة فلسفية مسيحية أكثر استقلالاً عن اللاهوت بزعامة يحيى النحوي وأسطفان الإسكندري وغيرهما من رجال مدرسة الإسكندرية التي كان همها "تقريب آراء الإغريق من الدين المسيحي". و"هذه الحقيقة ذات أهمية في تحديد صنيع المسلمين وموقفهم من الفلسفة الإغريقية بعد أن اطلعوا عليها في صور مختلفة، وبالأخص في صورتها الأخيرة القريبة منهم التي رسمها يحيى النحوي وأتباعه". ويقول القفطي المتوفى (646هـ) في ترجمة يحيى النحوي: "وعاش يحيى النحوي إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى، فأكرمه عمرو ورأى له موضعا، وسمع كلامه في إبطال التثليث، فأعجبه وسمع كلامه أيضا في انقضاء الدهر، ففتن به وشاهد من حججه المنطقية، وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها إنسة ما هاله". يضعِّف الدكتور ماجد فخري في (دراسات في الفكر العربي، بيروت، دار النهار ط3، 1982، ص 37) خبر القفطي ويحكم باستحالة بقاء يحيى النحوي إلى زمان عمرو بن العاص، وعلى أية حال فإن كتب الأدب تورد أخباراً متفرقة عن يحيى النحوي مما يوحي بأن العرب عرفوا شخصاً بهذا الاسم، وان لم يكن «يوحنا فيلوبونس».

(3) فكفموني: لم استطع فهمها، ولعلها كلمة يونانية تعني (نمط الكتاب).

(4) قولنج Colic: مغص بطني.

الكتاب، قالوا: لما أطال الشيخ أعَادهُ ليتصل الكلام كما يوجد في ايساغوجي[1]. وإن كَانَ في آخر الكتاب قالوا: أورده عَلَى جهة النتيجة والثمرة. كل هَذَا لعلم العقل الناقص البريء من الهوى أنه غير كامل لَمْ يبلغ عقل المصنِّف الواضع للصناعة.

ومنه الفصل الخامس، في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة في مقدمات صادقة يلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية.

المسألة الأولى: وهي تتعلق بالبلاد والأهوية يجري هكذا: لم صار الحبشة[2] والصقالبة[3] وبلادهم وطباعهم متضادة، يغتذي كل منهم بالأغذية الحارة اليابسة، ويشربون الخمر، ويتفلفلون[4] بالمسك والعنبر، ووجب أن يجري فيهم عَلَى خلاف هَذَا التدبير. عَلَى أنه لَيْسَ للشيخ أن يقول إن الصقالبة يستعملونه دواء والحبشة غذاء، ذَلِكَ للمضادة وهذا للمشابهة لئلا يلزمه أن يستعمل مثل ذَلِكَ في الصيف والشتاء، فنسبة الصيف إِلَى بلاد الحبشة نسبة الشتاء إِلَى بلاد الصقَالبة. ونحن نرى أن الأمر يجري على خلَاف هَذَا، لأنا نستعمل في الصيف الأغذية الباردة وَفي الشتاء الأغذية الحارة. وفي هذا أيضاً شكٌّ عَلَى اغتذائها في الشتاء بالأغذية الحارة والحر كامن فينا، وفي الصيف الأغذية الباردة والبرد في الباطن مستول علينا لانفشاش[5] الحرارة من مسامنا. وهذا ضدّ قانون الصناعة. وأطرف من كون

(1) ايساغوجي تعني علم المنطق، وهي لفظة يونانية الأصل Isugogu تعني المقدمة العلمية لدراسة أو بحث في حقل من حقول المعرفة.

(2) تطلق الحبشة في المصادر العربية على سكان أفريقيا السود، ولا يقصد بها دولة أثيوبيا (الحبشة) الحالية التي هاجر إليها الرسول أولى هجراته.

(3) في القاموس: الصقالبة جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر بين بلغر وقسطنطينية وقال: السقلب: جيل من الناس، وهو سقلبي والجمع سقالبة. في كتابه «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي» يقول الفرنسي جوزيف ريتو (ولد عام 1795 وتوفي في باريس عام 1868) إن «الفتوحات الإسلامية كانت تكتسي طابعا من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن أن يقرأ إنسان أخبارها أو يسمع رواياتها دون أن تهتز نفسه لها. لقد كان المسلمون وعلى مدى أجيال متعاقبة في طليعة قافلة الحضارة في العالم" وذكر: «لما كان المسلمون غيورين على الحريم، فقد ظهرت صناعة خصي العبيد لاستخدامهم للعناية بالحريم في قصور الملوك والأمراء، وهذه الحاجة لم تلبث أن تولدت عنها حرفة جديدة في فرنسا، تخصص فيها أناس وتأسس لذلك معمل في مدينة «فيردون» وآخر في بلاد اللورين فكان الصبيان الذين يعيشون بعد هذه العملية القاسية يرسلون إلى إسبانيا حيث يدفع كبار الناس أموالاً طائلة لشرائهم». وقد ازدهرت تجارة مثل هؤلاء الأشخاص الصقالبة بحيث أن الناس كانوا يتهادونهم كما يتهادون الخيل والحلي الثمينة. ويروي أحد الكتاب العرب انه في سنة 966 ميلادية رأى أمراء قطالونية (في إسبانيا) من الإفرنج أن يتقربوا من خليفة قرطبة، فقدموا إليه هدايا كان من جملتها 20 شخصاً من هؤلاء الصقالبة. «وقد لوحظ أن عددا من الصقالبة في أفريقيا الشمالية وسوريا وفي غيرهما من البلدان الإسلامية وصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة». «والكتاب العرب يرجعون الرقيق الجرماني والسلافي إلى أصل واحد ويسمونهم صقالبة».

(4) بمعني يتعطر. جاء في اللسان: "قال عَبْد خَيرٍ إنه خرج وقت السحَر فأسرعْت إليه لأسأله عن وقت الوِتر فإذا هو يتَفَلْفَل، وجاء فلان مُتَفَلْفِلاً إذا جاء والمِسواك في فِيه يَشُوصه؛ ويقال: جاءَ فلان يتفلفل إذا مشى مِشْية المتبختر، وقيل: هو مُقارَبة الخُطى، وكلا التفسيرين محتمل للروايتين؛ وقال أخرون: جاء فلان مُتَفَلْفِلاً إذا جاء يشُوص فاه بالسِّواك. وفَلْفَل إذا استاك".

(5) لانفشاش الحرارة يقصد لتسرّب وخروج الحرارة.

الغذاء حاراً مع كون أجوافنا فِي الشتاء حارة خروج البول أبيض وحدوث الأمراض البلغمية وخروج البول نضحاً[1] فِي الصيف وحدوث الأمراض الصفراوية مع برد أجوافنا فِي الصيف.

والمسألة الثانية: لم صار الإنسان ربما نام وهو حاقن[2] فرأى كأنه يبول فلا يبول، وانتبه وَقَدْ حضرته البولة للخروج، فنهض فبال، ثُمَّ أنه يري ذَلكَ الإنسان فِي منامه أنه يجامع فلا يتمالك حَتَّى يُنْزِل، فينتبه وَقَدْ أفرغ منيه فِيَ ثوبه. ليت شِعري مَا الَّذي منع البول من الخروج عَلَى حدته، وأمهله إِلَى الانتباه مع كثرته، وأرسل المنِيَ عَلَى قلته، وحضره فِي المنام فلم يمهله إِلَى الانتباه وهما جميعاً فضلتان[3]؟. وهذه المسألة وإن كَانَتْ حقيرة فهي نافعة فِي كشف منتحلي هَذهِ الصناعة وَقَدْ ذكرناها فِي الدعوة الطبية.

المسألة الثالثة: تتعلق بالسماع الطبيعيّ، لأني عرفتُ أن الشيخ فسّرَ هَذَا الكتاب وتَجْري هكذا: أرسطوطاليس حَدَّ[4] المكان بأنه نهاية الجسم الحَاوي المقعَّرة المُماسةَ لنهاية الجسم المَحْوْي المحدَّبة. وهذا حدٌّ لا ريب فيه، إلاَّ أنه يلَزم منه إحدى ثلاث شناعات[5]: إما أن يكوّن خارج العالم مكاناً فيلزَمَ المُضي إِلَى مَا لا نهاية، أَوْ يكوّن حركةً فِي المكان لا فِي مكان فيلزم من ذَلكَ اجتماع النقَيضين معاً، وإما أن يكون أرسطوطاليس[6]- ومَعاذ الله- غلط فِي حَدّ المكان. وإما كَيْفَ ذَلكَ فيجري هكذا: الفلك المحيط يتحرك بأجزائه الخَارجة، لأن كل جزء منه يأَخذ من نقطة ويعود إليها. ولنفرض جزءاً من أجزائه الخارجة متحركاً، وننظر هَذَا الجزء إذَا تحرك فإنه لا يخلو إما أن يكوِّن خارجه مكاناً يتحرك فيه، كما يتحرّك رجلَ فِي السطح الداخل فِي فلك الثابتة، فيلزم أن يكون خارَجَ العالم جسماً ويمضي هَذَا بلا نهاية، وإما أَن لا يكوّن خارجه جسماً أن يتحرك الجزء الخارج من الفلك المحيط حركة مكانية لا فِي مكان فيجتمع النقيضان معاً، وهذا

(1) نضحاً: أي قليلاً كأنه ينضح.

(2) حاقن: حَقَنَ الشَّيءَ يَحْقُنُه ويَحْقِنُه حَقْناً، فهو مَحْقُونٌ وحَقِينٌ: حَبَسه. والحاقن: الذي حبس بوله.

(3) فضلتان أي من الفضلات كما نقول اليوم وهي المواد التي يطرحها الجسم.

(4) حدّ يحدّ: الحدّ: قولٌ دال على ماهية الشيء، وعند أهل الله: الفصل بينك وبين مولاك، كتعبدك وانحصارك في الزمان والمكان المحدودين (التعريفات للجرجاني).

(5) الشَّناعةُ: الفَظاعةُ والقباحة.

(6) وردت ترجمته آنفاً.

محال، وإما أن يتحرّك الجزء الخارج من المحيط بمواصلته للأجزاء الداخلة منه في مقبّب[1] الفلك الَّذي تحته، فيلزم أن يكون المتمكن لا يماس المكان أَوْ تكُوْن الأجزاء الخارجة هَي الأجزاء الداخلة وبينهما من البعد مَا تشهد به التعاليم وينكسر الحدّ. فنقول: أن حد المكان هو نهاية الجسم المَحْويْ[2] المحدَّبَةَ المماسة لنهاية الجسم الحاوي المقعرة، فإن لَمْ ينكسر صار للمتمكّن وهو جوهر المكان وهو عرض، فيكون الجوهر والعرض، فنبقى حائرين: إن أثبتنا الحركة المكانية لزم كون العالم فِي مكان، وإن أبطلنا كون العالم فِي مكاَن لزم وجود حركة مكانية لا فِي مكاَن. والخلاص من هَذه الشبهة يكوَن بتغليِّط أرسطوطاليس فِي حدّ المكاَن، والكفر بتأييد الله لَهُ، وبقَاَء الحدّ بجعل الجوهر هو العرض من جهَة عدم مناسبة حركة المتمكن فِي المكان.

المسألة الرابعة: من كتاب النفس وهي من المسائل العظيم محلها، العسير حلها، وتجرى هكذا: قَدْ بان فِي الكتب الإلهية أن النفس الناطقة باقية فلا تخلو بعد فساد الموضوع بالموت أن تقومَ بنفسها أَوْ فِي موضوعها أَوْ فِي موضوع آخر، فإن قامت بنفسها لزم أن تكون صورة غير الباري قائمة بنفسها، وإن قامت فِي موضوعها الفاسد وَقَدْ انحل إِلَى الاسطقسات لزم أن تكون مفارقة معاً وغَير مفارقة، ويكون الميّت هو الحيّ، وهذا محال. وإن انتقلت إِلَى موضوع آخر لا يخلو إما أن يكون مناسباً أَوْ غير مناسب فإن كَانَ مناسباً لزم أَن تتحرك النفس إِلَيْه فِي المكان، وليست جسماً والحركة من صفات الأجسام، وإنْ كَانَ غير مناسبَ أن يحلَّ أي صورة اتفقت فِي أيّ هيولى اتفقت، وهذا شكٌّ من قبيل عدم مناسبة الهيولى لجوهر الصورة، وإن صح- والعياذ بالله- بطل عنا بشفاء الفلسفة.

ومنه من الفصل السادس:

ذكروا أن فيلسوفاً أودع بعض أمناء قضاة أثينية[3] ثوباً، فضاع عنده، فاغتم لَهُ الفيلسوف غماً شديداً، فعُيِّرَ بذلك، فقال: بلغنا أن خَطّافةً[1] عششتْ فِي مجلسِ

(1) مقبّب: أي قُبّة الفلك.

(2) في علم المنطق ثمة (الحَاوي) و(المَحْوُي). "والحكماء ذاهبون إلى امتناع الخلاء، والمتكلمون إلى إمكانه، وما وراء المحدد ليس ببعد، لا لانتهاء الأبعاد بالمحدد، ولا قابل للزيادة والنقصان لأنه لا شيء محض، فلا يكون خلاء بأحد المعنيين، بل الخلاء إنما يلزم من وجود الحاوي مع عدم المحوي، وذا غير ممكن (التعريفات للجرجاني).

(3) أثينية أي أثينا وكانت من أهم المدن الأغريقية، والمقصود بأثينا هنا اليونان.

قاضٍ، فسرقت الحيةُ فراخَهَا، فعزّاها الطير فلم تتعزَ، فأنكر ذَلكَ عَلَيْهَا. فقالتْ: واللهِ مَا بكائي لتفرّدي دون الطيرِ بهذه الرزيةِ إنما بكائي لما يأتيَ عليَّ من الجور في مجلس الحُكْمِ.

ومن هَذَا الفصل وَفي هَذه المقالة يأمرني الشيخُ بتصفّح تصانيفه لأهدي إلى الناس عيوبَه، وَمَا أجدُهُ من أغْلُوطَاته. ومعاذ الله فإن قَدرَهُ يَجلُّ عن هَذَا. غير أنني اتبعتُ غرضه والتمستُ منها، فوجَدَهَا لَمْ تنتشر بأيدي الناسَ بمصر فنسبتُ ذَلكَ إلى ضنَّته[2] بهَا، ثُمَّ أتحفني بعض أصدقائي بردِّه عَلَى المؤيد أبي زيد حنين بن إسحاقَ[3] فيَ مسائله الَّتي انتزعها لولده من كتَب جالينوس[4]، فقرأت ترجمتها وإذا به قَدْ وسمها بأغلوطَات حنين[5]، فعلمت أن الله يمهل عبده لخطائه إلى وقت يشاء. تصفحتها فرأيتُ كلامه فيهَا كلامَ من لَمْ يحط بشيء مما فيهَا علماً، لعدم قراءتها عَلَى معلميْ الصناعة، وَقَدْ سلك في بعضها ضد المعرفة، فكان كمن رام إدراك الألوان بحاسة الذوق، والأصوات بحاسة الشم، فلم يدرك شيئاً، وتطلبتُ في جميعها مَا لاَ يجوز أن يُجاب عنه. فلمَ أجد إلاَّ مسألة واحدة عَلَى مَا حكى لي الثقة الأمين من جملة مَا وجدها بخط ابن بكش[6]، فأخذها الشيخ وادعاها. والمسألة صفتها هَذه الصفة: قال المؤيد حنين في قسمة الصفراء: إن المُحّ يكُوْن من مخالطة البلغم للمرَار الأحمر، ولهذا صار أبرد من الحمراء، وقال جالينوس: إن المُحيّة تحدث من غلبة الحرارة على المُرّة الحمراء، فهي أسخن وأجف منها، وهذا

---

(1) خطافة: الخطّاف: بضم الخاء المعجمة، جمعه خطاطيف، ويسمى زوار الهند، وهو من الطيور القواطع.

(2) الضنة: الحرص.

(3) حنين بن إسحاق العبادي (194 – 264هـ / 809 – 877م): عالم موسوعي وطبيبٌ كحّالٌ. درس علوم النبات والفلك والرياضيات والمنطق وكان يتقن اللغات العربية واليونانية والسريانية والفارسية ولد بالحيرة وكانت إحدى مراكز الثقافة اليونانية قبل الإسلام وزار بلاد الشام والروم وفارس. ودرس الطب في مجلس يوحنا بن مأسوية. وبرع فيه وخدم الخليفتين العباسيين المأمون والمعتصم وجعله الخليفة العباسي طبيبه الخاص ورئيسا للأطباء في بغداد. وكانت دراسة حنين للعربية علي يد الخليل بن احمد الفراهيدي عندما كان الخليل ببلاد فارس وجلب حنين معه بلاد إلى بغداد كتاب "العين" الذي وضعه الخليل ليكون أول معجم للعربية. وكان حنين من كبار المترجمين حتى أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل وقد نقل حنين كثيرا من الكتب إلى العربية لأبناء موسى ابن شاكر وكان يرحل في طلبها إلى بلاد الروم.

(4) جالينوس الحكيم: الفيلسوف، الطبيعي، اليوناني؛ ظهر بعد بقراط، من مدينة فرغاموس، من أرض اليونانيين؛ إمام الأطباء في عصره، ورئيس الطبيعيين في وقته، مؤلف الكتب الجليلة في الطب، وغيره من علم الطبيعة، وعلم البرهان؛ ومؤلفاته تنيف على ستين مؤلفا؛ وكان بعد المسيح بنحو مائتي سنة، وبعد الإسكندر بنحو خمسمائة سنة ونيف، ولا يُعلم بعد أرسطاطاليس أعلم بالطبيعي من هذين بقراط، وجالينوس؛ قيل هو من بلاد إيشيا، شرقي قسطنطينية، في دولة القيصر السادس، وجاب البلاد، وبرع في الطب، والفلسفة، والرياضة، وهو ابن سبع عشرة سنة؛ وكان أبوه أعلم بالمساحة في زمانه، وكانت ديانته النصرانية. مات في مدينة سلطانية، وقبره بها، وعاش ثمان وثمانين سنة؛ وكان يأخذ نفسه في كل يوم بقراءة جزء من الحكمة، ولم يأخذ من الملوك شيئا، ولا داخلهم.

(5) أي أن علي بن رضوان قد وصفها في بعض كتاباته بأنها أخطاء حنين.

(6) هو علي بن إبراهيم بن بكش. أبو الحسن. طبيب ماهر بصناعة الطب، متقن لها غاية الإتقان. لما أنشأ عضد الدولة البويهي البيمارستان ببغداد جمع له الأطباء من الآفاق، فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيبا كان منهم ابن بكش، وقام بتدريس الطب في البيمارستان المذكور. نقل كثيرا من الكتب إلى العربية.

يظن مضاداً لذلك ومخالفاً لَهُ، وحلّ هَذه الشبهة يأتي بأهون سعي، ذَلكَ أن المُحّيّة اسم مشترك يقع عَلَى الحمراء إِذَا نضَجَت بنفسها وهذه حارة، ويقع عَلَيْهَا إِذَا خالطها البلغم فيردها بمخالطته لَهَا، ولهذا عيّن حنين عَلَى مخالطة البلغم لَهَا، وجالينوس أفردها بنفسها، ولهذا لا يكونان اختلفا. والدليل عَلَى أن اسم المُحّيّة مشترك أنه لو أفردنا إحداهما لَمْ يكن للآخر اسم. وإذا كَانَ الأمر عَلَى هَذَا فما تعاندا في المعنى لكن اختلفا في دلالة الأسماء، وَفي الحقيقة المُحّيّة مشتقة من مُحّ البيضة، والمُحّ يقع عَلَى الصُفْرَة وعلى البياض والصفرة. فمن سمى الجملة محا فقد أطلق حكم الجزء عَلَى الكل كما فعل حنين، ومن سمى الصفرة محا جاز كما فعل جالينوس. ولو سُئلَ حنين عمّا قاله جالينوس لقالَ بقوله ومثل ذَلكَ كما يقال في كل صورة بقياس الهيولى عرضاً وبقياس المركب جوهراً. ولا يَصحُّ هَذا إذا كَانَ لَيْسَ إلاّ من جهة واحدة، وأنت تعلم أنهما يتضادّان، إنْ لن يتضادا من نظَرك إلَى الموضوع فإن الموضوعَ إنْ كَانَ واحداً واختلفا في الحكم فقد تضادا، لأن الأضداد موضوعها واحد، وإنْ لَمْ يكن الموضوع واحداً فما تضادا في الحقيقة، وإن اختلفا بوجود البلغم وعدمه في حكمهما فقد بطل بكون عدم الموضوع واحداً أنْ يكونا تضادا. ومثل ذَلكَ يوجد في علوم كثيرة، فإن أبا حنيفة[1] وصاحبيه أبا يوسف[2] ومحمد اختلفوا في نكاح الصابئة[3] وأكل ذبائحهم. فحرَّمها أبو حنيفة، وأحلّها

(1) هو النعمان بن ثابت بن زوطي، التيمي بالولاء. أبو حنيفة. فقيه العراق وإمام الحنفية وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد ونشأ بالكوفة، ولما شب تلقى الفقه على حماد بن أبي سليمان الأشعري وسمع كثيرا من علماء التابعين وروى عنهم كعطاء ابن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر والشعبي والزهري وغيرهم. وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وزفر والهذيل ومحمد بن الحسن الشيباني وأبو يوسف القاضي وغيرهم. كان زاهدا ورعا، أراده يزيد بن هبيرة، أمير العراق، أيام مروان بن محمد أن يلي القضاء فأبى وأراده بعد ذلك المنصور العباسي على القضاء فامتنع وقال: لن أصلح للقضاء، فحلف عليه المنصور ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لن يفعل، فحبسه المنصور إلى أن مات، وقيل إنه قتله بالسم لأنه أفتى بالخروج عليه وقيل إنه توفي وهو يصلي. كان واسع العلم في كل العلوم الإسلامية وهو الذي تجرد لفرض المسائل وتقدير وقوعها وفرض أحكامها بالقياس وفرع للفقه فروعا زاد في فروعه، وقد تبع أبا حنيفة جل الفقهاء بعده ففرضوا المسائل وقدروا وقوعها ثم بينوا أحكامها. وكان أبو حنيفة يتشدد في قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله. توفي في بغداد عن سبعين سنة.

(2) أبو يوسف: هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي البغدادي. أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من صنف الكتب على مذهبه وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض. اشتغل برواية الحديث، وروى عن أئمة المحدثين وتفقه أولا بابن أبي ليلى ثم انتقل إلى أبي حنيفة. رحل إلى المدينة وأخذ عن مالك بن أنس، وناظره في مسائل كان يقول فيها بمذهب أهل العراق فرجع عنها لقول مالك، ثم رجع إلى العراق بأفكار أهل الحجاز فمزجها بمذهب العراقيين، ورجع في كثير من المسائل إلى رأي مالك. تولى القضاء سنة 166 هـ في عهد الخليفة المهدي واستمر في القضاء أيام الهادي والرشيد، وجعله الرشيد قاضيا للقضاة في جميع مملكته، وأصبحت تسمية القضاة راجعة إليه من خراسان إلى أفريقية وهو أول من كان له هذا المنصب الخطير. هو أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان يحضر مجلس قضائه العلماء على طبقاتهم. كان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. مكث في القضاء من بعده ابنه يوسف وكان نائبه على الجانب الشرقي من بغداد. مات وله من العمر 69 عاما. من آثاره كتاب الخراج، وكتاب النوادر، وأدب القاضي، والأمالي في الفقه، والرد على مالك بن أنس، وغير ذلك، وقد اندثر جل كتبه.

(3) "الصابئة والمنداء اسمان لديانة واحدة، كما يؤكد بعضهم. وهي الديانة الثانية في القدم في وادي الرافدين، بعد الديانة السينية (اليزيدية) وعمرها لا يقل عن خمسة آلاف عام. ويدعي الباحث المندائي سليم برينجي أن الإسم (منداء) عرف حديثا عن طريق التقويم اليزدجردي (الفارسي). بينما أنا أرى اسم المنداء أقدم من الاسم الدارج حاليا وهو الصابئة. فكلمة مندا تعني: بيت المعرفة. ويقابلها بيت آي الكلدانية. والصابئية أساسا بدأت نواتها في بيوت المعرفة المغرقة في القدم في

صاحباه. فقال أصحابهم: إنه لَيْسَ بخلاف عَلَى الحقيقة وإنما هو خلاف في الفتوى. لأن أبا حنيفة سئل عن الصابئين الحرّانيين(1) وهم معروفون بعبادة الكواكب، فأجراهم مجرى عبدة الأوثان في تحريم المناكحة والذباحة. وصاحباه سُئلا عن الصابئين السكّان بالبطيحة(2)، وهم فرقة من النصارى يؤمنون بالمسيح عَلَيْهِ السلام، فأجابا بجوازِ ذبائحهم ومناكحتهم. ولو سُئل أبو حنيفة عن هؤلاء

القسم الجنوبي والشرقي من سهل شنعار (القسم السهلي من وادي الرافدين) والتي ربما تعود إلى بدايات الألف الثالثة قم. ويعرف التراثيون أن أول بيوت المعرفة كانت في خانقين وأكد وكل جنوب شنعار حتى رأس الخليج الكلدي (العربي). والاسم الكهنوتي للمنداء هو: ميرياي. وهي كلمة تعني: الماريِّن، او أبناء الله. حيث الكلمة (ماري) هي صفة من صفات الله، واسم أعظم له. وللصابئة اسم آخر وهو (الميسانيون) وهو اسم جغرافي، بسبب سكناهم في دشت (سهل) ميسان بالأساس. وميسان اسم سومري قديم أيضا ويعود لمنتصف الألف الثالثة قم، حين كانت ميسان (ميتاني) دولة عريقة الحضارة. واسم الميسانيين، تسبب في بعض الخلط حين جري الحديث عن هذه الطائفة باللغات الأخرى. فهناك طائفة الميسينيون، وهم طائفة يهودية نشأت على عتبة القرن الميلادي الأول في البحر الميت، مثلما هناك طائفة الماسونيين (أو الفرمسيونيين أيضا) ومؤسسها أغريبا (أو هيرودس الثاني) عام 40م وهم أيضا بالبدء كانوا طائفة يهودية، ثم أصبحوا الآن يجمعون ما بين اليهودية واليمينية المسيحية. ولا صحة للإدعاء بأن اسم الصابئة جاء من كلمة: صبأ، أي نفر وخرج. بل ربما أصل كلمة صبأ بالذات جاء من اسم الصابئة، بسبب العزلة الطقوسية. واسم الصابئة أساسا آت من كلمة مصبوتا التي تعني: المتعمِّد أو المغتسِل. والفعل (صب) من العربية يعني أراق. والجنوبعراقيون حتى اليوم يقولون: صبْ بدل اسكب. وهو ربما يدعم أن الفعلين صبأ وصبب صابئيا الأصل. اللغة المندائية: السريانية (البابلية) والآرامية (الهورامية) لغة ميسان وجنوب شنعار عموما. وكلاهما فرعان للغة الأكدية ولا يختلفان عنها سوى ببعض المصطلحات. الديار: دشت ميسان (الأهوار والأهواز ومحافظة ميسان) وحوض نهر الكرخة من إيلام حتى العمارة، وجنوبي الفرات. وبعض من خصوصيات الديانة المندائية هي: العفة الطهارة والتعمد (الاغتسال) بالماء الجاري. اللباس الطقوسي الأبيض مع ملحقات هي غصن زيتون وعصا، تقديس الأجداد، تحريم الطلاق إلا لأسباب قاهرة كالخيانة الزوجية، ثانوية مكانة المرأة، وراثية الكهانة، صيانة أسرار العبادة، تحريم حلق الشعر، مراسيم الدفن الطقوسية (ولا مجال لذكرها هنا) قدسية الماء. تقول برحلة الروح وتقول بالكفارات، تكن أشد العداء لليهودية. والنبي يحيى (ع) يقول: "لن أذهب إلى أورشليم مدينة الشر والخاطئين التي بناها أودوناي وملاها بالأكاذيب" (عن مقالة د. نوري المرادي: الصابئة المنداء).

(1) عن الحرانيين وعلاقتهم بالمندائيين: "المندائيون أو كما يعرفون بالصابئة من الأقوام الأصلية التي سكنت بلاد ما بين النهرين منذ القدم، وديانتهم "المندائية" هي بابلية رافدينية أصيلة، ابتعدت قليلاً عن الديانة البابلية الكلدانية التي كانت سائدة سابقا في بلاد آشور وبابل. هذه الديانة المندائية والتي عرفت بعد العصر الإسلامي بـــ (الصابئية)، قد انتشرت على نطاق واسع في أنحاء كثيرة من سوريا وبلاد ما بين النهرين. وتقول المصادر المندائية أن هذه الديانة قد نازعت ونافست الديانة اليهودية حتى في عقر دارها في فلسطين. وقيل إن مندائيي فلسطين الذي آمنوا بـــ (يوحنا المعمدان)، (وهو نفسه الذي عمد السيد المسيح في نهر الأردن) قد نقلوا وأضافوا إيمانهم بيوحنا المعمدان إلى معتقدات أشقائهم المندائيين في بلاد ما بين النهرين بعد هجرتهم من فلسطين إلى العراق الحالي اثر تعرضهم هناك إلى مذابح فظيعة على أيدي اليهود. وحول تشابك التسمية المندائية مع الصابئية يقول البطريرك السرياني مار يعقوب الثالث إن: (كلمة "الصابئين أو الصابئة" سريانية محرفة، أصلها صبوعه أو صبوعو صابوعي أو صابوعا. أما كلمة "الصبة" فهي الأخرى سريانية، أصلها صوبعو صوبعا. وكلمة "الصابئين" تعني الصابغين. وكلمة "المانديين" تعني المعمدانيين، وكلتاهما نسبتا إلى مار يوحنا الصابغ أو المعمدان). أما الأب أنستاس الكرملي البغدادي فيقول عن تسمية الصابئة إن: (الصابئة عندي مشتقة من "صبأ" لفظة قديمة من عهد أن كانت اللغات السامية لغة واحدة أو لغة مختلطة ومشتركة بين عامة الساميين ومصحفة عن "ضَوَأ" التي قلبها العرب في إصلاحهم للغتهم إلى كلمة "ضاء"). ويضيف الأب انستاس: (لفظة "مندايا" مشتقة من فعل بلغتهم "أي السريانية" وهو "يدو" ويقابله بالآرامية "إيداع" ومعناه علم وعرف وفهم. واسم الفاعل "مدعو، وفي مقابلة مع الشيخ (سلوان شاكر) أحد مسؤولي الطائفة المندائية في السويد، يقول عن التسمية المندائية: (الصابئة كلمة أطلقت على المندائيين، وتعود إلى جذر (مندا) أي المعرفة. والصابئة هي أيضاً آرامية جاءت من جذر (صبا) وتعني، تعمد أو غطس وذلك لأننا نتعمد في الماء الجاري (ماي ميدوثا). فاستعملت هذه الكلمة من قبل عامة الناس فأطلق علينا الصابئة أو الصبا..الخ. أما في نصوصنا فنستعمل المندائية ولا نذكر الصابئة. وعلاوة على هذا هناك أفكار مغالطة للواقع يتداولها الناس، وهي أن حدث مغالطة في الخلط ما بين صبا العربية وصبا الآرامية التي هي أقرب إلينا ولأن الآرامية أقدم من العربية كلغة. وفي الماضي السحيق كان المندائيون موجودون أيضاً في منطقة حران الشهيرة (أعالي ما بين النهرين)، -التي اغتصبت من سوريا وضمت إلى تركيا- هذه المدينة أنجبت الكثير من العلماء السريان (المسيحيين والصابئة) وساهموا فيما بعد ببناء الحضارة الإسلامية. وما يجدر ذكره هنا أن أخر ملوك بابل (نابونيد) كان ابنا لكاهنة حرانية (انظر كتاب أصول الصابئة، لمؤلفه عزيز سباهي). ولكن الاختلاف بين هذه الفرقة الحرانية وشقيقتها في بلاد بابل، يكمن في معتقدات الحرانيين توجد عبادة القمر والنجوم والكواكب وتحريم حلق اللحى والشعر وغيرها، وهي تماماً معتقدات البابليين القدماء (الآراميون- الكلدان)، أما المندائيون في منطقة ميشان (ميسان) فقد أضافوا على هذه المعتقدات عادة التعميد بالماء الجاري، ومنع الطلاق بين الرجل والمرأة، والتأكيد على حياة البساطة ومساعدة الفقراء، وتبجيل يوحنا المعمدان وغيرها من الطقوس" (عن مقالة شمعون دنحو: المندائيون وإرتباطهم بهوية الرافدين الوطنية!).

(2) والبَطِيحَة: ما بين واسطَ والبَصْرة، وهو ماء مُسْتَنْقِع لا يُرَى طرفاه من سَعَته، وهو مَغِيضُ ماء دِجْلَة والفُرات، وكذلك مَغايِضُ ما بين بَصْرَةَ والأهْواز.

لأفتى بفتوى صاحبه. ولو سئل صاحباه عن الفرقة لأولي لأفتيا بمثل قوله. وَفِي هَذه الأشياء يظهر فضلُ التلبّث والارتياء[1] عَلَى الطيشِ والعجلة.

وإني لأعجبُ من الشيخ كَيْفَ أخذ عَلَى حُنين هَذَا، وَلَمْ يأخذ عَلَى جالينوس ثلاث سؤالات مُبْهَمة. الأول منها: أنه سمّاها مُرّةً وهي حُلوة. فإن قلت: إنه فعل ذَلكَ مجازاً لَمْ يجوّز ذلكَ لجالينوس، ولا يجوّز لحنين كون المُحيَّة مائلة إِلَى البرودة. والثاني: أنه سمّاها صفراء من القسم الخارج من الطبيعة، وَلَمْ يُسَمِّها من الطبيعي حمراء. الثالث: أن عددها أربعة وأسقط الزنجاري[2] منها. فإنْ كَانَ عند الشيخ لجالينوس عُذْرٌ، فليعتذرْ بمثله لحُنين في تقصيره قسمة البلغم إِلَى خمسة إن كَانَ عَلَى قولك سبعة، وهَبْهَا سَبَعة، وليست لأن جالينوس عددها خمسة فِي كتاب القوى وحنين اتبعه فِي هَذَا العدد. نعوذ بالله من المضي مع الهوى المفضي إِلَى طرق الرَدَى[3].

فلنترك هَذَا الفن فإنه يخرجنا إِلَى الهذيان والإطالة، ونأخذ فِي تصفُّحِ بقيّة المقالة.

ومنه من الفصل السابع فِي تتبع مقالته فِي النقطة الطبيعية وكشف مَا دخل عَلَيْه من الشبهة فيهَا. أما الحد الَّذي أورده عن إقليدس[4] للنقطة، فقال: "أن النقطة هي شيءُ مَا لا جَزءَ لَهُ"، فأنا أحَب أن أسأله فِي أول مصادرات إقليدس لما منحه الله من العلوم الَّتي خصّه بِهَا، فأقول إن عَلَى فهمنا فِي هَذَا الاسم شكوك. الأول منها:

لِمَ حَدَّ إقليدس النقطة عَلَى جهة السلب، والحدود والرسوم الصحيحة تكون عَلَى جَهة الإيجاب ليكون الحد مطابقاً لما ابتنى عَلَيْهِ الأمر، وإن رسم شيء عَلَى

---

(1) الارتياء أي الرويّة.

(2) الزنجاري هو لون الزنجار وهو الصدأ.

(3) الرَدَى: الهلاك.

(4) إقليدس هو أبو الهندسة واستطاع أن يجمع شتات ما تم إنجازه في مجال الرياضيات عند اليونان وأسس عليه نسقاً هندسياً سمي بالهندسة الإقليدية.

جهة السلب فإنما يكون ذَلكَ لأمر لَهُ شركة مع أمور محصورة بالعدد قَدْ عرف جميعها، فيجد سلبها كما فَعل فرفوريوس[1] فِي العرض.

والثاني: لم رسم النقطةَ برسمٍ لا يميّزها مما سواها فإن رسمها يصلح للوحدة والآن، وذلك أن كل واحد من هَذِهِ هو شيء مَا لا جزء لَهُ.

والثالث: مَا العلة الَّتِي من أجلها ضم فِي حد النقطة الصورة إِلَى الهيولى، وَفِي الخط ذكر الصورة فقط.

والرابع: مَا الفائدة بدخول لفظة مَا فِي الحد، وَمَا المضرة الَّتِي كَانَتْ تكون بإسقاطها مع إبهام المحدود وعموم الحد فِي الجميع.

والخامس: فِي سؤاله- حرسه الله- مَا الفرق بَيْنَ التلفظ بالحدّ والقول الجازم، فإن ظهر الحد أنه قول جازم محموله مركب، فإنك تضع الإنسان وتحكم عَلَيْه بأنه حيوان ناطق. فكذلك النقطة. فهذا مَا التمس جوابه فِي حد النقطة. فإن سامحني بهذه السؤالات تفضلاً منه، وإلا فليحتسب بِهَا من جملة الألف مسألة الَّتِي فسح فِي تحديه بِهَا.

ومن هذا الفصل:

فأما اعتقاده أن جذب المغناطيس للحديد يكون بخطوط تخرج من الحجر، فيلزم منه أن يكون، كلما جذبَ الحجرُ الحديدَ، نقصانُ الحجر وزيادة الحديد إِذَا كَانَتْ هَذه الخطوط لَهَا ميل طبيعي، ولأنها أجسام طبيعية يلتزم تحركها إِلَى المكان لا فِي زمانَ، وهذا محال.

وَقَدْ خطر ببالي سؤال يحتسب به الشيخ من جملة الألف مسألة وهو: هل الحديدُ يطلب الحجرَ شوقاً إِلَيْه أم الحَجَرُ يجذبه إِلَيْه بقسر منهُ؟. وقبيح بنَا أن لا نعلم ذَلِكَ ضرورةً، ونحن نشاهده حساً. وهذا سؤال إن لَمْ نرجع فِيه إِلَى ما قاله

(1) فرفوريوس ــ برفوريوس الصوري Porphyre de Thyr (234؟ – 305؟ م.): فيلسوف سوري يوناني. من مواليد صور. يعتبر أحد أبرز ممثلي الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. تتلمذ على أفلوطين ووضع ترجمة لحياته. انتقد النصرانية انتقاداً قاسياً في كتاب دعاه "ضد النصارى" Against the Christians.

ذلكَ المؤيد حنين، صاحب الأغلوطات[1]، بقينا حيارى، نعوذ بالله من الميل مع الهوى، والانخراط فِي سبيل الشيطان المُغْوَى وعصيان القوة الناطقة.

ووجدت الشيخ فِي فصل من المقالة قَدْ حَمَى طبعه، واحتدَّ غضبُه، ونَشَفَ ريقُه، ودَرَّتْ عروقُه، وصَرَخَ بسبِّي، ولوَّح باسمي، وَلَمْ يقض فِي حقِّ الصناعة، ولا رَعيَ فِي حُرْمة الدُرّاعة[2]، ونَسَبَنِي إِلَى الغباء، وقَطَعَ بأنني لَمْ أقرأ شيئاً من علوم القدماء، وقال[3]: إنه لو قرأ[4] العلمَ [لعرف[5]] أن ابن بكش وهو من مشايخ الأطباء، ويقول فِي كُنّاشه أن فِي القلب نقطة منها تنبعث الحياة إِلَى البدن.

وأنا أقول للشيخ أعزه الله: لقد استعجلتَ عَلَى عادتك، وظننتَ أن ابن بكش هَذَا هو الناقل للكُتب، المدرِّس للطبّ. وَلَمْ تعلم أن هَذَا ولد لَهُ ضريرٌ مُحبٌّ للخمر، كثير الغرام بالسُكْر[6]، وهو الَّذي يقول فيه ابن الخمار[7] فِي مقالته فِي (امتحان الأطباء) إن الطبّ آلَ أمرُهُ ببغَدادَ أن صَارَ إِلى من قاد[8] ضريراً شهرين وَقَدْ فتح دكاناً وارتسم بطبّ الأبدان. وابن بكش هذا[9] أُبْعدَ عن البيمارستان، وتحامى طبّه الناس لثلاث خصال: لفساد عقله بمواصلة السُكْر، ولارتعاش يده عن تأمل المجسّ[10]، ولامتناع بصره عند رؤية القوارير، وهو صاحب الشكوك الَّتِي وقعت إِلى الشيخ عَلَى مسائل حنين، فقدَّمَ فِي صدرها خطبةً، ووضع لَهَا الأغلوطات ترجمةً.

وأنا أدلّ الشيخ عَلَى جهله، عَلَى شغف مولاي به فِي هَذا الكُنَّاش، يذكر فيه الكلام عند الفطام أن الرجل ينقص ضلعاً عن المرأة، وَلَمْ يعلم أن هَذَا، لو صَحّتْ فيه الرواية، كَانَ فِي آدم دون سائر البشر، فليس قول ابن بكش حُجة فِي

---

(1) هنا يسخر ابن بطلان من تعبيرات خصمه.

(2) الدُراعة بالضم جبة مشقوقه المقدم. وأظنه يقصد أنه لم يراعي فيه حُرمة الزي الذي كان يلبسه الأطباء والعلماء.

(3) قال يقصد ابن رضوان.

(4) المقصود ابن بطلان. والواضح أن الرحالة يستعير فقرة من نص خصمه.

(5) زيادة يقتضيها السياق والأسلوب المعاصر.

(6) يجلب الرحّالة انتباه خصمه إلى ضرورة التفريق بين ابن بكش الطبيب المشهور (انظر ترجمته آنفاً) وابنه السكّير.

(7) طبيب مشهور، وردت ترجمته آنفاً.

(8) الجملة في النص المطبوع هي "إن الطب آلَ أمره ببغداد إلى أن صار من قاد ضريراً" بتقديم حرف الجرّ.

(9) في النص المطبوع: "وهذا ابن بكش" بتقديم اسم الإشارة.

(10) المجسّ هي أداة الطبيب التي يجسّ بها مرضاه.

وجود نقطة طبيعية. فهذا مَا انتهى إِلَيْه من الكلام، خوفاً من التعرض لأسباب الملام. وبإجابة مولاي عن فصول هَذِه المقالة، وإقامته[1] عَلَى مَا خالف فيه المتقدمين البرهان والدلالة، فرقٌ بَيْنَ السَدَيد الفاضل، والناقص الجاهل. فليتصفَحَ الشيخ مَا أوردْتُهُ تصفُّحَ ذوي الألباب، ويجيب عن فصل فصلٍ وباب باب، ببراهين يزول معها الارتياب. وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب، وأن لَنَا موقفَ حساب ومجمعَ ثواب وعقاب، تتظلم فيه المرضى إِلَى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية بهلاكهم، وأنهم لا يَسامحون الشيخ كما سامحتُه بسبّي، ولا يغضُّونَ عنه كما أغضيتُ عن ثلب[2] عِرْضي. فليكن من لقائهم عَلَى يقين، ويتحقق أنهم لا يرضون منه إِلاَّ بالحق المبين.

والله يوفقنا وإياه للعمل بطاعته والتقرب إِلَيْه بابتغاء مرضاته وهو حسبي ونعم الوكيل".

فقراتُ رسالةٍ تنتهي بذمّ ابن بطلان في مصر[3]

القَلْقَشَنْدي[4] (صبح الأعشى)[5]: "...كانت وزارة الصاحب بهاء الدين ابن حنا في سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري[6]، فأفرد

---

(1) أي ثباته وإصراره على المخالفة.

(2) ثَلَبَ: انتقصَ شخصه.

(3) أوردنا فقرات طويلة من الرسالة التي لا تذكر ابن بطلان إلا عند نهايتها مشيرةً إليه، غامزةً من طرفه، وهو أمر لا بدّ له علاقة بإقامته في مصر وخلافه مع أطبائها، والأثر العميق الذي تركته إقامته هناك، حتى بعد أكثر من قرن من رحيله (توفي القلقشندي عام 1410م بينما توفي ابن بطلان عام 1066م على أبعد تقدير).

(4) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي. (ولد سنة 1355م–1410م). يكنى بأبي العباس، ولد سنة 756هـ في «قلقشنده» وهي قرية من قرى القليوبية قرب القاهرة، وتوفي في القاهرة سنة 821 هجرية. نشأ في بيت علم وثقافة، وقد توجه في المرحلة الأولى من حياته إلى الإسكندرية طالبا العلوم الشرعية، كما استقبل بفنون العربية والأدب حتى اجتمع له مقدار وافر منها، واطلع على كثير من الكتب في مختلف العلوم والفنون ودواوين الشعر، ثم تصدى للتدريس، والتحق بعد ذلك بديوان الإنشاء، وهو من الدواوين المهمة في العصر المملوكي.

(5) القَلْقَشَنْدِي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الجزء الحادي عشر، ص251.

(6) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (658–676هـ: 1260–1277م). وبيبرس من أصل تركي ولد في صحراء القبجاق سنة (620هـ= 1223م) ووقع في أسر المغول وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبيع في أسواق الرقيق بدمشق، فاشتراه الأمير علاء الدين إيدكين الصالحي البُنْدقداري، فسمي "بيبرس البندقداري" نسبة إليه، ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأعتقه وجعله من جملة مماليكه، ثم ولاه رئاسة إحدى فرق حرسه الخاصة، ثم رقاه قائدًا لفرقة المماليك لما رأى من شجاعته وفروسيته. فر بيبرس ومن معه من المماليك إلى بلاد الشام، وظل متنقلا بين دمشق والكرك حتى تولى سيف الدين قطز الحكم سنة (658هـ–1260م) فبعث إليه يطلب منه الأمان والعودة إلى مصر، فأجابه إلى طلبه، وأحسن استقباله وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها. دبر مؤامرة للتخلص من السلطان وهو في طريقه إلى القاهرة، وجلس على عرش مصر. حقق انتصارات باهرة على الصليبيين، منذ أن بدأت حملاته في سنة 1265م.

للجوامع والمساجد والربط والزوايا ونحو ذلك رزقاً (..) وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصوري، كتب بها لمهذب الدين[1] وهي:

الحمد لله الذي دبَّرَ بحكمته الوجود، وعمَّ برحمته كلَّ موجود، وحالَ بنفعِ الدواءَ بين ضرّ الداء كما حَالتْ عطاياه دون الوعود (...). وبعد، فإنا لما أقام الله بنا شعائر الإيمان، وأصبح دينه بحمد الله منصوراً بنا على سائر الأديان، وجاهدنا في الله حق الجهاد باليد والقلب واللسان، (...) واخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب والفقه والحديث والقرآن؛ ورأينا كل من تقدمنا من الملوك، وإن سلك في سياسة الرعية أحسن سلوك، وقد اهتم بعلم الأديان وأهمل علم الأبدان، وأنشأ كل منهم مدرسةً و لم يحفل ببيمارستان، وغفل عن قوله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، و لم يأخذ أحداً من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا وقف وقفاً على طلبة هذا العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكاناً يحضر منه من يشتغل بهذا الفن فيه، ولانصب له شخصاً يتمثل هذا المشتغل لديه. علمنا نحن، بحمد الله تعالى، من ذلك ما جهلوه، وذكرنا من هذه القربة ما أهملوه، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيوية ما فصلوه، وأنشأنا بيمارستاناً يبهر العيون بهجة، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، وبحفظ الصحة والعافية على كل مهجة (...)

أقام بيبرس عددًا من المؤسسات التعليمية، فأنشأ المدرسة الظاهرية بالقاهرة سنة 1262م وألحق بها مكتبًا لتعليم الأيتام القرآن، وأنشأ بدمشق مدرسة عرفت باسمه، وشرع في بنائها سنة 1277م تضم مكتبة مشهورة هي المكتبة الظاهرية. وأنشأ في القاهرة جامعًا عُرف باسم جامع الظاهر بيبرس سنة (665هـ = 1267م). وبعد حياة طويلة في الحكم دامت سبعة عشر عامًا توفي الظاهر بيبرس بعد أن تجاوز الخمسين في 28 من المحرم 676هـ = 2 من مايو 1277م.

(1) مهذب الدين بن علي، هو عبد الرحيم بن علي بن حامد، أبو محمد مهذب الدين، ويعرف بالدّخوار. طبيب انتهت إليه رياسة الطب ومعرفته وتحقيق كلياته وجزئياته. كان أبوه علي بن حامد كحّالاً مشهوراً وقد بدأ علمه من أبيه ثم أخذ الطب عن شيوخ الأطباء فتزود منهم وفاقهم. دخل في خدمة الملك العادل فرأى منه ما أعجبه فارتفعت منزلته عنده وعلا قدره، ولما تحول الملك العادل إلى القاهرة تسلطن فيها صحبه وولاه رياسة أطباء الديار المصرية والشام. وبعد وفاة الملك العادل عاد إلى دمشق وشرع بتدريس الطب في البيمارستان النوري إلى أن توفي. له مصنفات في الطب منها (اختصار الحاوي) للرازي و(اختصار كتاب الأغاني للأصفهاني) و(تعاليق ومسائل في الطب). وغيرها. توفي في دمشق عن 62 عاما.

ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين، ويطرف سماع جملته الأذنين، (...) وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير[1]، (...) فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير، وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يُجْهل، (...) وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرؤوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس؛ فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرضَ بها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجباً وأضحت به معجبة.

ولما كان المجلس السامي مهذب الدين هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه، وكان هو الحكيم بقراط بل الجليل سقراط بل الفاضل جالينوس بل الأفضل ديسقوريدوس- اقتضت الآراء الشريفة أن تزاد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلالة، (...) فلذلك سمّي بالأمر الشريف - لازال للدين ناصراً، ولأعلام العلوم ناشراً- أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيمارستان المبارك المنصوري، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة، علماً بأنه المُتمهّر[2] في هذا الفن، وأنه عند الفراسة فيه والظن، وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدن، وثقةً بأنا للجوهر التقطنا، وبالخير قد اغتبطنا، وعلى الخبير قد سقطنا. فليتلق هذه النعمة بالشكر الجليل، والحمد الجزيل، والثناء الذي هو بالنماء والزيادة كفيل، (...) وليبطل بتقويمه الصحة ما أَلَّفَهُ ابن بطلان، وليرنا،

(1) أي أنه كان مستشفي لعامة الناس.

(2) المتمهِّر: الماهر والعارف.

بتدبيره جبلة البر فإنه جالينوس الزمان، وليبذل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام فإنه ابن سينا الأوان...".

وصف تنيس

المقريزي[1] (المواعظ والاعتبار)[2]: " وقال ابن بُطْلان:

تنيس بلدٌ صغيرٌ على جزيرة في وسط البحر، ميله إلى الجنوب عن وسط الإقليم الرابع، خمس درج، وأرضه سبخة[3]، وهواؤه مختلف، وشرب أهله من مياه مخزونة في صهاريج تملأ في كل سنة عند عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل إليها، وجميع حاجاتها مجلوبة إليها في المراكب، وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر، فإن ضمان الجبن السلطانيّ سبعمائة دينار حساباً عن كل ألف قالب دينار ونصف، وضمان السمك عشرة آلاف دينار، وأخلاق أهلها سهلة منقادة، وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة"[4].

ابن بطلان يؤلف كتاباً في القسطنطينية

ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): "كتاب دعوة الأطباء أَلَّفَهَا للأميرِ نصير الدولة أبي نصر أحمد بن

(1) هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، أبو العباس الحسيني البعلي الأصل (نسبة إلى بعلبك) القاهري المولد والنشأة، ويعرف بابن المقريزي نسبة إلى حارة المقارزة من حارات بعلبك. عاش والده في القاهرة ووليَ هو بعض الوظائف ومنها القضاء والحسبة. انتقل إلى دمشق عام 811 هـ وأقام فيها عشرة أعوام مارس فيها التدريس وإدارة الوقف وعاد بعدها إلى القاهرة. وفي عام 834 هـ توجه مع أسرته إلى الحج، وأقام بعض الوقت بالحجاز واستطاع أن يتعرف على بعض بلاد العرب. عاد إلى مصر سنة 839 هـ إلى أن توفي فيها عن 79 سنة. وقد صنف المقريزي كتباً في الجغرافية والتاريخ. اشتهر بكتابه المعروف (بالخطط) وفيه ذكر ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية مع التعريف بحال مؤسسيها، ومن أجل ذلك سماه (كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار). وله في التاريخ كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) وهو تاريخ مصر بدءً من سنة 577- 844هـ وكتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) وهو معجم لتراجم الأعيان من معاصريه وكتاب (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء) وهو تاريخ الدولة الفاطمية وكتاب (الدرر المضيئة) في تاريخ الدولة الإسلامية من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وكتاب (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع) وكتاب (نبذة العقود في أمور النقَود) يشتمل على تاريخ النقود العربية وكتاب (جني الأزهار من الروض المعطار) وهو تلخيص كتاب (الروض المعطار في عجائب الأقطار) وغير ذلك من الكتب.

(2) المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، طبعة جديدة بالأوفسيت، الجزء الأول، ص177.

(3) سبخة: والسَّبَخَةُ: أَرض ذات ملح ونَزٍّ، وجمعها سِباخٌ (اللسان).

(4) هذه الفقرة تدل، ببلاغة، أن ابن بطلان لم يفوِّت وصف مصر في رحلته التي لم تصلنا كاملةً.

مروان. ونقلت من خط ابن بطلان وهو يقول في آخرها:

فرغتُ من نسخها أنا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون، بدير الملك المنِّيح[1] قسطنطين، بظاهر القسطنطينية في آخر أيلول من سنة خمس وستين وثلثمائة وألف، هذا قوله، ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامي من سنة خمسين وأربعمائة".

(1) هكذا ضبط الأب لويس شيخو هذا الاسم.

ملاحظات كراتشوفسكي عن رحلة ابن بطلان

"... ويمكن من الناحية الزمنية أن ينسب إلى هذا العصر عالم معروف بمصنف له في الجغرافيا، ولو أنه لا يرتبط بشرقي العالم الإسلامي. وكانت رحلته من بغداد إلى الشام ومصر كناصر خسرو ولكن أغراضه تختلف عن أغراض الأخير تماماً؛ ومما يزيد في طرافة وصفه أنه ينتمي إلى وسط النصارى العرب الذين قلما ظهروا على صفحات كتابنا هذا ذلكم هو العالم الطبيعي ابن بطلان الذي نال شهرة عريضة في عصره وخَلَّف عدداً من المصنفات الطبية التي ترجم بعضها إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى. وقد ولد ببغداد حيث درس الفلسفة والطب وتوفي بأنطاكية على ما يبدو عام (458هـ: 1066) ولو أن المصادر غير مُجمعة على تاريخ وفاته. وأول من لفت إليه الأنظار البارون روزن في دراسته المعروفة عن يحيى الأنطاكي الذي كان ابن بطلان معاصراً له؛ غير أن إشارة روزن إليه ظلت مجهولة في الغرب شأنها في هذا شأن عدد كبير غيرها من الأبحاث باللغة الروسية؛ وقد وصل العلم إلى نفس النتائج التي وصل إليها روزن ولكن متأخراً وعلى حدة.

غادر ابن بطلان بغداد في رمضان من عام (404هـ: 1049) ووصف انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام في رسالة إلى صديقه المؤرخ هلال بن محسن الصابي (توفي عام 448هـ: 1056). وهذه الرسالة حفظها لنا ابن المؤرخ وهو محمد بن هلال (توفي عام 508هـ: 1114) في مصنفه "كتاب الربيع"؛ وعنه نقلها ياقوت وابن القفطي في القرن الثالث عشر. ويمكن من خلال هذه المقتطفات تتبع طريق رحلته بوجه عام كما فعل ذلك الأب شيخو؛ فمن بغداد سار في محاذاة نهر عيسى مرتفعاً إلى الفرات حتى بلغ الأنبار والرحبة، ثم عبر المفازة إلى الرصافة الهشامية. ويلوح أنه قد أمضى وقتاً طويلاً بحلب وأنطاكية واللاذقية، وكانت المدينتان الأخيرتان في أيدي البيزنطيين آنذاك؛ ولأنه كان مسيحياً فقد استطاع أن يتعرف عليهما عن كثب كما فعل مع البلاد الإسلامية.

ومن العسير معرفة ما إذا اقتصرت رسالته على وصف هذا الجزء من الرحلة أم أنها تناولت غيره أيضاً، غير أن رجوع ياقوت إليه فيما يتعلق بوصفه ليافا ربما ينهض دليلاً على أنه قد أتم وصف الطريق إلى مصر. ومن خلال المصادر الأخرى نعرف أنه قد زار القسطنطينية إلا أن ذلك قد تم عقب هذا بمدة طويلة.

ومما يزيد في أهمية رسالته أنه استطاع أن يوجه اهتمامه إلى جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية قَلَّ أن حفل بها العرب المسلمون، مثل كلامه عن وضع السكان النصارى وموقفهم من البيزنطيين وعاداتهم وأماكن العبادة عندهم... إلخ. وبالرغم من أن ابن بطلان كان أديباً وشاعراً إلا أن رسالته صيغت في أسلوب بسيط لا أثر للصنعة فيه، هذا إذا استثنينا الافتتاحية بما يصحبها عادة من العبارات المتكلفة الموجهة إلى الشخص الذي بعث بالرسالة إليه. وهي بلا شك تعكس انطباعات حية مباشرة عن ذلك العصر المضطرب الذي لم يتجاوز فيه سلطان الخليفة في واقع الأمر بغداد ونواحيها؛ وكانت حلب آنذاك تحت حكم المرداسيين بينما كانت أنطاكية في قبضة البيزنطيين؛ أما مصر فقد سيطر عليها الفاطميون. ورغماً عن هذا فقد كانت حرية التنقل كما أبصرنا مكفولة لا في داخل العالم الإسلامي فحسب بل حتى بين الدولة البيزنطية وأراضي الإسلام".

معجم طبي

ترد مفرداته عند ابن بطلان وأطباء عصره

(لفائدة الباحثين)

أبرسيم: حرير خام

أبنوس: Ebene

أثل:. Tamarix spp

أثمد ، كبريت الانتموان S2 Sb2

إجاص: Prunus damestica

أجاف: Agave spp.

الأرطه: Calligonum comosum

أروكاريا: Araucaria spp

الآس: MyrtusCommunis

أسرب: هو الابار عند البيروني الأبار والآنك هما الرصاص الأسود في القانون.

أفتيمون: Epithymum

أفسنتين: Art. Absinthium

أفيون: Opium

أقاقيا: رب تمار الـ: Acacia

أقليميا ، قليميا: خبث كل معدن ذائب

الأكاسيا(الطلح): Acacia spp.

أملج: Emblic

أنفحة: Presure

أوزيوا: جوز الطيب Myristiea officinalis

أيبوميا "ست الحسن": Ipomea palmata

اسما نجوني: أزرق بنفسجي أو سماوي

اشقيل: Urgithymum

ايلانتوس: Ailanthus altissima

البابونج: Chamomile

باركنسونيا "شوكة الفرس": Parkinsonia spp

البان: Moringa Paregrina

برباريس، امبرباريس: Berberis

برشياوشان، كزبرة البئر: Adiantum

بروسوبس: Prosopis spp

البزروميا: Myoporum serratum

بسبايج: Polypodium

البقدونس: Parsley

بقس: Buxus

بلاذر: Anacardium

البلوط: Quercus rubra

بنج: Hyoscyamus

بنفسج: Viola

بوانسيانا: Delonix regia

بودرة العفريت: Brachychiton populneus

بيجونيا: Begonia spp

تافسيا، ينتون: Thapsia

ترنجبين (من العاقول): Alhagi

ترهل: الرهل الانتفاخ حيث كان، وهو شبه وريم ليس من داء ولكنه رخاوة السمن.

ترياق: Theriacum دواء مركب يؤخذ لدفع السموم ويقال أيضا درياق.

تريد: Ipo. Turpeum

تشنج: Convulsions التشنج في الطب هو تقبض عضلي: عنيف غير إرادي، وفي "فرس شنج النسا" متقبضه، وهو مدح للخيل، لأنه إذا انقبض نساه وشنج لم تسترح رجلاه.

تفتيا: Thevetia spp

تلآنك المحرق: Pbo

تلفطار: الزاج الصفر

التمر الهندي: Tamarindus indica

توبال، خبث، سقوربون: Scoie

توتيا: Zinc oxyde

تيكوما: Tecoma spp

تين شوكي: Opuntia spp

الثويا: Thuja orientalis

جاد شير اللوز: Opoponax

جادرش: Millot

جاكراندا: Jacaranda spp

جاوشير: Opoponax

الجزر: Carrot

جلتيت: Assu fortida صمغ الانجدان نبات طبي.

جلنار: زهر الرمان

جميز: Ficus Pesudo-sycomorus

جندبادستر: Castoreum خصية حيوان بحري يعيش في البر والبحر يسمى كلية الماء أو المسمور.

الجندباستر: of castoreu

جهنمية: Bogainvillea spp

جوارشات: Electuary أي الدواء الذي لم يحكم سحقه ولم يطرح على النار بشرط تقطيعه رقاقا.

جوزة الطيب: Nutmeg

حب الرند (غار): Laurus

حب النيل: Caladama, Iponea

الحبة السوداء: Nigeria Sativa

حجل: Partridge طائر كالحمام في جمجمة، أحمر المنقار والرجلين طيب اللحم.

الحرمل: Rhazya Stricta

الحرمل: Stinkweed

حسك: Tribulus

حضض: Lycium

حلبا: Trigonella

الحلبه: Fenugreek

حنطة (قمح): Triticum

حنظل: Calocynthis

الحور: Populs spp.

خردل: Mustard

خرز النعنق: Cervical vertebral spines

الخروب: Creatonia siliqua

خروع: Ricinus Communis

خريق أبيض: eratrum album

خريق: Hellebore نبات ورقة كلسان الحمل ومنه أبيض وأسود الأبيض منه يسمى بقلة الرماه وقاتل الذئب وخانق الذئب.

خل: Vinaigre

خل ثقيف: أي شديد الحموضة.

الخل البلدي: Ammi visnaga

خنا: Lawesonia

خيار حلو: Cucmis sativus

خيار شنبر: Cassia Fistula

الدراسينيا: Dracaena australis

دردي: Tarire

دفلة: Nerium oleander

دهن: Oil

دودونيا: Dodonea viscosa

دودونيا: Dodonea spp

ذرايح: Extrait concentre

راخراخي: أي لحيم.

رازيانج: النبات المعروف بالشمر.

رامك، ارماك: رب حشب الكندر

الرمان: Punica granatum

روسنحتج، نحاس، محرق: CuO

الريحان: Ocimum basilicum

زاج أبيض: Zinc Sulfate

زاج أخضر: Fer protasulfate

زرنيخ أحمر: Arsanicum (S2 As2)

زعفران: Convallaria Maialis

زنجار: Cuivre acetate

زنجبيل: Ginger

زنجفر، زنجفور: Cinaber

الزنزلخت: Melia azedarach

زوافرطب: شحم الصوف

زوفا يابس: Hyssopus

الزيتون: Olea europaea

زيد البحر: Sepia - Seche

الزيزفون: Elaegnus angusti folus

ساليكورنيا: Salicornia begolovi

السحلب: ORCHIS MASCULA

سدر: Ziziphus spp

السذاب: Ruta

سرو: Cupressus spp

سعوطات: Snuffs, Quince

سقرريون، خبث: Scorie

سك: معجون ممسك أساسه الأملج أو البلح

سكتة: Apoplexy داء وفي الوسيط: موت الفجاءة.

سكنجبين: Oxymel شراب يتخذ من الخل والعسل.

سكينج: Sagapenum

السمسم: Sesamum indica

سنا أندلسي: Colutea

سنا حرمي، سنامكي: Senna

السنديان الحريري: Grevillea robustu

سنط السمر: Acacia tortilis

سنط الطلح: Acacia ehrenbergiana

سنط عربي: Acacia spp

سنون: Pate dentifrice

سوس: Iris

سوس (عرق): Glycyrrhiza

السوش: of iris

سويق: ما قلي من الحبوب ثم طحن

سيرج، شيرج، زيت السمسم.

شاهترج: Fumaria

شب: Alum

شحم الحنظل: Fat of colcoeynth

الشمر: Fennel

شونيز: Nigella الحبة السوداء.

شيافات: Plugs, Suppositories ويقال الأشياف جمع وهو الدواء الذي يجمع قمعا أو تلبيسه أو فرزجه.

شير: Euphorbia pithyusa

شيرج: Sesame oil زيت السمسم (السيرج).

شيلثيا: Sabin

الصبر: Aloe

صدف: Coquille

صندل: Santal

صنوبر . Pinus spp

ضابط: فرجار

طبرزد: سكر طبرزد- أصله بالفارسية تبرزد أي الذي تحت من جوانبه بالفأس.

طراثيث: Cynomorium

عاج: Ivoire

عاقر قرحا: Pyrethra نبات يشبه البابونج الأبيض.

العرعر: Juniper

عرق السوس: Licorice

العشار: Calatropis procera

عظم المشاش: Cribriform plate of ethmoid bone

عفص: Galle

علقم: الحنظل أو كل مادة أو عقار مر الطعم

عنزروت أو أنزروت: Sarcocolla

عوسج: Rhammus au Lycium

الغار: Laurus nobilis

غاريفون (واغاريفون): Agaricum

الغاف (البرسبوبس): Prosopis spp

غافث: Eupatoria

غالية: ضرب من الطيب.

فالج: Hemiplegia شلل نصفي، فلج كل لشيء: نصفه فلج الشيء بينهما: قسمه بنصفين.

الفتنة: Acacia farnesina

الفجل: Radishes

الفربيون: of cuphorbeum

فربيون، افربيون: Euphorbijm

فلفل رفيع الأوراق: Schinus molle

فوذنج: Marrubium

فوه: مادة يعالج بها الطيب.

فيظريون: (تصحيحه قنطوريون): Centarium ذكر منه نوعان: قنطوريون صغير وهو نبات طبي يستعمل كطارد للديدان، وقنطريون عنبري ويستعمل منه مواد مطهرة.

فيكس: Ficus spp

قاقلة: Cordamome هو الحبهان في مصر، والهال في العراق، والهيل في الجزيرة العربية.

القثا: Cucumis sativus

قثاء الحمار: Wcbalium Elaterium

قدميا: Zinc Carbanate

قرطم (حب): Carthamus

قرفة: Cinnamomum

القرم: Avicennia marina

قرن الأيل: Cornede Cerf

قسط: Pryone

قطران: Goudron

قلقديس: الزاج الأبيض

قليميا: خبث كل جسد

قنة: Ferula

القندل: Rhizophora mucronata

قنطريون: Centaurium

قوقايا: Compound pills vein دواء مركب، وفي الموسوعة في علوم الطبيعة أنه نبات يستخرج منه الكوكايين.

قولنج: Colitis مرض مؤلم سببه التهاب القولون.

قيصوم: Achillea fragrantissima

قيفال: Caphalic vein وريد في الجانب الوحشي من العضد.

كازوارينا: Casuarina spp. .

الكافور: Camphor

كافور (كينا): Eucalyptus spp.

كاكنج: Physalis

كايلي (أهليلج): Term. Chebula

كثيراء: Astragalus gum

الكراث: Allium Porrum

كراويا: Carum Carvi

كرسنة: Viscia Ervila

الكركم: Curcuma longa

كروتون: مدينة يونانية

كزاز: يعرض على الرعدة التي تصحب الإنسان من برد شديد أو نزيف، وكذلك على مرض التيتانوس Tetanus

كشوث: Cuscuta

كف مريم: Vitex agnus- castus

كلس، نورة: CaO

كمون: Cumonum Cyminum

كندر، لبان: Obibonum

كندسي: Strutium نبات له ورق بين البياض والخضرة يسمى في المغرب عود العطاس.

كهربا، كهرمان: Succin

الكونوكربس: Conocarpus erectus

كيموس: Humors الأخلاط.

لانتانا: Lantana camara

لبخ: Albizia Lebbek

لبلاب: Convolvulus

لحار: Cortex

لخالخ: جمع لخلخة وهو ضرب الطيب.

لسان الثور: Borago،

لعاب: Mucilage

لقوة: Facial palsy شلل العصب الوجهي.

لوز هندي: Pithecellobium dulce

لوغاذيا: Compound purgative pills دواء مركب مسهل.

مازريون: Daphne Meserum

ماقيا: Glaucium

متقنت، متقند، شجرة

مرتك، مرداسنج

مرجان: Corail

مقل: Bdellium

مقلياتا: ما قُلِيَ من الشيء.

ميراميه: Salvia officnalis

نبق "سدر": Ziziphus spina-christi

النخيل: Phoenix spp.

نخيل البلح: Phoenix dactylifera

نخيل الدوم: Hyphaene thebaica

نخيل الدوم: Hyphaena thebaica

نخيل الواشنطونيا: Washingtunia filifera

نرجس: Narisus

نعناع: Peppermint

البنفسج: Of violets

نمام: Thymus serpyllum نوع من الصعتر وهو الصعتر البري.

نوشادر: Sel dammoniac

النيم: Azadirachta indica

هليلج ويقال إهليلج: Terminalia Myrobolans شجره ينبت في الهند والصين ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار.

الهندباء: Taraxacum afficinalis

الهيبسكس (الورد الصيني): Hibiscus spp

الهيل: Cardamon

وج: Acorus Calamua

ورد: Rosa

ورنيخ أصفر: S2 As2

وشق، اشق، وشج: Ammoniacum هو صمغ طبي يعرف بمصر بالكلخ، أو علك الكلخ.

يتوع: Latex

اليوكا: Yucca spp

يوكالبتس "كافور– كينا": Eucalyptus spp.

كشّاف الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ظ)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

كشّاف حضاريّ وطبيّ

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

مراجع التحقيق

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت 668هـ):

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م.

ابن الصلاح، الإمام أبي عمرو، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (577 - 643هـ):

- مقدمة ابن الصلاح، تحقيق وشرح: الدكتور نور الدين عتر، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق 1984م.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون (ت 685هـ):

- تاريخ مختصر الدول، تحقيق: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، بيروت: دار الرائد اللبناني، 1927م.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ):

- بغية الطلب في تاريخ حلب، الطبعة الأولى، تحقيق: الدكتور سهيل زكار في أحد عشر مجلداً من أصل أربعين مجلداً، دمشق سنة 1990م

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ):

- زبدة الحلب في تاريخ حلب، وهو مختصر من كتابه السابق. نشرة المعهد الفرنسي في دمشق، 1951م (ثلاثة مجلدات)، تحقيق: الدكتور سامي

الدهان. ثم نشرته دار الكتاب في بيروت سنة 1997م في مجلدين بتحقيق د. سهيل زكار.

ابن الغَزِّي، شمس الدين أبو المعالي محمّد بن عبد الرحمن (ت 1167هـ):

- ديوان الإسلام، تحقيق: كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلميّة ط1، 1990م.

ابن المجاور (ت 680هـ):

- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، اعتنى بتصحيحه: أوسكر لوفقرين، منشورات المدينة، بيروت ط2 سنة 1986.

ابن جلجل، سليمان بن حسان (ت 399هـ):

- طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، نشر المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن أبي بكر (ت 681هـ):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، دار بيروت، 1969م.

ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي (ت 428 هـ):

- الشفاء، تحقيق: الدكتور أبو العلا عفيفي، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1956.

ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي:

- القانون في الطب، دار الفكر، بيروت، 1994.

ابن فضلان (كان حياً سنة 309هـ):

- رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة م921م، حرَّرها وقدَّمها: شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سلسلة: ارتياد الآفاق، 2003.

ابن منظور (ت 711هـ):

- لسان العرب، دار الكتاب المصري واللبناني، 1998

الباباني (ت 1339هـ):

- إسماعيل بن محمد أمين مير سليم الباباني البغدادي هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مجلدان، أسطنبول سنة 1351 هـ..

البلوي، ابن الداية (ت334هـ):

- سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (بدون تاريخ).

بن بطلان (ت 458؟ هـ)، المختار بن الحسن:

- دعوة الأطباء، درسه وحققه: عزت عمر، دار الفكر، دمشق 2003.

بن منقذ، أسامة (583هـ):

- كتاب الاعتبار، حرَّره: فيليب حتي، د.ف.، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت.

البيروني، محمد بن أحمد (ت في حدود عام 440 هـ):

- الجماهر في معرفة الجواهر، تصحيح: سالم الكرنكوي الألماني، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، 1393 هـ - 1973 م.

التنوخي (ت 384 هـ):

- الفرج بعد الشدة، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 2001.

التوحيدي، أبو حيان (ت 414 هـ):

- أخلاق الوزيرين، ط.1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1997.

الجرجاني، أبو الحسن (ت 471هـ):

- التعريفات، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. دت.

الحموي، ياقوت (ت 626هـ):

- معجم البلدان، ج1، تحقيق: عبد الله بن يحيى السريحي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002.

خليفة، حاجي (ت1067هـ):

- كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1992.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ):

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1990م.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م.

الرازي، محمد بن زكريا (ت حوالي سنة 313 هـ):

- الحاوي في الطب، تصحيح: السيد عبد الوهاب وشرف الدين ومحمد عبد المعين خان، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، مطبعة الدائرة 1955- 1972م.

الرهاوي، إسحاق بن علي (كان حياً عام 250هـ):

- أدب الطبيب، تحقيق: د. مريزن سعيد عسيري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى 1992م.

الزركلي، خير الدين (ت 1976م):

- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م.

الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (ت 538 هـ):

- أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، أوفست مكتب التبليغات الإسلامي، قُم، إيران. دت.

الزهراوي، خلف بن عباس (ت 404هـ):

- التصريف لمن عجز عن التأليف، تصحيح: محمد عبد العزيز بن الحكيم محمد بن إسماعيل، لكنو، طبع على نفقة قطب الدين أحمد، المطبع النامي (حجر)، 1326 هـ- 1908م.

الساعاتي، رضوان بن محمد (ت نحو 618هـ):

- علم الساعات والعمل بها (مع مجموع في الميكانيك الإسلامي)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، بيروت 1981. وهو منشور منفصلاً بعنوان: علم الساعات و العمل بها، تأليف رضوان بن محمد الساعاتي، ط1، دمشق، سوريا، دار الفكر، 1990.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ)

- الملل والنحل، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا 2002.

شيخو اليسوعي: الأب لويس (1859م- 1927م)

- شعراء النصرانية في الإسلام، رحلة ابن بطلان إلى الشام، مجلة (المشرق)، العدد 23 سنة 1925، الصفحات 764- 769.

الصابئ، أبو الحسين هلال بن المحسِّن (ت 448هـ):

- رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه: ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي، بيروت ط2 سنة 1986.

الصفدي، خليل بن أيبك (ت 764هـ):

- الوافي بالوفيات، تحقيق: وداد القاضي، فيسبادن، دار النشر فرانز شتاينر، ألأمانيا 1982م.

فخري، الدكتور ماجد:

- دراسات في الفكر العربي، بيروت، دار النهار ط3، 1982.

فنديك، إدوارد (ت ؟):

- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، القاهرة سنة 1897م.

القزويني، زكريا بن محمد (ت 682هـ):

- آثار البلاد و أخبار العباد، ط1، بيروت، لبنان، دار صادر، 1990.

القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد (ت 646هـ):

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي، القاهرة.

كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش (ت 1951م):

- تاريخ الأدب الجغرافي في العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963م.

كلاين- فرانه، فليكس:

- رسالة دعوة الأطباء لابن بطلان، عُنيَ بتصحيحها ونشرها فليكس كلاين- فرانكه، Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1985.

المسعودي، عليّ بن الحسين بن عليّ (ت 346 هـ):

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، وضع فهارسه: يوسف أسعد داغر، الطبعة الثانية، دار الهجرة، 1984م، أوفست عن الطبعة الأولى 1965م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346 هـ):

- التنبيه والإشراف، طبع في مدينة ليدن سنة 1893، أوفست دار صادر، بيروت، دت. التنبيه والإشراف، أعده للطبع وعلّق حواشيه: قاسم وهب، دمشق، وزارة الثقافة السورية 2000، طبعة كاملة للكتاب بجزئين.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ):

- نهاية الإرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1949م.

Klein-Franke, Felix:

- (Edited from Arabic manuscripts and with an introduction by): IBN BUTLAN: THE PHYSICIAN'S DINNER PARTY, Otto Harrassowitz. Wiesbaden 1985.

المحتويات